

البيرة كامو

المنفى والملكوٲ

نقلها إلى العربية

خيري حماد



المنفى والملاكوٲ

البير كامو

المنفى والملكوت^{٢٦} بني

بمجموعة قصص

نقلها إلى العربية

خيري حماد



الاهراء

الى فرانسيس

كلمة المترجم

البير كامو هو اديب فرنسا الكبير ، الذي خرج عن نطاق فرنسيته ، ليصبح انسانياً في ادبه وانتاجه وفكره .

ولد في الجزائر العربية عام ١٩١٣ من ابوين فرنسيين ، في حي بلكور في المدينة المناضلة ، المكتظ بالسكان ، ودخل مدرسة الحي الأولية ، فظهر نبوغاً منقطع النظير سرعان ما ضمن له الدراسة المجانية في مدارس الليسيه .

نشأ لا يعرف والده ، فقد توفي عنه وهو صغير ، ونشأ في حضن امه الارملة ، يرعاه عمه المعجوز سانتيز ، صانع البراميل ، الذي لا يعرف القراءة . وكانت أمه ، تقوم ببعض الاعمال ، لتضمن الحياة لنفسها ولولدها ، البير وشقيقه الاكبر ، وامها المعجوز ، وشقيقتها المشلوله الخرساء .

والتحق بمدارس الليسيه عام ١٩٣٠ ، ولكنه سرعان ما اصيب بنزلة رئوية حادة تحولت الى درن رئوي ، وضعف كيانه ، واضعف روحه المعنوية ، فاضطر الى التوقف عن الدراسة والبحث عن عمل فحصل على وظيفة كاتب صغير في دار المحافظة في مدينة الجزائر . وأخذ يقرأ في هذه الفترة كل ما يقع تحت يده من الكتب الادبية ولا سيما من المسرحيات العالمية الخالدة ، وكان اكثرها تأثيراً في نفسه مسرحيات الكاتب الروسي الكبير دوستوفسكي .

وتعرف الى شخص يدعى باسكال بيا ، كان يعمل في الصحافة الجزائرية ،

فبعث هواية الصحافة في نفس كامو ، الذي شرع يكتب في مجلة فرنسية تصدر في الجزائر ، ويظهر في كتاباته عطقاً واضحاً على الجزائريين .

وانتقل الى باريس ، قبل نشوب الحرب العالمية الثانية ، حيث بدأ يدرس الاشتراكية ، لا من كتب كارل ماركس بل من الحياة نفسها . وعين عام ١٩٣٩ سكرتيراً لتحرير جريدة باري سوار ، بعد ان انضم الى الحزب الشيوعي ، ولكنه سرعان ما انفصل عنه ومن هذه الفترة ، وضع كامو كتابيه العظيمين « الابرار » و « الغريب » .

ووقعت الحرب ، واحتل الالمان فرنسا ، فانضم الى حركة المقاومة واصبح عضواً في هيئة تحرير صحيفة « لاكومبا » السرية ، وظل يعيش مخفياً عن الانظار مدة من الزمن .

وعندما تحررت فرنسا عام ١٩٤٠ ، اصبحت « لاكومبا » ، صحيفة يومية ، اسندت رئاسة تحريرها الى كامو . وبرزت في هذه الفترة شهرة كامو فاصبح اشهر كتاب فرنسا قاطبة ، ومن كواكب الادب الساطعة في العالم .

وفي عام ١٩٤٥ ، منح جائزة نوبل للادب ، واصبح علماً من ابرز اعلامه .

وانفصل كامو عن « لاكومبا » التي اضحت مثل غيرها من الصحف اليومية الاخرى ، واخذ يكتب في عدد من الصحف والمجلات .

وتوفي كامو في حادث سيارة في عام ١٩٦٠ وهو في السادسة والاربعين من عمره ، بعد ان ترك في تراث الادب العالمي ، اثراً خالداً خلود الدهر .

- المترجم -

المرأة الزانية

حوّمت ذبابة في الدقائق الاخيرة في فضاء سيارة « الباص » على الرغم من ان نوافذ السيارة كانت مغلقة تمام الاغلاق طيلة الوقت . وكان منظرها عجبياً فهي تطير غادية ، رائحة ، يجتاحها ، المتعبين ، دون ان يسمع لها صوت . وكانت جانين ترقبها بعينها ، ثم ما فتئت ان فقدت أثرها ، لتعثر عليها بعد قليل ، وقد هبطت على كف زوجها ، الهادئة . وكان الطقس بارداً ، والذبابة ترتعش مع كل دفقة من دفعات الرياح الرملية ، التي تهب على زجاج النافذة . ومضت السيارة ، في تلك الساعة المبكرة ، من صباح يوم من ايام الشتاء ، الخافتة الضوء ، تملأ الارض ، بضوضائها ، واصوات احتكاك الواحها المعدنية بدواليبها ، وهي تتدحرج وتخطو ببطء شديد ، وكأنها لا تسير . ورنّت جانين الى زوجها مارسيل ، الذي بدا ، وقد خط الشيب فوديه ولتمته ، التي انسدلت فوق جبينه الضيق ، وبانفه المفرطح ، وفمه الرخو ، وكأنه انسان سكير ، علا التجهم وجهه . وكانت تحسّ يحسسه ، يصطدم بها ، عندما تمر السيارة ، فوق كل حفرة ، في تلك الطريق الموحشة ، ثم لا يلبث جذعه الضخم ، ان ينكفيء فيستقيم ،

على ساقيه المنفرجتين ، ويعود الى غيبوبته ، وقد تطلع بعينه الجامدتين الى الفضاء البعيد . ولم يبد فيه ، ما يوحي بالحركة ، الا يده الغليظتان الخاليتان من الشعر ، وقد بانتا اكثر قصراً من حقيقتها ، بما استطال من اكمام ملابسه الداخلية ، حتى انها غطت رسغيه . وأمسكت هاتان اليدان ، بقوة ، بحقيبة صغيرة من الخيش وضعها بين قدميه ، حتى بدتا وكأنها لا تحسان بحركة تلك الذبابة وتوقفها على احدهما .

واشتد عويل الرياح ، فجأة ، كما تكاثف الضباب المحشو بالحصى ، يلف السيارة لفاً . وأخذ الرمل ، يقرع نوافذها ، في مجاميع كبيرة ، وكأن يداً خفية تقذف بها . وهزّت الذبابة ، جناحها ، المتجمد ، ومدت ساقها ، ثم طارت من المكان الذي اختارته . وهدأت حركة السيارة ، وظهرت وكأنها على وشك الوقوف . ولكن ما لبثت الرياح ان خفت ، وارتفع الضباب الى حد ما ، وعادت السيارة تغدّ سيرها . وانتشرت فجوات من الضياء ، في ذلك البلقع الذي غمره الغبار ، واندفعت أمام العيون ، بعض اشجار النخيل ، السامقة ، وقد اصبحت بيضاء ، وكأنها ، اقتطعت من المعدن البراق ، لتعود وتختفي بعد لحظات .

وقال مارسيل : « يا لها من بلاد ! » .

وكانت السيارة ملأى بالاعراب ، الذين التفوا بعباءاتهم . وراحوا يتظاهرون بالنوم العميق . وكان بعضهم ، قد ثنى ساقه ، على المقعد تحته ، وأخذ يتأرجح مع حركة السيارة واهتزازها . وشرعت جانين تضيق بهذا الصمت الذي يلفهم ، وذلك التجاهل الذي يبدونه لكل ما حولهم ، وخيل اليها ، انها قضت اياماً طوالاً ، في سفر مع هؤلاء الرفاق من البكم . مع انها لم تكن قد استقلت السيارة الا فجر ذلك اليوم من المحطة الاخيرة التي

ينتهي اليها القطار أي قبل نحو ساعتين ، ماضية في طريقها ، فوق هضبة صخرية ، غير مطروقة ، تمتد خطوطها المستقيمة ، الى الافاق الحمراء . وما عتمت الزواجع الصحراوية ان هبت ، وغطت برمالها ، الافاق البعيدة ، ومنذ تلك اللحظة ، لم ير المسافرون شيئاً مما حولهم ، فتوقفوا عن الكلام واحداً اثر آخر ، وبدوا وكأنهم يعيشون في ليل طويل من الارق يمسحون شفاههم وعيونهم ، بين آونة وأخرى من الرمال التي تسربت الى السيارة عبر نوافذها .

وانتفضت جانين عندما سمعت زوجها يهتف لها ، وخيل اليها من جديد ان هذا الاسم لا يتفق مع شخصية امرأة لها مثل طولها وصلابتها ، وكان مارسيل ، يريد ان يعرف مكان الحقيقة التي اودعها نماذجه . وبدأت جانين تبحث بقدمها ، في الفراغ القائم تحت مقعدها ، فعثرت على شيء قررت أنه لا بد ان يكون الحقيقة التي يبحث عنها . ولم يكن في وسعها ان تتخني دون ان تمسك بشيء يقيها من السقوط . وتذكرت مع ذلك ، انها عندما كانت في المدرسة ، كانت تنال دائماً الجائزة الأولى في الالعاب الرياضية ، ولا سيما في « الجمناستيك » ، آه ، لا شك ان وقتاً طويلاً قد مر على ذلك خمسة وعشرون عاماً . لكن هذه الاعوام الخمسة والعشرين لا تعني شيئاً . فقد بدت لها وكأنها أمس ، عندما ترددت بين الزواج ، والبقاء حرة مستقلة ، واخيراً تقلبت فكرة الزواج ، فقد قلقت من مجرد تخيل ، الوصول الى سن الشيخوخة ، وهي وحيدة ، لا يرعاها انسان . ولكنها الآن ، ليست وحيدة ، وما هو طالب الحقوق ، الذي كان يتوق دائماً ، الى البقاء بجانبها ، يجلس معها في هذه اللحظة . وقد رضيت به زوجاً على الرغم من انه كان يقصر عنها في القامة ، ولم تكن لتحب منه ضحكته ، العالية ، الطويلة ، ولا عينيهِ البارزتين السوداوين . ولكنها احبت فيه شجاعته في مواجهة

الحياة ، التي اشترك فيها مع الفرنسيين الآخرين المقيمين في البلاد ، كما احبت نظرتة اليائسة ، عندما تسير الاحداث او الناس على هواه . وكانت فوق هذا ، كله ، تريد ان تشعر بأنها محبوبة ، وقد ابدى لها كل اهتمام وحب ، وجعلها تحس دائماً ، انها موجودة بالنسبة اليه ، وهذا ما حفزها على الاحساس بالوجود . لا . انها ليست وحيدة ...

ومضت السيارة ، وهي تنفخ بوقها بين آونة واخرى ، تشق طريقها ، عبر عقبات غير مرئية . وظل الجميع هادئين داخل السيارة . وأحست جانين فجأة بعينين ، تكادان تلتها ، فالتفتت الى المقعد ، القائم ، بجانبها عبر المر ، ورأت انساناً . انه ليس من الاعراب ، وقد أدهشها ، انها لم تحس بوجوده منذ البداية . كان يرتدي زي الفوج الفرنسي العامل في الصحراء ، وقد وضع على رأسه قبعة من الكتان غير الابيض ، تعلق وجهاً لوحته الشمس ، وقد بدا بطوله وذقنه المدببة وكأنه وجه ابن آوى . وكانت عيناه الرماديتان ، ترقبانه بنوع من الامتعاض العبوس ، في نظرة حادة ثابتة . وشعرت فجأة بحمرة الخجل تعلق وجنتيها ، وأدارت رأسها الى زوجها ، الذي كان لا يزال على حاله يتطلع بعيداً ، عبر الضباب والرياح . واسترخت يحسها في معطفها الثقيل ، ولكنها ما فتئت ترى ذلك الجندي الفرنسي الطويل القامة والنحيف البنية ، وقد بدا في زيه الرسمي ، وكأن جسمه قد من مادة جافة مشوية هي مزيج من الرمل والمطم . ورأت آنذاك ، ايدي الاعراب النحيلة ، ووجوههم التي حرقنها الشمس ، فأدركت انهم على الرغم من ليابهم الفضفاضة ، لا يلاون المقاعد التي يحتلونها ، بينما تكاد تشعر بالاختناق في المقعد الذي تحتله مع زوجها . وسحبت معطفها ، فغطت به ركبتيها . انها تعرف انها ليست بالبدينة ، وانما هي مشوقة القد ، ملفوفة البدن . وهذا الالتفاف يجعلها ،

محط رغبات الرجال التي تحس بها ، عندما تراه ينظرون اليها ، والى وجهها الذي تبدو عليه براءة الطفولة ، وتتألق فيه عينان تنطقان بالسذاجة ، لا تنسجيان مع ذلك الجسم الضخم ، الذي تعرف هي ما فيه من دفء واغراء .

ولم يحدث في رحلتها أي طارئ كما توقعت ، فعندما اراد مارسيل ، ان يأخذها معه في هذه الرحلة ، اعترضت ، واحتجت . فهو يفكر فيها ، أي في رحلته ، منذ انتهت الحرب . وعادت الاعمال التجارية الى سابق عهدها . فقد كانت تجارة السلع الصغيرة التي ورثها عن والديه ، تؤمن له قبل الحرب الاخيرة ، حياة محترمة هنيئة ، فعلى سواحل البحر . تكون سنوات الشباب عادة ممتعة سعيدة ، لكنه يكره كل مجهود بدني ، ولذا فسرعان ، ما عدل عن المضي بها ، الى الشواطىء واقتصرت نزواته ، على اخذها في سيارته الصغيرة ، بعد ظهر كل يوم من ايام الآحاد الى خارج المدينة . وكان يفضل قضاء بقية اوقاته ، في حانوته المليء بمختلف السلع ، المتنوعة الالوان . والذي تظله قناطر هذا الحي الذي يجمع بين الأوروبيين وأهل البلاد . وكانا يقيان في منزل من ثلاث غرف . يقع فوق الحانوت . وقد زانته الستائر العربية ، وفرشاه بالاثاث الذي ابتاعاه من معرض باربيه . ولم يكن لديها اطفال . فمرت الأعوام ، رتيبة ، في حالة اشبه بالظلمة الخيمية ، تقضيها وراء درفات النوافذ المغلقة . أما الصيف ، والشواطىء والرحلات ، ومشهد السماء بزرقتها ، فقد غدت كلها من أمور الماضي البعيد . ولا يهتم مارسيل الا بتجارته واكتشفت جانين ، ان حبه الحقيقي إنما ينحصر في المال ، فلم يعجبها ذلك ، دون ان تدري لاحساسها سبباً او علة . فالمال الذي يسعى لطلبه ، انما هو لها ، ولم يبخل قط عليها بشيء ، بل كان كريماً سخياً ، ولا سبباً بالنسبة الى الامور المتعلقة بها .

وكثيراً ما سمعته يقول لها . « اذا حدث لي حادث ، فيكون لك ما يكفيك » . وفي الحق ، فالضرورة تحتم ان يتوفر للانسان ما يؤمن له حاجاته . ولكن كيف يمكن تأمين الاشياء الباقية ، ولا سيما تلك التي لا تتناول الاحتياجات الاولى . هذا ما كانت تحس به في فترات متقطعة . ولكنها مع ذلك مضت تساعد مارسيل في ضبط حساباته ودفاتره ، وكثيراً ما حلت محله في الحانوت اذا ذهب لأمر ما . وكان الصيف بالنسبة اليها ، أقسى الاوقات ولا سيما عندما يخمد الحر ، جميع المشاعر العذبة حتى احساس الضيق والملل .

وفجأة ، وقعت الحرب في فصل الصيف ، واستدعي مارسيل للخدمة العسكرية ، ولكنه ، لم يقبل ، لاسباب صحية ، ووجد مارسيل ، تجارته تتوقف لسبب ندرة البضائع ، كما اوضحت الشوارع خالية من الناس ، يكاد يحرقها القيط . وادركت انه لو حدث لزوجها شيء في هذه الآونة ، فلن تجد ما يؤمن لها حياتها . وهذا هو السبب الذي حمل زوجها على التفكير ، بعد انتهاء الحرب ، وعودة السلع الى الظهور في الاسواق ، في القيام بهذه الرحلة التي يطوف فيها المنطقة الجبلية وارجاء الجنوب ، لبيع الى التجار العرب بضائعه دون حاجة الى وسيط . واراد ان تصحبه في رحلته ، وكانت تعرف ما في الترحال من متاعب . لا سيما وانها تشعر بضيق في التنفس ، وكانت تفضل لو سمح لها بالبقاء في البيت . ولكنه اصر على رأيه ، الذي قبلت به ، لأنها لم تجد في نفسها الحيوية الكافية للرفض . وهما ماضيان الان في رحلتها ، وقد وجدت كل شيء يختلف عما توقعته أو تصورته . فقد كانت تخشى من الحرارة ومن اسراب الذباب والفنادق القذرة التي تنفوح منها رائحة « اليانسون » . ولم يخطر ببالها ، انها ستجد الطقس بارداً ، والرياح شديدة تعضّ الابدان ، وانها سترى هذه الهضاب

التي تشبه المناطق القطبية ، تعج بالجلاميد من الصخور . وقد حملت بأشجار النخيل والرمال الناعمة ، ولكن ما تراه الآن ، صحراء ، مختلفة ، من الصخور ، المنتشرة في كل مكان ، والسماء ملأى بتراب هذه الصخور ، الذي يخدش الابدان ، ويحجدها ببرودته ، بينما الأرض ، تخلو من كل شيء ، الا من الاعشاب الجافة نامية بين الحجارة .

وتوقفت سيارة الباص بغتة . وصرخ السائق بعض كلمات ، باللغة التي سمعتها طيلة حياتها ، دون ان تفهم منها حرفاً واحداً . وسأله مارسيل : « ما حدث » ، فرد السائق بالفرنسية هذه المرة ، قائلاً ، ان الاتربة قد اغلقت « الكاربوراتير » كما يبدو ، وصدر عن مارسيل ، سباب مقذع ، لتلك البلاد اللعينة ، فضحك السائق ، بمرح زائد ، وطمأنه بان المشكلة بسيطة للغاية ، وانه سيزيل ، ما علق بالانبوب من تراب ثم يستأنف السير . وفتح الباب ، فهجمت الرياح ، الباردة على السيارة ، تقرر وجوه الركاب بسياط من ذرات الرمل ، التي تحملها . وغطى الاعراب انوفهم ، بعباءاتهم بهدوء ، وظلوا في اماكنهم . وصرخ مارسيل : « اغلق الباب » وضحك السائق عندما عاد الى الباب ، وبكل هدوء وقودة ، اخرج بعض المعدات والالات ، من سيارته ، ثم خرج ثانية الى الضباب ، دون ان يغلق الباب . وتنهى مارسيل وقال : « في وسعك ان تثقي بأنه لم ير جهاز سيارة في حياته » وردت جانين قائلة : « اهدأ يا مارسيل » . وفجأة هبت جانين من مقعدها ، فقد رأت على كتف الطريق ، وعلى مقربة من السيارة ، اشباحاً جامدة ، وقد غطت نفسها بعباءات من الصوف ، لا تبدو منها الا عيونها ، وهذه الاشباح التي ظهرت من العدم ، تتطلع الى المسافرين بمقلقة غريبة . وقال مارسيل . « انهم من الرعاة » .

وختم سكون شامل ، داخل السيارة ، وبدا جميع المسافرين ، وقد

اطرقوا برؤوسهم ، ينصتون الى صوت الرياح ، التي اطلقت من عقالمها ،
لتهب على تلك الهضبة ، التي لا يحدها النظر . أحست جانين فجأة ،
بنوع من الدهشة ، لعدم وجود أمتعة ، للركاب في السيارة ، وتذكرت ان
السائق في محطة القطار الاخيرة ، قد حمل حقيبتها وبعض الرزم الاخرى
الى سطح السيارة . ولم تر داخلها الا بعض العصي المعقوفة ، و سلال
الحاجيات . وبدا لها ان جميع هؤلاء المسافرين من اهل الجنوب ينتقلون
خالي الوفاض ، ولا متاع بأيديهم .

وعاد السائق الى السيارة ، وهو في اتم النشاط والحيوية . وكانت عيناه
تضحكان وقد بانتا ، من وراء هذا النقاب الكثيف الذي اسدله على وجهه
ليمنع عنه الغبار . واعلن لركاب سيارته ، انها ستستأنف سيرها بعد
لحظات ، ثم اغلق الباب ، وأخذ صوت تساقط الرمال على زجاج النافذة
يسمع واضعاً . وسعلت الآلة ، سعالاً قوياً ، ثم خفت صوتها . وأعاد
السائق المحاولة ، وسرعان ما دبّت الحياة فيها ، ومضت في طريقها ،
وارتفعت ذراع ، من تلك الزمرة من الرعيان ، ذوي الثياب الرثة ،
الواقفين جامدين كالاصنام ، الى جانب الطريق ، ولكنها سرعان ما اختفت
وراء سدف الضباب الكثيف . وشرعت السيارة تتأرجع على الطريق
التي غدت سيئة للغاية ، وكان الاعراب من ركبها ، يتأيلون معها ذات
اليمين وذات الشمال . وأحست جانين رغم ذلك بالنعاس ، يدب الى جفניה
عندما رأت امامها فجأة صندوقة صغيرة صفراء ملأى باللوزينج ، وابصرت
بالجندي - ابن اوى ، يتطلع اليها مبتسماً . وترددت لحظة واحدة ، ثم
حزمت امرها ، والتقطت قرصاً منها ، وشكرته . ووضع الجندي العلبة
في جيبه ، وابتلع ابتسامته ثم ادار وجهه متطلعاً الى الطريق أمامه .
والتفتت جانين الى مارسيل ، فلم تر منه ، الا مؤخرة رقبته . فقد كان

يرقب عبر النافذة ، تكاثف الضباب متصاعداً من الرصيف المتعرج .

وكانت قد انقضت ساعات طويلة على بدء الرحلة ، وأخذ الاعياء كل حياة داخل سيارة الباص ، عندما انفجرت هتافات عالية خارجها ، ورأت جانين اطفالاً يرتدون العباءات ، يحومون حول السيارة ، كالنحللات الدوارة ، التي يلعبون بها ، ويقفزون ، مصفقين بأيديهم ، ويتراكضون جيئة وذهاباً . وكانت السيارة تعبر الآن شارعاً طويلاً ، اصطفت البيوت الخفيضة على جانبيه ، هو شارع الواحة . أما الريح فما زالت على شدتها وعنفها ، وان كانت جدران البيوت قد حالت بين الرمال التي تحملها ، وبين اللقاء ستار كثيف على ضوء النهار . وظلت السماء ملبدة بالغيوم . ووقفت السيارة ، وسط هذا الضجيج من الصراخ ، بعد ان زعقت « فراملها » ، أمام الأقواس المبنية من الطوب ، التي يقوم عليها فندق ، تبدو نوافذه القذرة . وخرجت جانين من السيارة ، وما كادت تصل الى الرصيف ، حتى ترنحت في مشيتها . ورأت منارة صفراء ، رفيعة ، تعلو البيوت التي امتدت امامها . وأبصرت الى شمالها . أشجار النخيل الأولى ، مشيرة الى ابتداء الواحة ، فودت لو ذهبت اليها . ولكن على الرغم من الظهيرة ، فقد كان البرد قارساً ، وارتعدت اوصالها من شدة الرياح . والتفتت الى مارسيل ورأت الجندي ، يخطو باتجاهها . وتوقعت منه ان يبتسم لها أو يحببها ، ولكنه مر بها دون ان يتطلع اليها ، ومضى في طريقه فاخفى عن انظارها . وكان مارسيل مشغولاً ، بانزال الحقيبة التي تضم بضائعه ، عن سطح السيارة . ولم يكن هذا بالامر الهين ، فالسائق هو الوحيد ، الذي بوسعه ، ان يعنى بالحقائب ، وقد انشغل عنها ، ليعبد هذه المجموعات من العباءات عن سيارته . ورأت جانين نفسها محاطة بوجوه وكأنها قدت من العظام والجلود ليس الا ، وكلها تصرخ في آن واحد ، فاحست فجأة

بالإنهاك يكاد يحطمها وقالت لمارسيل ، الذي كان مشغولاً ، بالصراخ مع السائق ، ، « انا ذاهبة الى الفندق » .

ودخلت الفندق . وهب المدير الفرنسي ، وهو رجل نحيل البنية ضئيلها ، يستقبلها فقادها الى شرفة في الطابق الثاني تطل على الشارع ، ومنها الى غرفة لم ترفيها الا سريراً حديدياً ، ومقعداً ابيض مطلياً بالمينا ، وخزانة للملابس ، لا ابواب لها وستاراً يخفي وراءه طشتاً للاغتسال ، غطاء الغبار . وشعرت جانين عندما مضى المدير ، بعد ان اغلق الباب ، بالبرد ينفذ الى بدنها ، من الجدران العارية « المطروشة » بالكس . ولم تدر ان تضع حقيبتها أو تلقي بنفسها . وتحتم عليها اما ان تستلقي او تظل واقفة ، وفي كلتا الحالتين ، ترتجف اوصالها من البرد . فأثرت الوقوف ، ممسكة بحقيبتها ، وهي تتطلع الى ما يشبه النافذة ، قرب السقف ، تنظر عبرها الى السماء . إنها تنتظر ولكنها لا تدري ما الذي تنتظره . وكل ما أحست به ، شعور طاع بالوحدة ، وبرد قارس ينفذ الى بدنها ، وثقل كبير في ناحية فؤادها . انها ولا شك تحم ، وقد اصمّت اذنيها ، عن الاصوات المتصاعدة من الشارع ، مختلطة بصراخ زوجها مارسيل وانفعالاته ، ولكنها تصيخ السمع ، لذلك الصوت ، الذي يشبه هدير النهر ، قادماً من النافذة ، وناجماً عن ارتطام الرياح بأشجار النخيل ، التي بدت الآن قريبة منها . وبدا لها ان ازيز الرياح يشتد ، وان الهدير قد اصبح موجاً صاخباً . وتخيلت وراء الجدران التي تحيط بها ، بجزراً من اشجار النخيل ، الفارعة العود ، المرنة القوام ، تتأرجح مع الرياح . وعلى الرغم من ان كل ما رأيته ، لم يكن متفقاً مع ما توقعته ، لكن هذه الامواج ، غير المرئية ، بعثت في عينيها التعبتين ، شعوراً من الارتياح . وكانت تقف في مكانها جامدة ، وقد تدلى ذراعها ، وانحنى قامتها بعض الشيء ، بينما اخذت البرودة ، تتسلق ،

ببطء ساقياها المكتنزتين . انها تحلم بأشجار النخيل الفارعة العمود ، المرنّة القوام ، وبالفقاة ، التي كانتها في يوم خلا .

* * *

ونزلا الى قاعة المائدة بعد ان اغتسلا . وكان على الجدران صور اشجار النخيل ، والابل وقد ضاعت في محيط غامر من الازاهير ، القرمزية ، ومن الخزامى . ونفذ الضوء الباهت ، من النوافذ المقوّسة ، وأخذ مارسيل يسأل المدير عن تجارة البلدة . وقام نادل عربي ، كبير السن ، يحمل وساماً عسكرياً على صدره ، بتقديم الطعام اليها . وقطع مارسيل خبزه الى أجزاء صغيرة ، وحال بين زوجته وبين شرب الماء قائلاً انه غير معقم ، طالباً اليها ، ان تستبدله بالنيذ . ولكنها لا تحب النيذ ، لأنه يبعث الرغبة بالنوم في اوصالها . وتضنت قائمة الطعام شرائح من لحم الخنزير ، فقال مارسيل : « انهم لا يأكلونه ، لأن القرآن يحظر أكله ، ولكنهم لا يعرفون ان لحم الخنزير اذا اجيد طهيه ، لا يسبب مرضاً ، ونحن الفرنسيين ، خير من يجيد الطهي . آه . بماذا تفكرين ؟ » ولم تكن جانين تفكر بأي شيء . لا سيما ، بتلك الفكرة التي جاء بها زوجها عن انتصار الطبّاخين على الانبياء . ولكن عليها ان تسرع ، فسيغادران الواحة في صبيحة اليوم التالي الى الجنوب ، وعليها ، ان يجتمعا بعد ظهر ذلك اليوم بجميع التجار من ذوي الأهمية في البلدة . وحث مارسيل النادل ، على الاسراع بالقهوة فاحنى رأسه دون ان يبتسم ، وخرج من القاعة . وقال مارسيل معلقاً وهو يضحك « انهم بطيئون في الصباح ، وغير سريعين بعد الظهر » . ومع ذلك ، فقد أتى النادل بالقهوة ، ولم يكن لديها الوقت الكافي لازدراجها ، ومضيا الى الشارع ، الشديد البرودة : الكشف الغبار . واستدعى مارسيل صبيّاً عربياً ليحمل له الحقيبة ، وسأومه على الاجر كالعادة

او تطبيقاً لمبدأ من مبادئه . وكان رأيه دائماً ، الذي سبق الافصاح به لجانين ، والذي أعاد ترديده اليوم ، انهم يطلبون عادة ضعف الأجر ، ليحصلوا في النهاية على ربحه . ومضت جانين ، وهي تحس بالملل والضجر ، تتبع حاملي الحقائق ، وكانت قد ارتدت ثوباً من الصوف تحت معطفها الثقيل ، وودت لو انهم لا يسرعون الخطو في مشيهم ، لا سيما وقد أثر عليها النبيذ الذي شربته ، ولحم الخنزير الذي أكلته ، على الرغم من اجادة طهيهِ .

وسارا ، يعاذيان حديقة عامة صغيرة ، انتشرت فيها الاشجار وقد علاها الغبار . وكانا يلتقيان في طريقها باعراب ، سرعان ما يتنحون لهما عن الطريق ، دون ان يبدو عليهم انهم قد رأوها ، اذ التفوا بعباءاتهم ، وبدا لهما ان هؤلاء العرب يختلفون عمن عرفتهم في مدينتها ، اذ على الرغم من رثاءة ثيابهم ، تلوح على وجوههم سياء النبل والاعتزاز بالنفس . وتبعت جانين الحقيبة التي كانت تقسح لها طريقاً بين الجماهير المزدحمة . وعبرا من بوابة في سور ترابي الى باحة صغيرة ، تكسوها الاشجار ، وقد انتثرت الى جوانبها في الطرف البعيد ، حيث تتسع الباحة ، الحوانيت ، والاقواس . ولكنها توقفا فيها أمام بناء صغير على شكل قذيفة مدفع ، وقد صنع بلون أبيض يميل الى الزرقة . ووجدا داخل الغرفة اليتيمة في هذا البناء ، التي لا ينيرها الا الضوء المتسرب من الباب رجلاً عربياً طاعناً في السن ، ذا شارب اشيب ، يقف وراء لوح برّاق من الخشب . وكان يصب الشاي . رافعاً ابريقه ، وخافضاً اياه ، فوق الاقداح المختلفة الالوان . وتدفتت الى انفيها ، قبل ان يتبيننا أي شيء آخر عبر الظلام الخيم على المكان ، رائحة الشاي المعطر بالنعناع ، ولم يكذ مارسيل ، يحتاز عتبة الباب ، وينساب بين مجموعات اباريق الشاي واقداحه ومعداته ، ولوحات

الاعلان المتناثرة هنا وهناك ، حتى وجد نفسه ، أمام حاجز خشبي . وظلت جانين واقفة بالباب . ولكنها مالت قليلا عن المدخل ، لئلا تحول يحسدها ، بين الضوء والنفاذ الى المكان . ورأت في تلك اللحظة ، وعبر الظلام ، عربيين يجلسان وراء ذلك التاجر المعجوز ، وقد اقتعدا الاكياس التي تغص بها مؤخرة الحانوت ، وهما يتطلعان اليها ويبتسمان . ورأت على الجدران بسطاً ذات ألوان سوداء وحمراء ، وطيلسانات موشاة ، بينما اختلطت في ارض الحانوت الاكياس والصناديق الصغيرة ، ملأى ببذور المواد العطرية . وعلى الحاجز الخشبي ظهر ميزان من النحاس الاصفر ، ومتر من المعدن الباهت اللون ، وقد اختفت عنه الارقام ، وعدد من رؤوس السكر ، وقد رفع الورق الازرق عن احدها ، واقتطع جزء من هامته المخروطية . وعندما وضع الرجل المعجوز ابريق الشاي ليرحب بها ، اختلطت في انفيها ، رائحة الصوف والتوابل ، ممزوجة مع رائحة الشاي .

وشرع مارسيل ، يتحدث بسرعة ، ولكن بصوت خفيض ، في لهجة رجال الاعمال ، ثم فتح حقيبته ، واخرج ما فيها من اصواف وحرائر ، اخذ يعرضها على الرجل المعجوز ، بعد ان ازاح الميزان والمتر جانبا . ودبت فيه الحماسة ، وعلا صوته ، وأخذ يضحك بعصبية ، وكأنه امرأة تريد ان تفرض اغراءها على شخص وغير واثقة من نفسها . ومضى ، وقد فتح يديه ، على اتساعها ، يخوض معركة البيع والشراء . وهز الرجل المعجوز رأسه ثم سلم ، معدات الشاي الى الشابين اللذين يقفان وراءه ، وفاء ببضع كلمات بدت غير مشجعة لمارسيل . وسرعان ما التقط هذا بضاعته ، وحشرها في حقيبته ، ثم مسح عن جيبته ، بيده عرقاً توهم انه يصب منها . واستدعى الحمال الصغير ، ثم مضوا جميعاً ، باتجاه الاقواس ، وعلى الرغم من ان التاجر ، قد ابدى في البداية نفس المظاهر والاسلوب ،

الا ان مارسيل ، كان أحسن حظاً هنا . وقال مارسيل : « انهم يمتقدون انهم في عظمة الله ، ولكنهم يعملون في التجارة ايضاً ، ويبدو ان الحياة شاقة للجميع .

وتبعته جانين دون ان تفوه بحرف واحد . وكانت الريح قد توقفت تقريباً وأخذت، السماء تصفو في بقاع معينة ، وينبعث من هذه الفرجات العميقة بين السحب الكثيفة ، ضوء ، شديد ، بارد . وكانوا قد غادروا الآن ، الباحة العامة ، ومضوا يسرون في شوارع ضيقة ، تحيط بها اسوار من التراب ، انتشرت فوقها ، ورود برية ، او بعض شجيرات الرمان الجافة . وانتشرت في هذا الحي الذي مضوا فيه رائحة الغبار . والقهوة ، وسحب الدخان المتصاعدة من نيران الحطب المشتعل مختلطة مع روائح الماشية . وكانت الحوانيت ، المنبثقة عن الاسوار متباعدة ، وأحست جانين بقدميها وقد اضاهاها السير ، لكن زوجها ، أخذت تبدو عليه علائم الانسراح ، فقد بدأ يبيع بضاعته ، فرهف احساسه ، وشرع يلاطفها الحديث داعياً اياها « يا طفلي » ، ويؤكد لها ان الرحلة ستكون مجدية مثمرة ، فتد عليه بالايجاب ، ويمضي هو الى القول ، بأن من الخير ، التعامل مع التجار مباشرة ودون وسيط .

وعادا من شارع آخر ، الى مركز البلدة ، وكان النهار ، قد كاد ينصرم ، وصفت السماء تماماً . وتوقفا في الباحة . وتطلع مارسيل الى الحقيقة جذلاً وفرك يديه بسرور . وقالت جانين « انظر ، » فقد جاء من طرف الباحة ، عربي فارح العود ، نحيل القامة ، نشيط المشية ، وقد ارقدى عباءة في زرقاء السماء ، ونعلين بنيين من المطاط ، وفي يديه قفازان ، يرفع وجهه الهاديء الذي لفحته الشمس بكبرياء . ولم يكن يميزه عن هؤلاء الضباط الفرنسيين ، الذين يعنون بالشؤون المحلية لأهل

البلاد ، والذين طالما اعجبت بهم جانين كل الاعجاب ، الا هذه العمامة التي وضعها على رأسه . كان يتقدم باضطراب منها ، ولكن نظرت كانت تمتد الى ما وراءها ، وقال مارسيل : « حسناً » ، انه يعتقد نفسه « جنرالاً » . ومن الحق ، ان جميع من رأتهم جانين في هذه البلدة ، يبدو عليهم الكبرياء ، لكن هذا الشخص بالذات ، غالى في كبريائه وتعاليه . وعلى الرغم ، من ان الباحة كانت خالية ، وليس حولها أي انسان ، الا انه بدا متجهاً تماماً نحو الحقيبة دون ان يراها ، او يراها . وتقلصت المسافة التي تفصلها عنه ، ووصل العربي اليها ، وفجأة امسك مارسيل بالحقيبة ، وابعدها عن طريقه ، فر العربي ، وكأنه لم يلاحظ شيئاً ، متجهاً الى الاسوار . وتطلعت جانين الى زوجها ، فرأت في عينيه تلك النظرة اليائسة وقال : « انهم يعتقدون الآن ، ان بوسعهم ان يعملوا ما يحلو لهم . » . ولم ترد جانين . فقد امتعضت من تلك الحماقة البليدة التي ابداهها العربي ، وأحست فجأة بشعور من التعاسة . وودت لو تعود الى شقتها الصغيرة . ولم تطرب ، لفكرة العودة الى الفندق ، والى تلك الغرفة المتجمدة . وتذكرت فجأة ان مدير الفندق نصحها بالصعود الى الشرفة المحيطة بالقلعة ، لترى الصحراء منها . واقترحت الفكرة على مارسيل ، ذاكرة ان بوسعه ترك الحقيبة في الفندق ، ولكنه كان تعباً ، وقد اراد ان ينام قليلاً قبل العشاء . وقالت جانين : « ارجوك » . فتطلع اليها ، وكله اهتمام وقال « طبعاً ، يا عزيزتي » .

ووقفت في الشارع أمام الفندق ، تنتظر عودته ، فرأت الجمهور من ذوي الملابس البيضاء . يزداد عدده شيئاً فشيئاً ، ولم تظهر امامها امرأة واحدة ، وخيل لجانين ، انها لم ترمثل هذا العدد الكبير من الرجال من قبل . لكنهم جميعاً لا ينظرون اليها ، ورأت بعضهم ، دون ان يبدو

عليهم ، شعور بوجودها ، يلتفتون نحوها ببطء ، وابصرت فيهم جيئةً نفس ذلك الوجه النحيل ، الذي لفحته الشمس والذي رأته في الجندي الفرنسي في السيارة ، أو في ذلك الرجل العربي الذي مر بها في الباحة . انه وجه واحد ، تبدو فيه الصلابة والكبرياء . وكانوا يتطلعون بهذا الوجه الى المرأة الغريبة ، ولا يبدو عليهم احساس بوجودها ، ثم يمرون بها هادئين صامتين . واستدت بها الرغبة العاصفة الى الخروج من هذا المكان ، فقد احست بالضيق ، وساءلت نفسها : « لماذا جئت » ؟ . ولكن ها هو مارسيل قد عاد .

وكانت الساعة الخامسة عندما ارتقيا السلم الى القلعة . وكانت الرياح قد توقفت تماماً ، وظهرت السماء صافية زرقاء ، وتحولت البرودة الى جفاف شديد ، الهب وجناتها . وعندما وصلا ، الى منتصف السلم ، انبرى لهما عربي عجوز ، كان يستند الى الجدار ، يعرض عليهما خدماته كدليل ، دون ان يلح ، وكأنه كان واثقاً من رفضها لهذه الخدمات مقدماً . وكان الدرج طويلاً وعمودياً ، على الرغم من بعض الفسحات ، من الارض الترابية ، ومضيا في صعودهما ، وأخذ مدى النظر يتسع امامها الى ان وجدا نفسيهما يغمرها فضاء شامل ، فيه برودة ، وفيه جفاف ، وعبر هذا الفضاء ، تصل الى مسامعها كل نأمة تصدر عن الواحة ، واضحة ، صافية . وبدأ الهواء الذي يلقيها ، يهتز ، وقد طالت الاهتزازات ، مع صعودهما وكان سيرهما ، يحدث في الضوء البلوري ، موجات صوتية ، آخذة في الانتشار . وعندما وصلا الى الشرفة ، وضاعت نظراتهما ، عبر الافق الواسع الممتد وراء غابة النخيل ، خيل لجائتين ، ان السماء كلها ، تردد نغمة قصيرة حادة ، يلا رجعها للفراغ الذي يملوها ، ثم سرعان ما يختفي ، ويضيع ، تاركاً ايها ، تواجه بصمت الفراغ الذي لا حدود له .

وسرحت نظرتها من الشرق الى الغرب ببطء ، دون ان تلقى ، ما يعترضها ، في انحناءة كاملة . ورأت تحتها الشرفات البيضاء والزرقاء في البلدة العربية ، تحتضن بعضها بعضاً ، وقد رصعتها بقع حمراء داكنة من الفلفل الذي يحففه اهل البلدة في الشمس . ولم يكن في وسعها ان ترى احداً ، ولكن من الباحات الداخلية ، انبعثت مع اريج البن الذي « يحمصونه » ، اصوات ضاحكة ، او وقع اقدام خافتة . وهناك ، في غابة النخل البعيدة ، رأت الواحة مجزأة الى مربعات غير متساوية ، تفصلها اسوار من الطين ، تعلوها ، اوراق خضراء ، تتلاعب بها الرياح التي لم تحس بها ، وهي في مكانها . ووراء تلك الغابة ، والى الافق البعيد ، تمتد سلاسل رمادية وسوداء من الصخور ، لا اثر للحياة فيها . ومع ذلك ، فقد ابصرت عن كثب من الواحة ، وعلى مقربة من ذلك الوادي الذي يحد غابة النخيل من ناحية الغرب ، خياماً سوداء واسعة ، تحيط بها جماعات من الابل ، لا حراك بها ، تبدو صغيرة لبعدها الشاسع ، وكأنها تخط على الارض الرمادية ، احرفاً سوداء ، من لغة غريبة يحتاج تفسيرها الى حل وشرح . وانتشر السكون فوق الغابة واسعاً ، شاملاً ، كاتساع الفراغ وشموله .

واتكأت جانين بجميع جسمها على جدار الشرفة ، صامتة ، لا تستطيع ان تفصل نفسها عن هذا الفراغ البعيد الممتد امامها . ووقف الى جانبها مارسيل ، وقد بدأ يشعر ، بفروغ الصبر ، ويحس بالبرد ، توافقاً الى الهبوط والعودة ، ولم يدر ما الذي يستهويها في هذا المكان . ولكنها لا تستطيع ، ان تعود ببصرها عن الافق البعيد ، وبدا لها ، ان هناك ، في الافق ، ناحية الجنوب ، حيث تلتقي السماء بالارض في خط واضح ، شيئاً ينتظرها ، كانت تفتقده دائماً ، ولم تحس به الا في هذه اللحظة . ومع مضي النهار بدأ

الضوء يسترخي ، ويتحول من صورة الاشعاع الى حالة السيولة . وفي الوقت نفسه ، أخذت تلك العقدة ، التي القى بها الحظ في فؤادها ، والتي تشابكت بفعل السنين ، والعادة والضجر ، تنحل شيئاً فشيئاً . انها تتطلع الى نخم البدو . وهي لم تر رجاله من قبل ، كما لم تر الآن ، اية حركة داخل الخيام السوداء ، ولكن فكرها لا ينصرف عن وجود هؤلاء الذين يقيمون فيه والذين تجهل عنهم كل شيء ، الا انهم حفنة من الناس لا وطن لهم ، انقطعوا عن العالم ، واخذوا يتجولون ، في تلك الارض الفسيحة التي تراها ، والتي ليست في الحقيقة الا جزءاً صغيراً ، من فراغ شامل لا ينتهي الا بعد ألوف الاميال في الجنوب ، حيث يروي ، أول نهر من الانهار ، الغابات المحيطة به ، ومنذ بداية الازل ، ظلت هذه الحفنة من الرجال ، تتجول في هذه الارض الجافة التي لا حدود لها ، لا تملك شيئاً ، ولكنها لا تخضع لانسان ، وتعيش في ضنك وفاقه ، ولكن مسيطرة على ملكوت غريب . ولم تدر جانين لماذا بعثت فيها هذه الفكرة احساساً من الحزن العميق العذب ، حتى انها اغلقت عينيها ، وعرفت انها منذ الازل قد وعدت بهذا الملكوت الغريب ، الذي لن يكون لها فيما بعد ، الا في هذه اللحظة العابرة الطائفة ، عندما تفتح عينيها ، ثانية لترى السماء الساكنة ، وترى امواج ضوئها الهادئة ، بينما تخفت الاصوات المنبعثة من البلدة العربية بصورة مباغتة . وبدا لها ، ان سير الزمن قد توقف ، وانه منذ هذه اللحظة لن تدب الشيخوخة الى انسان ، او يلحق الموت ببشر . فقد تجمّدت الحياة منذ الآن في كل مكان الا في فؤادها ، حيث تحس فيه بانسان يبكي بحرقة ودهشة .

لكن الضياء بدأ بالحركة . وأخذت الشمس وقد خلت من دفنها تهبط باتجاه الغرب ، الذي غدا الى حد ما قرمزي اللون ، بينما تشكلت في الافق

الشرقي موجة رمادية ، تتأهب للزحف على المدى الفسيح . وعوى أول كلب ، وارتفع نباحه ، البعيد في الهواء البارد ، ولاحظت جانين ان اسنانها اخذت تصطك ، وقال مارسيل « لا ريب في اننا سنموت من شدة البرد ، لا تكوني حقا ، دعينا نعود » . وأمسك بيدها ، بصورة غريبة . وغدت الآن طيبة ، فأدارت وجهها عن الحاجز ، وتبعته . واخذ العربي العجوز الواقف على السلم ، يرقبها وهما نازلان ومتجهان الى المدينة دون ان يتحرك . ومشت وكأنها لا ترى أي انسان ، واخذت تجر جسمها الذي شعر باعياء شديد يحل به ، وأحست بأنه قد غدا اثقل مما تطيق . وتخلى عنها ذلك الاحساس بالمعظمة ليحل محله احساس آخر بأنها أكثر طولاً وبدانة وبياضاً مما يتفق مع هذا العالم الذي دخلته . وخيل اليها ، ان الطفل ، والفتاة ، والرجل النحيل وابن آوى السارق المخادع ، هي المخلوقات الوحيدة التي يمكن لها ان تسير بهدوء فوق تلك الارض . وماذا بوسعها ان تعمل هنا . بعد الآن إلا ان تجر نفسها الى النوم ، والى الموت .

وجرت نفسها على الرغم منها الى المطعم ، مع زوجها الذي غدا فجأة ، صامتاً لا يفوه بشيء الا القول بأنه متعب للغاية ، بينما كانت هي تجاهد بضعف ضد برد أحست به ، مصحوباً بارتفاع في درجة حرارتها . وسحبت نفسها الى سريرها ، حيث جاء مارسيل لينضم اليها بعد قليل ، مطفئاً النور فوراً دون ان يطلب اليها شيئاً . وكانت الغرفة ، شديدة القر ، وأحست جانين بالبرد يزحف اليها ، بينما واصلت حرارتها في الارتفاع ، واخذت تتنفس بصعوبة ، واستمر الدم يسير في عروقها دون ان يمنحها الدفء ، ونما في قرارة نفسها خوف شديد ، واستدارت في السرير الحديدي « الذي أن تحت وطأة ثقلها . لا . انها لا تريد ان تمرض ، لقد نام زوجها ، وعليها أيضاً ان تنام بدورها ، فهذا أمر جوهري . واخذت أصوات المدينة المكبوتة ، تصل

اليها عبر الكوة القائمة في السقف ، ووصلت اليها أصوات الاسطوانات ، التي تعزف على أجهزة الحاكي القديمة في مقاهي الشارع ، منقولة في مجموعات بطيئة . لا . يجب أن قنام ، ولكنها وراء جفنيها المسدلين ، تعد الخيام السوداء ، وترى الجمال ، الساكنة ترعى كلاًها ، وتحس بفراغات هائلة تحوم في باطنها . نعم لماذا جاءت ؟ وهنا بعد ان وجهت لنفسها هذا السؤال ، أغفت ، وراحت في سبات عميق .

واستيقظت بعد وقت قصير ، ورأت السكون يخيم حولها تماماً . ولكن ها هي الكلاب التي 'بح' صوتها تنبح ، في أطراف البلدة ، قاطعة سكون هذا الليل الهادئ . وارتجفت جانين ، وأدارت جسمها ، وأحست بكتف زوجها الحشن يحتك بكتفها ، وفجأة ، التصقت به وهي نصف نائمة . لقد كانت تعوم على سطح بحر النوم ، دون ان تفوس فيه ، وأمسكت بذلك الكتف بلهفة لا واعية ، وكأنه ملجؤها الامين . ورأت نفسها تتحدث ، دون ان تنطق بكلمة واحدة ، انها تتحدث ، ولكنها لا تسمع ما تقوله . ان ما تحس به ليس الا الدفء من مارسيل . وها قد مضت عليها أكثر من عشرين عاماً ، وهي تحس بهذا الدفء منه كل ليلة ، وها وحيدان ، حتى ولو كانت مريضة ، أو على سفر ، كما هو شأنها هذه الليلة . ثم ماذا كان بوسمها ان تعمل وحيدة في البيت ، لو لم تأت معه ؟ لا طفل يؤنسها ؟ اليس هذا هو ما تفتقر اليه ؟ انها لا تدري . انها تتبع مارسيل مسرورة لمجرد انها تعرف بان ثمة شخصاً يحتاج اليها . هذه هي المسرة الوحيدة التي يمنحها اياها ، وهي ان يجعلها تشعر بضرورتها له . ومن المحتمل انه لم يحبها قط . فالحب ، حتى ولو كان ممتزجاً بالكراهية لا يحمل ذلك الوجه العابس . ولكن ما شكل وجهه ؟ انها يمارسان عملية الحب بالاحساس ، في الظلام ، دون ان يرى الواحد منها وجه الآخر . هل هناك نوع آخر من الحب ، غير

حب الظلام ، حب يصرخ عالياً في وضع النهار . انها لا تدري ، ولكنها تعرف ان مارسيل يحتاج الى تلك الحاجة ، وانها تعيش عليها ليلاً ونهارها ، ولا سيما في الليل ، بل كل ليلة ، عندما لا يود ان يكون وحيداً ، أو ان ينتقل الى مرحلة الشيخوخة ، او مرحلة الموت ، وهي تدرك هذا الاحساس من جانبه بما يترامى على وجهه من ملامح ، كثيراً ما رأتها في الماضي على وجوه الرجال الآخرين . وهي ملامح شائعة ، التعبير ، في وجوه المجانين الذين يحاولون اخفاء جنونهم تحت ستار من الحكمة ، الى ان يسيطر عليهم الجنون تماماً ، ويحملهم على القاء انفسهم في احضان امرأة ليدفنوا في جسدها ، دون اية رغبة او شهوة ، كل ما يخشونه من الوحدة والليل .

وتحرك مارسيل ، وكأنه يريد ان يبتعد عنها ، لا ، انه لا يحبها ، وهو يخاف من الذي لا تخاف منه ، وكان من واجبها ان يفترقا ، منذ امد بعيد ، وان يناما بعيدين عن بعضها حتى النهاية ، ولكن من يستطيع النوم دائماً وحيداً ؟ . ان بعض الرجال ينامون وحيدين ، اذا افترقوا عن نسائهم بسبب اعمالهم : او نتيجة مصيبة او كارثة ، فيذهبون كل مساء الى فراشهم وكأنهم ينامون مع الموت . ولن يستطيع مارسيل ان يفعل هذا ، فهو قبل كل شيء ، طفل ضعيف لا سلاح له ، يخاف دائماً من الألم . انه طفلها الذي يحتاج اليها دائماً ، وهو نفسه الذي صدرت عنه هذه اللحظة صحيحة متقطعة . واقتربت منه اكثر فاكثر ، ووضعت يدها على صدره . وناجته بذلك الاسم الذي اطلقته عليه ذات مرة رمزاً لمحبته لها وتدليلها اياه ، والذي ما زالت تستعمله بين آونة واخرى ، دون ان تفكر في ما يعنيه حقيقة .

ونادته يجمع قلبها ، فهي تحتاج اليه ، والى قوته ، والى بعض ما بيديه

من شذوذ ، وهي أيضاً تخشى الموت . وقالت لنفسها « لو تمكنت من التغلب على هذا الخوف لاصبحت سعيدة » . وخيم عليها على الفور ، شعور من الحزن ، لا اسم له . وابتعدت قليلا عن مارسيل . لا انها لا تتغلب على اي شيء ، انها ليست سعيدة ، وستموت دون ان تتحرر في الحقيقة . وأحست بالألم في فؤادها ، وانها تقع تحت عبء ثقيل اكتشفته الآن ، بعد ان ناءت بحمله عشرين عاماً . وما هي تجاهد والعبء يعلوها ، بكل ما لديها من قوة . انها تريد ان تتحرر ، حق ولو لم يتحرر مارسيل أو يتحرر الآخرون . ورأت نفسها في يقظة نائمة ، فجلست في سريرها ، واستمعت الى هاتف بدا قريباً منها . ولكنها لم تسمع في الحقيقة الا عواء كلاب الواحة وقد لحق بها الاعياء دون الملل ، تقطع سكون الليل وتقرع آذانها . وارتفعت ربح خفيفة ، وسمعت مياهها الناعمة ، تخر في غابة النخيل . انها تأتي من الجنوب حيث تختلط الآن الصحراء بالليل ، تحت سماء لا تتغير ، وحيث توقفت الحياة ، فلا شيخوخة ولا موت . وسمعت صوت مياه الرياح تحفّت لان المياه قد جفت ، ولم تكن واثقة من انها قد سمعت شيئاً الا هاتفاً صامتاً ، في وسعها ان تحرسه ، او تلاحظه . ولكنها لن تستطيع ان تفهم معناه ابداً إلا اذا استجابت له حالاً ، نعم حالاً ، فهذا هو الامر المؤكد على الاقل .

ونهضت يهدوء ، ووقفت دون حراك بجانب السرير ، تصغي الى صوت تنفس زوجها العميق . كان مارسيل نائماً . وأحست على التو ، ان دفء السرير قد فارقها وأمسك البرد بخناقها . فارقدت ملابسها ببطء ، اذ أخذت تبحث عنها ، مستعينة بالضوء الخافت المتسرب عبر الستائر من مصابيح الشارع . ووصلت باب الغرفة ، وحذاؤها في يديها . ووقفت برهة اطول في الظلام ، ثم فتحت الباب يهدوء ونعومة . وسمع له صرير ، فوقفت جامدة

في مكانها . وكان قلبها يخفق بشدة واصفت ، بكل حواسها ، وقد توترت اعصابها ، فلما اطمأنت الى الهدوء ، عادت فحركات اكرة الباب ثائية . وبدا لها ان دورة هذه الاكرة لا تنتهي . واخيراً اتمت فتحه ، وتسالت الى الخارج ، ثم اغلقته بنفس الخفة والهدوء . ووضعت خدها على خشب الباب وانتظرت لحظة اخرى ، وسمعت تنفس مارسيل العميق ، فادارت وجهها ، وأحست بصقيع هواء الليل ، يصفع خديها ، وركضت عبر الشرفة . ووجدت الباب الخارجي مغلقاً . وعندما كانت تحرك المزلاج ظهر الحارس الليلي ، في رأس السلم ، وقد سيطر عليه النوم ، فحدثها بالعربية ، ولكنها ردت عليه قائلة ، « سأعود » ثم خرجت الى الليل .

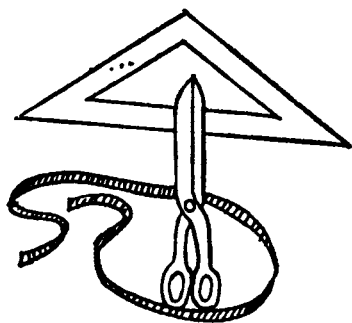
وتدلت اكاليل النجوم من السماء الممتعة ، فوق اشجار النخيل ، وبيوت البلدة . وركضت في الشارع الرئيسي القصير ، الخالي في هذه الساعة ، والممتد الى القلعة . ولم يكن البرد الآن في حاجة الى مكافحة الشمس ، أو مجاهدتها ، فقد ساد الليل ، وأحست بالهواء الثلجي ، يخترق رثتها . ولكنها ركضت ، وهي تكاد تكون مغمضة العينين في الظلام الدامس . وبست الأنوار في قمة الشارع ، ثم تهادت نحوها معوجة في سيرها ، وتوقفت جانين في مكانها ، وسمعت حفيف عجلات تدور ، ثم رأت وراء الاضواء ، التي أخذت تكبر شيئاً فشيئاً عباءات واسعة تمتطي ، دراجات هزيلة . ورفرفت العباءات بجانبها ، ثم قفزت ثلاثة اضواء حمراء ، من الظلام الذي يقوم خلفها ، ولكنها ما لبثت ان اختفت . وواصلت ركضها باتجاه القلعة . وعندما وصلت منتصف السلم ، كان الهواء يكاد يخرق رثتها ، حتى انها ارادت ان تتوقف . وواتتها دفقة اخيرة من الحيوية اوصلتها الى الشرفة ، فوقفت الى سورها ، وضغطت عليه بصدرها . كانت تلهث ، وشعرت بكل ما حولها يدور ، ولم يفدها ركضها في بعث الدفء في جسمها ، اذ ما زالت

ترتجف من البرد . لكنها اخذت تعب الهواء البارد ، فيسري في داخلها ، معطياً اياها ومضة من الحرارة التي بدأت تضيء في صدرها وأخيراً فتحت عينيها على المدى الفسيح في الليل .

ولم يعكر صفو الوحدة التي تلفها ، أو الهدوء الذي يحيط بها ، أي صوت ، او تنفس . الا ما يصدر هنا أو هناك احياناً من حركة خافتة سببها تهشم الصخر من جراء البرودة ، وتحوله الى رمال ، وخيل اليها بعد لحظة ، ان السماء فوقها تتحرك في نوع من الدوران . وكانت الوف الكواكب ، تبدو ، في جنبات ذلك الليل البهيم البارد الجاف ، وأخذت مذنبتها البراقة ، عند انفلاتها ، تنزلق تدريجياً نحو الافق . ولم تستطع جانين ان تبعد نفسها عن تصور هذه الأشعة المتأيلة . فقد احست انها تتأيل معها ، وتراءى لها ، انها قد ادركت مع تقدمها التدريجي ، اساس وجودها ، حيث يلتقي البرد والشهوة ، فيتباريان في التأثير عليها . وخيل اليها انها ترى النجوم تتساقط واحداً اثر اخر لتضيع بين صخور الصحراء ، وفي كل مرة ، كانت جانين تفتح نفسها لليل . وبدأت تنفس تنفساً عميقاً وقد نسيت البرد ، وهموم الآخرين ، وجنون الحياة وبلادتها ، والآلم الطويل للحياة والموت . فبعد هذه السنوات الطويلة من الفرار الجنوني الذي لا هدف له من الخوف ، توقفت أخيراً . وبدا لها في الوقت نفسه انها قد استعادت جذورها ، وسرت العصاراة ثانية في جسدها الذي توقف عن الارتجاف . وضغطت ببطنها على حاجز الشرفة ، بينما كانت تجهد اعصابها متطلعة الى السماء المتحركة ، وكانت تنتظر من قلبها الخافق ان يهدأ ، وان يعيد السكون الى نفسها . والقت المجموعات الاخيرة من النجوم باضوائها على مكان اشد انخفاضاً في افق الصحراء ثم هدأت . وآنداك ، بنعومة لا يمكن احتمالها ، بدأ ماء الليل ، يملأ جانين ، فيغرق بردها ، وانبعثت من احاسيسها الخفية ، في مركز

وجودها ، انطلاقات متموجة من اللذة ، موجة تتبع أخرى ، متصاعدة الى
فمها الذي امتلأ بالتأوهات . وامتدت السماء في اللحظة التالية فوقها ، اذ
سقطت على ظهرها ، فوق اديم الارض الباردة .

وعندما عادت جانين الى الغرفة ، متخذة نفس الاحتياطات التي اتبعتها
عند خروجها ، لم يكن مارسيل ، قد افاق من نومه . ولكنه احدث صوتاً ،
عالياً ، بعد لحظات من صعودها الى الفراش ، وبعد ثوان كان يجلس الى
جانبها . لقد حدثها ، ولكنها لم تفهم شيئاً مما قاله . فنهض واشعل الضوء ،
الذي بهر عينيها . وترنح متجهاً الى حوض الاغتسال ، حيث شرب جرعة
كبيرة من زجاجة المياه المعدنية . وكان على وشك ان ينزلق بجسمه بين
الاجطية . بعد ان وضع احدى ركبتيه على السرير ، عندما تطلع اليها ،
دون ان يفهم شيئاً . لقد رآها تبكي بحرقة ، وهي عاجزة عن كبت دموعها
وعواطفها . ثم سمعها تقول له : لا شيء ، يا عزيزي ، لا شيء .



المارق

يا له من ارتباك ! اجل يا له من ارتباك ! فعلي أن ارتب فكرتي وأن
انظمه . فمذ اللحظة التي قطعوا فيها لساني ، وأنا اشعر بلسان آخر ، يهتز
في مكان ما من رأسي ، وأحس بشيء أو بشخص يتكلم ، ثم يصمت فجأة ،
ليعود بعد قليل فيستأنف الكلام . آه ، اني اسمع اشياء كثيرة ، لا ينطق
بها لساني ابداً ، انها لحيرة كبيرة . وعندما افتح فمي ، اجد الحصى وكأنها
تصطدم ببعضها في داخله . واسمع لساني يقول : النظام والاسلوب ، ثم
ينتقل الى الحديث عن مسائل اخرى في وقت واحد . أجل لقد كنت دائماً
توافقاً الى النظام . على الأقل ، أنا واثق من شيء واحد وهو انني انتظر
بفارغ الصبر ، وصول « المبشر » الذي سيأتي ليحل محلي . وها أنا اقف على
الطريق ، على بعد ساعة من تاغاسا ، مخفياً وراء كومة من الصخر ، والى
جانبي بندقية قديمة . وها هو الفجر يبرز على الصحراء ، وما زال الطقس
بارداً للغاية ، ولكنه لا يلبث ان ينقلب الى قيظ شديد الوهج . ان هذه
البلاد ، تحمل الناس على الجنون ، وقد قضيت فيها حق الآن سنوات كثيرة
نسيت عددها ... لم يبق امامي الا وقت قصير . فالمبشر سيصل هذا

الصباح ، أو في المساء . وقد سمعت بأنه سيأتي مصطحباً احد الأدلاء ،
وليس معها الا بغير واحد . سأنتظر ، وها أنا أنتظر ، ولا ريب في ان
البرد ، هو الذي يحملني على الارتجاف . تجمل بالصبر قليلا ، أها
العبد القدر !

ولكنني صبرت طويلا . فعند ما كنت في البيت ، فوق تلك الهضبة العالية
في المنطقة الوسطى ، الى جانب والدي الحشن الطباع ، ووالدي الشرسة ، وكنت
اتناول حساء الخنزير في كل يوم ، والنبيد الحاذق الطعم الشديد البرودة ،
واقضي الشتاء الطويل مصاحباً رياحه القاسية ، وتياراته الثلجية ، ونباتاته
الثائرة ، كنت اتوق ، الى الخلاص من هذا الجو ، والابتعاد عنه ، لأعيش
في مكان اغبّ فيه من ضوء الشمس : وأعب من الماء العذب ، وكنت اتق
بذلك القس ، الذي كان يحدثني كل يوم عن معهد اللاهوت ، وبثقتني في
شؤون الدين ، فقد كان لديه ، وقت فراغ طويل ، في تلك المنطقة البروتستانتية ،
حيث تعود على الالتصاق بالجدران والامساك بها ، وهو في طريقه ، يذرع
القرية طولاً وعرضاً . وقد حدثني عن المستقبل ، وعن الشمس ، وكثيراً
ما صور لي المذهب الكاثوليكي بأنه الشمس ، وقال انه سيعطيني اللاتينية ،
ويدخلها في هذا الرأس القاسي ، الذي رغم ما اصابه من كدمات من جراء
سقطات ، لم تنزف منه نقطة واحدة من الدماء ، وكان والدي الخنزير كثيراً
ما يلقبني بصاحب « رأس الثور » . ورأيتهم في المعهد ، جد فخورين
بجيئي ، اذ ان اقناع طالب بروتستنتي ، بدراسة الكثلركة ، نصر كبير ،
وقد استقبلوني كما تستقبل الشمس في دوسترليتزر . وكانت الشمس ، شاحبة ،
ضعيفة ، بسبب الكحول ، فقد شربوا النبيد الحاذق الطعم ، ورأيت
اسنان الاطفال ، وقد اصطكت على بعضها ، وكأن الواحد منهم يريد قتل
ابيه ، ولكن ليس هناك من خطر على اية حال ، من اندفاعه في اعمال

التبشير ، اذ انه قد مات منذ عهد بعيد ، وقد نفذت الحجر اللاذعة الى معدته ، ولم يبق امامه الا ان يقتل المبشر ذاته .

وثمة امور يجب ان اسويها معه ومع اساتذته ، اجل مع اساتذتي الذين خدعوني . بل مع اوروبا القذرة جميعها ، فقد خدعني الكل . انت كل ما استطاعوا قوله لي ، ان علي ان امضي في اعمال التبشير ، وان امضي الى المتوحشين قائلاً لهم « ها هو الرب . انظروا اليه ، انه لا يضرب ولا يقتل ، بل يصدر اوامره في صوت خفيض ، ويدبر خده الآخر ، انه اعظم المعلمين فاختراره . انظروا ، كيف اصالح من امري ، وجربوا ان تسيثوا الي ، وسترون . نعم ، لقد صدقت ، وبدأت اشعر بانني أحسن حالاً ، واخذ وزني يزداد ، فقد كنت رقيقاً دائماً ، وارتدت ان يسيثوا الي . وعندما كنا نخرج من المعهد ، في صفوف سوداء متراصة ، في الصيف ، تحت شمس غرينوبل اللاهبة ، وكنا نقابل فتيات في ملابسهن القطنية ، فلا اتطلع اليهن ، لأنني احتقرهن ، وكنت انتظر منهن ان يسثن الي ، وكثيراً ما رأيتن يضحكن . وكنت في مثل هذه الاحوال ، افكر واحداث نفسي قائلاً : « ليتن يضرينني ، ويبصقن في وجهي » . لكن ضحكاتهن ، اذا ارادت قول الحقيقة ، كانت تؤدي الى نفس النتيجة ، فقد كانت ملأى بصريف الاسنان ، وبالسخرية ، التي تمزقني ارباً وكنت اشعر بالسعادة من الاساءة ومن احتمال الالم . ولم يكن الراهب الذي اعترف له ، قادراً على فهمي ، عندما كنت اكيل امامه الاتهامات على نفسي ويقول : « لا . لا ، ان فيك خيراً » . خير ! لم يكن في الا نبذ لاذع الطعم ، وهذا كل ما يحملني على الاتجاه نحو الافضل . فكيف بوسع الانسان ، ان يصبح افضل اذا لم يكن في البداية سيئاً . ولا شك انني التقطت هذا في كل ما علموني اياه . بل هذا كل ما التقطه ، فكرة واحدة ، حملها ذلك الطفل الذكي

ذو الرأس الذي يشبه رأس الخنزير ، واستخلص منها النتائج المنطقة .
وكنت كثيراً ما اخرج عن السبيل السوي ، لأنال العقوبة ، مستخفاً بكل
ما هو عادي طبيعي ، فقد كنت بالاختصار اريد ان اكون مثلاً يحتذى ،
بحيث يراني الناس ، وبعد رؤيتهم لي ، يعترفون بفضل ما اصلح من امري ،
فيحمدون الرب عن طريقي .

آه ، ها هي الشمس الفظيعة ! انها تشرق ، وبدأت الصحراء تتغير ، فقد
اضاعت اللون الزاهي ، الذي كان يظهرها ، في لون الجبال . آه ايها الجبل
الحبيب ، والثلج فوقك ، يلفك من كل ناحية ، لا ان اللون اصبح يميل الى
الصفرة الرمادية ، انها اللحظة البشعة التي تسبق التألق . ومع ذلك ،
فليس هناك من شيء ، يقف حاجباً . بيني وبين الافق البعيد هناك ، حيث
تختفي الهضبة في دائرة من الالوان الناعمة الهادئة . وتصعد الطريق
ورائي الى الكثيب الذي يخفي تاغاسا ، التي ظل اسمها الحديدي يقرع
رأسي عدة سنوات . كان اول من ذكرها لي ذلك القس ، النصف اعمى ،
الذي جاء متقاعداً الى ديرنا . ولكن لماذا اقول انه اول من ذكرها ، انه
الوحيد الذي ذكرها ، ولم يكن ما اثارني في وصفه لها ، قوله بأنها مدينة
الملح ، وان اسوارها البيضاء تمتد تحت السماء ، التي تغشى الابصار ، بل
حديثه عن قسوة اهله المتوحشين ، وعن انها مدينة محرمة على جميع الغرباء
وان واحداً فقط من الذين حاولوا الدخول اليها ، قد عاش ، حسب معرفته ،
ليتحدث عما رآه . لقد ضربوه بالسياط ، وأخرجوه الى الصحراء ، بعد ان
ملأوا الجراح التي ائخن بها ، بالملح ، كما ملأوا فمه بالملح ايضاً ، وقد رآه بعض
البدو ، فشعروا للمرة الوحيدة بالرافقة عليه ، كفلته من فلتات الحظ ، وبدأت
منذ تلك اللحظة ، احلم بهذه القصة ، وبالنار الملتهبة من الملح والسماء ،
وببيت الاصنام ، وما فيه من عبيد ، فهل هناك ، ما هو اكثر وحشية

واثارة للخيال ، من هذه القصة . اجل ، هذه هي رسالتي ، وعلي ان اذهب ، لاكشف لهم عن ربي .

وقد اسهبوا جميعاً في الحديث عن الموضوع في المعهد ، محاولين تثبيط عزيمتي ، مشيرين الي بضرورة الانتظار ، اذ ان البلاد ليست من الصالحة لاعمال التبشير ، واني لم استعد بعد لهذه المهمة ، فعلي ان اعد نفسي اولاً بصورة خاصة ، وان اعرف حقيقتي ، ثم أجتاز عدداً من الاختبارات والامتحانات ، وآنداك سيقررون. ولكن هل انتظر ، واستمر في الانتظار؟ لا ! بالطبع سأقبل ، اذا اصرروا ، على الاستعداد الخاص والاختبار ، لان هذه الامور تتم في الجزائر ، وتجعلني قريباً من المدينة التي احلم بها ، أما بصدد الاشياء الاخرى ، فقد هزرت رأس الخنزير الذي احمله ، رافضاً ، وكررت نفس الشيء ، وهو الرغبة في العيش بين اشد الناس وحشية ، وان افعل ما يفعلون ، لاكتسب ودهم ، ثم اظهر لاهل « بيت الاصنام » عن طريق الامثلة ان حقيقة ربي هي التي ستتغلب . وسوف يسيئون لي بالطبع ، ولكنني لم اكن خائفاً من الاساءة ، فهي ضرورية لتمثيلي ، وسأظهر باحتيالي لها ، أن يدي هي العليا ، على هؤلاء المتوحشين ، مثلها مثل الشمس القوية . وكلمة « القوة » هي القوة التي كنت اجدها دائماً ، واقفة على لساني ، فقد كنت اتعشق القوة المطلقة ، التي تجعل الناس يركعون ، وترغم الاعداء على التسليم ، وتهديهم الى الحق بالاختصار ، وكلما كانوا اكثر قسوة ، واشد عى ، واقوى ثقة بانفسهم ، وایماناً بمعتقداتهم ، كلما ، اقام اذعانهم الدليل على جلال من تمكن من اخضاعهم . ولقد كانت هداية الناس الطيبين الذين ضلوا بعض الضلال ، المثل الهزيل ، لكهننتنا الذين كنت احتقرهم ، لانعدام الجرأة عندهم ، بينما في وسعهم ان يعملوا الكثير ، ولكنهم يفتقرون الى الايمان ، بينما انا غني به ، و اردت ان يعترف بي معذبي ، وان ارغمهم على الركوع ،

واجبرهم على القول : « يارب ، هذا هو انتصارك » . أردت ان احكم ، بقوة الكلام الضعيفة جيشاً من غلاظ القلوب . وكنت واثقاً من قدرتي على الجدل المنطقي ، حول هذا الموضوع ، واثقاً من نفسي كل الثقة ، فقد تعودت عند تبني اية فكرة ، ان لا اتحلى عنها ، ولعل هذا هو مصدر قوتي ، أجل مصدر قوة ذلك الشخص الذي يشفقون عليه .

لقد ارتفعت الشمس في كبد السماء ، وبدأت جبهتي تحترق . وأخذت الصخور حولي تتشقق ، باعثة صوتاً خافتاً . وكانت « ماسورة » البندقية هي الشيء البارد الوحيد ، برود الحقول ، عندما يتساقط عليها مطر السماء . وهم ينتظرونني . وقد بدأ الحساء يبرد ، والذي والذي ، فيبتسمان لي عند عودتي . آه . ربما كنت احبها . ولكن هذه أمور من الماضي البعيد . وقد بدأ شريط من الحرارة يرتفع من الطريق . آه . تعال ايها المبشر . فانا بانتظارك . وفي وسمي الآن أن ارد على الرسالة . فقد علمنيها سادتي الجدد . وانا واثق من انهم على حق . فعليك ان تصفي حساباتك مع ذلك الموضوع المتعلق بالحب . وعندما فررت من الاكاديمية في الجزائر ، كانت لدي فكرة مختلفة تمام الاختلاف عن المتوحشين . ولم يكن من مجموعة الخيالات التي كنت احملها عنهم ، ما يمت الى الحقيقة بصلة الا انهم في منتهى القسوة . وقد سرقت مكتب امين الخزانة . والقيت بملابسي الدينية جانبا . وعبرت جبال الاطلس . ثم الهضاب العليا والصحراء . وهزأ بي سائق سيارة الباص التي تقطع الصحراء وقال : « لا تذهب الى هناك » . آه . هو ايضا . فماذا دهاهم جميعاً . وقطعنا مئات الكيلومترات . نواجه دفقات من العواصف الرملية ، التي ترحف وتتقهقر مع اتجاه الرياح . الى ان وصلنا ثانية الى الجبال ذات القمم السوداء والحوافي الحادة كالفلواز . وبعد هذه الجبال ، احتجت الى دليل يرشدني عبر ذلك الخضم الذي لا ينتهي من الرمال البنية .

التي ترزق من الحرارة . وتحترق بنيران الوف المرايا من الصفائح الرملية . الى النقطة التي تعتبر حدوداً بين البلاد البيضاء والبلاد التي يقطنها السود . حيث تقوم مدينة الملح . وسرق مني الدليل النقود التي اظهرتها له عن سذاجة وبساطة قلب . ثم ضربني وتركني على الطريق . في هذه النقطة التي أقف فيها الآن قائلاً : « أيها الكلب . ها هي الطريق . لقد كان الشرف لي في اني دلتك عليها . فامض فيها . وسترى ما يفعلونه بك » وبالطبع فقد رأيت منهم العجب العجيب . فهم كالشمس التي لا تقف ابداً الا في الليل . يضربون بحدة وكبرياء . وقد ضربوني في هذه اللحظة ايضاً ضرباً عنيفاً بمجموعة من الرماح التي انبعثت من الارض . آه . اين الملاذ واين الملجأ تحت هذه الصخرة الكبيرة قبل ان يرتبك علي كل شيء ؟

ان الظل ظليل هنا ، وكيف يستطيع المرء ان يعيش في مدينة الملح ، في ذلك الثقب من الحوض المليء بالحرارة التي تذهب بالعقول ؟ . وعلى كل جانب من تلك الاسوار المتقاطعة عمودياً ، والمقطوعة بالفؤوس ، لتمهد تمهيداً ، بدائياً ، لافن فيه ، اخايد تركتها تلك الفؤوس ؛ وقد اخشوشنت بمحراشف حاجزة ، شحب لونها بالرمال الصفراء ، التي تحملها الرياح عندما تهب على اعالي الاسوار والشرفات . وآنداك يتلأل كل شيء ببياض متموج تحت قبة السماء . التي غطى البياض ستارها الزرقاء . وكنت على وشك العمى في تلك الايام . عندما كانت النيران الثابتة « قطرطق » ساعات وساعات على سطح تلك الشرفات البيضاء . التي تبدو وكأنها تحتضن بعضها . أو كأنها في ذلك الماضي السحيق قد التقت يجبل من الملح فسحقت ارتفاعه وجعلت منه ارضاً مستوية شقت فيها الشوارع ونبتت في داخلها ، البيوت والنوافذ . أو كأنها اقتطعت منه جحيمها الساعر الابيض بانصباب قوي من الماء الغالي . لتنبت ان في

وسمها ان تعيش حيث لا تمكن الحياة . بعيدة ثلاثين يوماً عن اقرب مكان يعيش فيه شيء حي . من هذا الحجر في وسط الصحراء ، حيث تحول حرارة النهار بين كل اتصال بين المخلوقات ، فتفصل بينهم بواسطة متراس من اللهب غير المنظور ، او البلور الذي يتطاير منه الشرر كالزناد . ثم يحين الليل بقرّه ، فيجمّدها ، دون أي انتقال داخل اصداقها من الصخور الملحية كالمخلوقات الظلامية ، تقطن في اطواف جليدية جافة . انهم كأهل الاسكيمو . ولكنهم من السود . يرتجفون برداً في اكواخهم الجليدية المكعبة . أجل انهم من السود لانهم يرتدون البسة سوداء طويلة . وكثيراً ما ينتشر الملح الذي يتجمع تحت اظافرهم ، فيتذوقون المرارة في اصابهم دائماً ، ويبتلعونه اثناء نومهم في تلك الليالي القطبية . كما يشربونه في مائهم ، الذي يجمعونه من نبع وحيد ، يقع في اخدود متألق . أجل ينتشر هذا الملح كالبقع على ملابسهم السوداء وكأنه بقايا الحلزونات بعد المطر .

المطر . يا رباه ! مطرة واحدة حقيقية . طويلة وشديدة ! مطرة من عليائك ! تذيب هذه المدينة الخيفة بصورة بطيئة وتدرجحية . وتحمل اهلهما الوحوش الى الرمال . مطرة واحدة يا إلهي ! ولكن ماذا أعني . وأي رب ! انهم هم الارباب والسادة ! انهم يتحكمون في بيوتهم المجدبة . وفي عبيدهم السود الذين يجبرونهم على العمل في المناجم حتى الموت . وكل لوحة تقطع من الملح تساوي رجلاً في المنطقة الواقعة الى الجنوب . وهم يرون هادئين يرتدون اقنعتهم الصباحية في بياض الشوارع المعدني . وفي الليل ، عندما تغدو المدينة بكاملها شبحاً ، في لون الحليب ، ينزلون . ويدخلون الى ظل بيوتهم ، حيث تلمع جدران الملح لمعاناً خافتاً . وينامون نوماً هادئاً خفيفاً وعندما يستيقظون يصدرون الاوامر . ويضربون ، ويعلمون انهم شعب متحد وان إلههم هو الإله الصادق ، وان على كل انسان أن يطيع .

انهم سادتي . وهم يحلون معنى الشفقة . وهم كفيرهم من السادة . يريدون ان يكونوا لوحدهم . وان تزدهر امورهم لوحدهم وان يكونوا الحكم دون سواهم ، اذ انهم ، هم دون غيرهم ، قد وجدت لديهم الجرأة لبنوا في الملح والرمال تلك المدينة التي تجمع بين الضدين . البرودة والحرارة المحرقة .
أما انا ...

يا له من ارتباك عندما ترتفع الحرارة . ان العرق يتصبب مني . أما هم فلا يعرفون . وقد بدأ الظل نفسه يتلظى . أحس بوهج الشمس على الحجر فوق رأسي . انها تقرر وتقرر . وكأنها مطرقة تقرر جميع الاحجار محدثة صوتاً موسيقياً . انها موسيقى الظهيرة . والهواء والصخور تتذبذب على مدى مئات الكيلومترات . اني اسمع الهدوء كما لم اسمعه من قبل . انه نفس الهدوء الذي سمعته قبل سنوات والذي تلقاني بالتحية عندما اقتادني الحرس اليهم . في ضوء الشمس . في وسط الساحة الرئيسية . التي ترتفع منها . الشرفات المتراكزة بصورة تدريجية نحو جفن السماء الزرقاء الجالسة على طرف الحوض . وهناك . ألقى بي على ركبتني . في تجويف ذلك الدرع الأبيض . واهترأت عينايا من تلك السيوف من الملح والنيران المنبثقة من الجدران . واضحيت شاحباً من التعب ، والدم ينزف من اذني من الضربة التي وجهها الي دليلي . وهم يقفون باجسامهم الفارعة السوداء . يتطلعون الي صامتين . وكان النهار قد انتصف . ورجعت السماء تحت ضربات الشمس الحديدية اخيراً اصداء تشبه ما يخرج عن الصفيح الذي اصبح ابيض من شدة الحرارة . وخيم ففس الصمت . وظلوا يتفرسون في . والوقت يمضي . وهم يتفرسون في . وانا عاجز عن مواجهة نظراتهم ، وأخذت ألهث ، ويرتفع لهائي شيئاً فشيئاً ، ثم شرعت أبكي ، وفجأة اداروا لي ظهورهم يهدوء ، ومضوا جميعاً في نفس الاتجاه . وكل ما استطعت رؤيته ، وأنا جاث على ركبتني احذيتهم الخفيفة ،

الحمراء والسوداء ، وأقدامهم تلمع بالملح ، عندما يرفعون اريدتهم السوداء الطويلة ، وقد ارتفعت مقدماتها قليلاً بينما كانت الكعاب تمس الارض برفق . وعندما خلت الساحة منهم جروني الى بيت الاصنام .

وقضيت بضعة ايام في ظلمة بيت الاصنام الحالكة ، جالساً القرفصاء كما أجلس اليوم في ظل هذه الصخرة ، والنار من فوق رأسي تخرق كثافة الصخر . وهو بيت يرتفع عن البيوت الاخرى ، وتحيط به جدران من الملح ، لا نوافذ فيها ، وتملؤه ظلمة الليل ، التي تقدح الشرر . وانقضت عدة ايام ، وقد وضعوا أمامي حوضاً من الماء الاجاج ، وبعض الجبوب ، كالتي يلقونها عادة أمام فراخ الدجاج لتطعم . فأخذت التقطها . وكان الباب يظل مغلقاً طيلة النهار ، ومع ذلك فقد فقدت الظلمة ما فيها من عنصر العنت والارهاق ، وكأن الشمس القادرة على كل شيء ، قد تمكنت من التسرب عبر تلك الكتل الضخمة من الملح . ولم يكن لدي مصباح ، ولكنني تمكنت بواسطة المس أن أرى طريقي على الجدران لامساً قطوفاً من النخيل اليابس تزينها . ووجدت في النهاية باباً صغيراً ، وقد اغلق بصورة بدائية ، وفي وسعي رفع مزلاجه برؤوس اصابعي . وانقضت ايام طويلة للغاية ، ولم يكن في وسعي عدها ، أو عد ساعاتها ، ولكنني عرفت انها كانت عديدة ، لان غذائي من الجبوب ، قد بقي لي عدة مرات ، وتمكنت من حفر نقرة في الارض ، اضع فيها برازي ، واحاول تغطيتها عبثاً ، فقد انبعثت في المكان رائحة كالتي يشمها الانسان في كهف الحيوان . اجل بعد هذه الايام الطويلة ، فتح الباب اخيراً على مصراعيه ، ودخلوا .

وتقدم أحدهم من المكان الذي كنت اقمي فيه في ركن منزو من الغرفة . وأحسست بالملح المحرق على خدي ، وشممت رائحة النخيل يعلوه القطار ، ورأيت يواصل التقدم مني . ثم توقف على بعد ياردة واحدة ، وتفرّس في

صامتاً ، ثم أشار الي ، فوقف ، وظل يحدق في بعينيه المعدنيتين ، اللتين
تضيئان دون ان يبدو على وجهه الاسمر ، الذي يشبه وجه الحصان أي تعبير .
واخيراً رفع يده . وظللت فاقداً لكل حيوية ، فأمسك بي من شفتي السفلى ،
ولواها بشدة وببطء ، حتى اجثت لحمي ، ودون ان يتخلى عنها ، ارغمني
على الدوران في الغرفة ، ثم ظل يحير بي من شفتي حتى ارغمني على الركوع على
ركبتي ، وقد صرعتي الألم . وانبتق الدم من فمي ، واخيراً عاد لينضم الى
رفاقه الواقفين الى جانب الجدار . وظلوا يراقبونني وانا ائن في هذه الحرارة
التي لاتطاق والمندفعة مع الضوء من الباب المفتوح على مصراعيه ، وفجأة
ظهر لي في ذلك الضوء ، الساحر بشعره المقتول من الياف نخيل الرافيه ، وقد
غطى صدره بدرع من اللآلي ، وبدت ساقاه عاريتين تحت ثوب من القش
ووضع على وجهه قناعاً من البوص والاسلاك ، فيه ثقبان تطل منها عيناه .
ووراء الساحر ، يسير عدد من الموسيقيين والنساء يرتدين ، جلابيب ثقيلة
متنافرة الألوان ، لا تتكشف شيئاً من اجسادهن . وأخذن يرقصن أمام الباب
في النهاية ، رقصاً بدائياً ، لا ايقاع فيه ، ولا يختلف عن مجرد الحركة المطلقة .
واخيراً فتح الساحر الباب الصغير خلفي ، ولم يتحرك السادة ، بل ظلوا
يراقبونني ، والتفت ، ورأيت الصنم ، برأسه ذي الفأس المزدوج ، وانفه
الحديدي الملتوي وكأنه ثعبان .

وحملوني الى مكان أمامه ، عند قاعدة المنصة ، حيث ارغموني على شرب
ماء شديد المראה ، وشعرت على التو ، برأسي يكاد يحترق ، وأخذت
اضحك ، فتلك هي الاساءة التي اساءوا بها الي . ونزعوا عني ملابسني ،
وحلقوا شعر رأسي وجسمي ، ثم غسلوني بالزيت ، وضربوا وجهي بحبال ،
غطسوها في الماء والملح ، وظللت اضحك ، وادير وجهي نائياً به ، فتتقدم
امراتان وتمسكان بأذني ، وتقدمان وجهي الى ضربات الساحر الذي لا أرى

منه الا عينيه ، وظللت اضحك ، والدماء تغرقني . وتوقفوا ، ولم يتكلم احد إلا انا ، فقد بدأ الاضطراب في رأسي ، ثم رفعوني وارغموني على النهوض بعيني لاتطلع بها الى الصنم . وكنت قد توقفت عن الضحك . وعرفت انهم قد كرسوني له ، لخدمه واعبده ، ولذا فقد توقفت عن الضحك وغمرني شعور من الخوف والألم . وهناك في ذلك البيت الابيض ، وبين تلك الجدران التي كانت الشمس تحرقها باستمرار من الخارج ، ظللت متورم الوجه ، منهوك الذاكرة ، احاول الصلاة لهذا الصنم ، الذي لا أرى غيره ، والذي على الرغم من بشاعة وجهه ، كان اقل بشاعة مما تبقى في العالم . وربطوا بعد ذلك قدمي بجبل ، بحيث يسمح لي بخطوة واحدة ، وأخذوا يرقصون امام الصنم ، بينما بدأ السادة يغادرون المكان واحداً اثر آخر .

ولما اغلقت الباب خلفهم ، عادت الموسيقى الى العزف واشعل الساحر ناراً من لحاء الاشجار أخذ يشب حولها ، بينما يتكسر ظله الطويل ، على زوايا الجدران البيضاء ، مرفرفاً على سطوحها المستوية ، فيملأ الغرفة بأشباح راقصة . ورسم مستطيلاً في زاوية جرتني النسوة اليه ، فاحسست بأيديهن الناعمة والعطشى ، ووضعن أمامي حوضاً من الماء ، وكومة صغيرة من القمح ، وأشارن الى الصنم ، ففهمت ، ان علي ، ان احتفظ بعيني مثبتتين عليه ، ثم استدعاهن الساحر ، واحدة اثر اخرى الى النار ، ففُضرب بعضهن ، وكنت اسمع انينهن ، واراهن يذهبن ، فيسجدن أمام إلهي الصنم ، بينما واصل الساحر رقصه ، وأمرهن جميعاً بالخروج ، باستثناء واحدة ، صغيرة جداً ، كانت تقمي بجانب الموسيقيين ولم يكن قد مد إليها يديه بعد . ثم أمسك بها من شعرها الكث ، الذي ظل يلغه حول ذراعه . بينما تنهار هي الى الورا ، وعيناها تكادان تقفزان من محجريها ، حتى

سقطت أخيراً على ظهرها ، فافلتها الساحر ، صارخاً ، واستدار الموسيقيون
بوجوههم الى الجدار ، بينما ارتفع الصراخ وراء ذلك القناع ، الى ان بلغ
حد الزعيق الذي لا يطاق ، وأخذت المرأة تتدحرج على الارض وكأنها في
نوبة عنيفة ، واخيراً ، اخذت هي بدورها تزعق ، وهي تحبو على أربعها ،
وقد أخفت رأسها في ذراعها المتشابكتين ، بصوت مختنق خواء ، فامتلكها
الساحر وهي في هذا الوضع دون ان يتوقف عن الصراخ او عن التطلع الى
الصنم ، بسرعة وخشونة ، بينما كانت المرأة تخفي رأسها تحت طيات رداءها
الثقيل . واحسست في وحندي ، بنوع من الحيوانية ، فصرخت ايضاً ،
متجهاً الى الصنم في عواء ينطوي على الخوف ، الى ان اصابتني ركلة ،
قذفت بي الى الجدار ، أعض ملحه ، كما اعض هذه الصخرة اليوم بفعي
الذي لا لسان فيه ، منتظراً قدوم الرجل الذي يجب ان أقتله .

وقد مضت الشمس ، الآن قليلاً الى ما وراء سمت السماء ، ومن ثقب
الصخور ، استطيع ان ارى تلك الثغرة التي فتحتها في معدن السماء الذي
اضحى ابيض من شدة الحرارة . وهذه الثغرة ، فمٌ ناغر مثل فمي ، يلفظ
دائماً ، انهاراً من اللهب ، يقذف بها على الصحراء التي لا لون لها . ولا أرى
امامي على الطريق ، أي شيء ، حتى ولا سحابة من النقع ، تخرج من الافق
البعيد ، أما ورائي ، فلا شك في انهم يبحثون عني الآن . كلا انهم لم يبدأوا
البحث بعد ، ففي الساعات المتأخرة من بعد الظهر ، يفتحون الباب قليلاً ،
لاخرج بعض الوقت ، بعد ان اكون قد قضيت سحابة يومي في تنظيف
بيت الصنم ، ورتبت القرايين الجديدة ، وفي المساء ، يبدأ الاحتفال من
جديد ، حيث اثال بعض الضرب احياناً ، وانجو منه أحياناً اخرى ،
ولكنني دائماً اقوم بخدمة الصنم ، ذلك المعبود ، الذي طبعت صورته
في ذاكرتي في الماضي ، واصبحت مطبوعة في آمالي الآن . ولم يقدر لإله من

قبل ان يسيطر علي او يستعبدني ، طيلة حياتي كما استعبدني هذا الصنم ،
فحياتي كلها ، في ايامها ولياليها مكرسة له ، وما اشعر به من الم ، او
فرح ، من صنعه وخلقه ، حتى الشهوة ، التي أحس بها ، من جراء ،
حضورى في كل يوم ، تلك العملية القذرة ، التي تتم جهاراً ، والتي اسمع
بوقائعها دون ان اراها ، اذ تحتم علي ان ادير وجهي الى الحائط ، اثناء
وقوعها ، والا اشبت ضرباً ، هي من فضله ايضاً . وكنت اقف وقد
اسندت وجهي الى الملح ، تزعجني تلك الاشباح البهيمية تتحرك على الجدار ،
واستمع الى الصرخة الكبرى ، فيجف حلقي ، وتتملكني شهوة حارقة
لا جنس فيها ، فتضغط مفاصلي ، وتشد على بطني ، وكأني اقترف الرذيلة .
وتتابعت الأيام ، واحداً اثر آخر ، وما كنت لاستطيع التمييز بينها ،
فكأنها ذابت في القيط الخفيف وفي انعكاساته الخادعة على جدران الملح ،
واضحى الزمن بالنسبة الي ، طيات غامضة من الامواج ، تنفجر فيها ، في
فترات منتظمة ، صرخات من الألم أو من شهوة الامتلاك ، فيمضي يوم
طويل ، لا عمر له ، يحكم فيه الصنم ، كما تحكم فيه هذه الشمس الفظيعة ، هذا
البيت من الصخور الذي أقيم فيه الآن ، وابكي ، كما ابكي الآن ، بكاء ينطق
بالتعاسة وبالشوق ، وبالأمل الشرير الذي يحرقني ، والذي يدفع بي الى
ارتكاب الخيانة . آه انني العق « ماسورة » بندقيتي ، وما فيها من روح ،
اذ ان البنادق وحدها هي التي تملك الروح . آه . اجل . ففي ذلك النهار
الذي قطعوا فيه لساني تعلمت ان اعبد روح الكراهية الخالدة .

يا له من ارتباك في دماغي ، ويا له من غضب ، يعب من الحرارة والنقمة ،
ويقف ذليلاً على فوهة بندقيتي . آه . من يلهث هنا ؟ لا يستطيع ان احتمل
هذه الحرارة التي لا نهاية لها ، ولا ذلك الانتظار الممل ، يجب ان اقتله . لانه
ليس بطائر ، ولا بعشب اوراقه حادة كالنصل ، او حجر أو شهوة قاحلة .

ولا هو صرخاتهم . او هذا اللسان ينطق في داخل فمي ، اذ منذ اخرسوني ،
قد غدوت صورة لذلك الألم الطويل ، مهجوراً ، ومحروماً حتى من ماء
الليل ، ذلك الليل الذي احلم به عندما يغلق علي الباب مع ذلك الاله ، في
كهفي المصنوع من الملح . وليس في استطاعة أي شيء ان ينقذني الا ذلك
الليل ، بنجومه الباردة ، وينابيعه المظلمة ، فيحملني اخيراً ، من الهة البشر
الشريرة . ولكن ما دمت حبيساً في ذلك الكهف ، فليس في استطاعتي ان
ارى ذلك حتى في الخيال والتصور . واذا تأخر هذا القادم مدة أطول ،
فسأرى ذلك الليل اخيراً يصعد من بطن الصحراء ، مكتسحاً السماء ،
وتنسكب منه خمرة ذهبية باردة ، تمتد من السمات المعتم ، استطيع ان اعب
منه بشراة ، فارطب هذا الثقب الاسود الجاف ، الذي لا تبث فيه الحياة ،
تلك العضلة الحية المرنة من اللحم التي هي اللسان ، فأنسى اخيراً ذلك اليوم
الذي انتزع فيه الجنون لساني من فمي .

يا للحرارة الفظيعة ما اشدها . يبدو لي ان الملح قد بدأ يذوب ، وان
الهواء ، اخذ يفري عيني ، عندما دخل الساحر ، حجري ، دون ان يضع
على وجهه قناعاً . ودلفت وراءه ، امرأة جديدة تبدو عارية الا من هذه
الهائل الممزقة الرمادية اللون ، وقد غطت وجهها ، بوشم يصور قناع الصنم
ويعبر عن غيبوبة الوثن البشعة . ولم يكن فيها شيء ينم عن الحياة ، الا
ذلك الجسد النحيل التافه ، الذي أخذ يرفرف عند قدمي الاله عندما فتح
الساحر باب المحراب وخرج دون ان يتطلع الي ، وارتفعت الحرارة ، ولم
اتحرك ، فقد ظل الصنم ينظر الي من جسمه الذي لا حراك فيه ، والذي تهتز
عضلاته بدعة ورفق ، ورأيت وجه المرأة الذي يشبه الوثن لم يتبدل ، عندما
تقدمت منها . واخذت تحديق في ، بعينيها اللتين كبرتاً ، واتسعتا ، ولمستها
بقدمي ، وبدأت الحرارة تزعق في جسدي ، واستلقت المرأة الوثن ، دون

أن تفوه ببنت شفة ، وهي تتفرس في بعينيهما المتسعيتين ، بصورة تدريجية على ظهرها ، ورفعت ساقها ببطء ، بينما فتحت فخذها . ولكن ، فجأة ، وعلى التو ، رأيت الساحر ، يتطلع الي ، وابصرت بهم جميعاً يدخلون ، فيقتطعونني عن المرأة ، ويأخذون في ضربني بضراوة وعنف ، على العضو « الحاطيء » من جسدي ، ولكن أية خطيئة ، انني اضحك ، بل أين هي ، واين هي الفضيلة ، وبدأوا يطرقون بي الجدار ، وامسكت يد فولاذية بفكي ، بينما فتحت يد أخرى فمي ، واستلّنت لساني ، حتى نزفت منه الدماء ، فصرخت ، ولا أدري هل كنت اصرخ من شهوتي الحيوانية ، واحسست بآلة قاطعة باردة ، تمر على لساني اخيراً . وعندما أفقت من غيبوبي وجدتي وحيداً مع الليل ، وقد التصقت بالجدار ، والدماء الجافة تقطيني ، وكأمة من العشب الجاف الغريب الرائحة تملأ فمي ، الذي توقف التزييف منه ، والذي أحسست بما فيه من فواح . وشعرت بالألم القاتل ، من غياب ذلك الشيء الحي الوحيد عن فمي . وارتدت ان انهض ، ولكني ما لبثت ان سقطت ، سعيداً ، الى حد اليأس ، بأن اموت اخيراً ، فالموت ، بارد ايضاً ، ولا يختفي وراء ظله أي اله .

ولكنني لم أمت ، وغمرني شعور جديد من الكراهية ، لم أكن احس به من قبل ، وفي نفس الوقت ، خطوط نحو باب المحراب ، وفتحته ، ثم اغلقته خلفي ، فقد كرهت قومي ، وكان الصنم هناك ، ومن اعماق ذلك الحجر الذي كنت فيه ، عملت اكثر من الصلاة للصنم ، فقد آمنت به ، وكفرت بكل ما كنت اؤمن به حتى تلك الساعة . وهتفت من صميم قلبي له ، فهو يمثل القوة والسلطان ، وفي الامكان تدميره ، ولكن ليس بالامكان تبديله أو تغييره . وكان يتطلع من فوق هامتي بعينيه الخاليتين الصدئتين . وكررت الهمتاف ، فهو السيد ، بل الرب الاوحد ، الذي لا ينازعه في صفة الحق

والبغضاء ، شيء آخر ، على كل ، ليس هناك من سادة طيبين . وللمرة الأولى ،
وكنتيجة للمساوىء ، رأيت جماع جسدي ، يصرخ بصوت واحد من الألم ،
فاستسلمت له ، وآمنت بأوامره الشريرة ، وعبدت فيه مبدأ الشر في العالم .
آه ، انني سجين في مملكته ، في المدينة الشاحبة ، المنحوتة من جبل الملح ،
المحرومة من ازاهير الصحراء التي لا تدوم ، والمصانة من ومضات الحظ أو
علامات الحب ، الذي تجبوه الطبيعة احياناً ، فتبعث بسحابة غير مرتقبة ،
او بدفقة عنيفة وقصيرة من زخات المطر ، المألوفة ، حتى للشمس والرمال ،
المدينة التي يسودها النظام والمبنية على شكل زوايا عمودية ، وغرف مربعة ،
ويسكنها رجال متزمتون . لقد أضحيت عن طيب خاطر ، مواطنها المعذب ،
المقعم قلبه بالكراهية ، بعد ان طلقت التاريخ الطويل الذي تعلمته . لقد
كنت مضللاً ، فحكم الحقد وحده ، يخلو من العيوب . اجل لقد ضللت في
الماضي ، فالحقيقة مربعة ، ثقيلة وكثيفة ، ولا تقبل الفروق والامتنياز ،
والخير ، حلم لا جدوى منه ، اذ انه نية دائمة التأجيل ، يتبعه الانسان
بمجهود مضنٍ ، فلا يصل الى حدوده ، لأن حكمه امر مستحيل . لكن
الشر وحده ، هو الذي يستطيع ان يصل حدوده وان يحكم حكماً فردياً
طاغياً ، وعلينا ان نخدمه لنقيم ملكوت الموتى ، وأنذاك سنرى ، ولكن
ماذا تعني كلمة « انذاك » ، فالشر هو القائم ، والى الجحيم باوروبا وبالعقل
والشرف والصليب . اجل ، علي ، ان اتحول الى ديانة اسيادي ، اجل ، فأنا
عبد بالتأكيد ، ولكن اذا اصبحت شريراً ، توقفت عن اكون عبداً ،
على الرغم من قدمي المصفدتين ، ولساني الاخرس . آه ، ان هذه الحرارة ،
تكاد تودي بي الى الجنون والصحراء تصرخ في كل مكان تحت هذا الضوء الذي
لا يحتمل ، وهو ، رب الرحمة ، الذي يثيرني بمجرد اسمه ، قد تخليت عنه ،
لأنني قد عرفته الآن . لقد كان يحلم ، واراد ان يكذب ، ولكن لسانه قد

قطع لئلا تستطيع اقواله خداع العالم ، واخترقت جسمه في كل مكان المسامير ،
انتي دقت حتى في رأسه ، رأسه المسكين ، الذي يشبه رأسي الآن . يا لهذا
التشويش في دماغي ، ويا لهذا الضعف الذي اشعر به ، ومع ذلك فانت
الارض لم ترتجف ، وانا واثق ، من ان الرجل الذي قتلوه لم يكن رجل حق
وفضيلة . انني لا اصدق ، فليس هناك رجال حق وفضيلة وانما سادة اشرار ،
يفرضون حكماً من الحقيقة التي لا ترحم . نعم ، فالصنم وحده هو الذي يملك
القوة والسلطان ، وهو اله هذا العالم الاوحد ، ووصيته هي الكراهية ، فهي
منبع كل حياة ، بل هي الماء البارد ، برودة النعناع ، الذي يبعث البرودة
في الفم ، والحرارة الحارقة في الاحشاء .

وقررت آنذاك ، ان اتبدل ، وادركوا هم تبديلي ، اذ اخذت أقبل
ايديهم عندما اراهم ، بصرت اقف دائماً الى جانبهم ، فلا أمل من اظهار
الاعجاب بهم ، ووثقت بهم ، وكنت ارجو ان يخرسوا قومي كما اخرسوني .
وعندما علمت ان المبشر قادم ، عرفت ماذا يجب علي ان اعمله ، ورأيت
ذلك اليوم ، نفس الاشرقة التي تغشى منها الابصار ، وهي التي تميزت بها
الايام الاخرى . ورأيت فجأة بعد الظهر احد الحرس يركض على حافة
الحوض ، وبعد دقائق ، جرتوني الى بيت الصنم ، ثم اغلقوا الباب علي .
وطرحني احد الحرس ارضاً مهدداً اياي بسيفه الذي يبدو في هيئة الصليب
وخيم صمت عميق ، ظل مسيطراً مدة طويلة ، وفجأة قطعه صوت غريب
ملاً المدينة الهادئة ، صوت تبينت فيه بعد قليل ، لغة بلادي ، ولكنه
عندما انبعث رأيت رأس السيف يلعب امام عيني ، وحارس ، يتطلع الي
بعينين متفرستين في صمت . وسمعت بعد ذلك صوتين يقتربان مني ، وبدأت
افهم ما يقولانه ، وكان احدهما يسأل ، لماذا توضع حراسة شديدة على ذلك
البيت ، وهل يقضي الواجب بكسر الباب ، ويلقب من يخاطبه باللازم ،

فيرد عليه قائلاً بخشونة ، لا ، مضيفاً بعد دقيقة انه تم الوصول الى اتفاقية تقضي بقبول المدينة لحامية مؤلفة من عشرين جندياً شريطة ان يعسكروا خارج المدينة وان يحترموا شعائرها ، وعاداتها ، وضحك الجندي قائلاً : « لقد بدأوا يذعنون » ، ولكن الضابط ، لم يعرف شيئاً ، فهذه هي المرة الاولى التي يبدو فيها على استعداد لقبول من يعنى بأطفالهم ، وهو راعي الكنيسة ، وبعد مدة سيجري البحث في موضوع الأرض او المنطقة . وقال الجندي ، انه ، اذا لم يأت الجنود ، فانهم سيقطعون ... الكاهن ، ولكن الضابط رد قائلاً ، آه ، لا ، فالاب بيفورت سيصل قبل الحامية بيومين على الأقل . . هذا كل ما سمعته ، وانا بدون حراك ، جالس تحت السيف المصلت علي ، وشعرت بالألم وبمعدة من الامواس والابر ، تدور في باطني . يا لهم من مجانين ، يا لهم من مجانين ، انهم يسمحون ليد غريبة ، بأن تمتد الى المدينة ، والى قوتهم التي لا تغلب ، والى ربهم الصادق الحقيقي ، وهذا الرجل القادم لن يقطع لسانه ، وسيحاول اظهار طبيئته الحمقاء ، دون ان يكلفه ذلك غالياً ، ودون ان يتحمل أي اذى . وسيتأجل حكم الشر ، ويحلّ الشك ثانية ، ويضيع الوقت من جديد ، في توقع الخير المستحيل ، وينهك المرء قواه في جهود غير مجدية ، بدلاً من ان يسارع الى تحقيق المملكة الوحيدة الممكنة . وتطلعت الى السيف الذي يهددني . آه ايتها القوة المطلقة ، التي ستتحكم في العالم ! آه ايتها القوة ! وبصورة تدريجية خلت المدينة من كل صوت ، وفتح الباب اخيراً ، وظللت وحيداً ، احترق ، واشعر بالمرارة ، مع الصنم ، فأقسمت له ان أنقذ ديانتي الجديدة ، وسادتي الصادقين ، والهي الطاغية ، وان اجيد الخيانة ، مهما كلفتني .

آه ان الحرارة تجبو قليلاً ، وقد توقف الصخر عن الاهتزاز ، وفي وسعي الآن ان اخرج من جحري ، وأن اراقب الصحراء ، وهي تتحول

الى اللون الأصفر بالتدرّيج ، الذي سرعان ما ينقلب الى لون البنفسج .
لقد انتظرتهم ليلة أمس الى ان اغفوا ، وكنت قد تركت المزلاج مفتوحاً ،
ثم خرجت اخطو بنفسي الخطو كالمتناد ، يحدد خطواتي الوثاق في رجلي ،
وكنت اعرف الشوارع ، واعرف اين اجد البندقية القديمة ، وأية بوابة
تخلو من الحرس ، ووصلت الى هنا عندما كان الليل ، قد بدأ في الانحسار ،
ولم يبق في كبد السماء الا قلة من النجوم ، بينما لفت الظلمة الحالكة ،
الصحراء ، وما انا ابداً وكأني قضيت اياماً ، واياماً ، أقضي في هذه
الصخور . سيأتي عما قريب ، هذا ما ارجوه ، لحظات وسيشرعون
في البحث عني . وسيلحقون بالاثر في جميع الاتجاهات . ولن يعرفوا اني
لم اغادر مكاني الا من اجلهم . وبقصد خدمتهم . ان ساقى ضعيفتان . وقد
ثقلنا بالجوع والكراهية . آه . هناك ، في نهاية الطريق ، يبدو بعيان .
يكبر حجمها شيئاً فشيئاً ، يتقدمان وقد تضاعف حجماهما بأشباح قصيرة .
انها يركضان بما عرف عن الجمال دائماً من حيوية ونشاط . هما يصلان أخيراً .

اسرع ، أعد البندقية ! ها انا اعدتها واملؤها . آه ايها الصنم ، يا الهي
القابع هناك ، لتدم سلطتك ، ولتضاعف الشر والاساءة ، ولتحكم الكراهية
دون رحمة او اشفاق عالماً يسكنه الملعونون ، وليظل غلاظ القلوب والاشرار ،
سادة دائماً وابداً ، وليزدهر الملكوت ، في هذه المدينة الوحيدة من الملح
والحديد في ظل طغاة يستعبدون ، ويفترسون النساء دون رحمة . والآن ،
اطلق النار على الرحمة ، وعلى الفجر ، وعلى الشفقة ، بل اطلق النار على كل
ما يؤجل مجيء الشر ، اطلق النار مرتين ، فاراهما يسقطان ، وارى البعيرين ،
يهربان نحو الاقنى ، حيث ارتفع رف من الطيور السوداء ، في السماء الخالدة .
واضحك واضحك ، وارى الرجل يتلوى في زيت الكريه ، ثم يرفع رأسه
قليلاً ، ويراني ، يراني ، انا ، سيده القوي ، فيبتسم لي ، لماذا يبتسم ، يجب

ان احطم تلك البسمة . ما اروع صوت البندقية وهي تنطلق لتصيب وجه الخير ، واليوم ، اليوم ، لقد استهلك كل شيء ، وفي كل مكان في الصحراء ، وعلى بعد ساعات من هنا ، تستنشق بنات آوى ، الرياح ، التي لا وجود لها . ثم تمضي خبيثاً ، راكضة نحو وليمة من الجثث تنتظرها . النصر ، ما أجمله ، وارفع ذراعي الى سماء تتجه نحو الرحمة ، ثم ارى شبح الخزامى ، وكأنها تتجه الى الناحية الاخرى . آه يا ليالي اوروبا وليالي الوطن والطفولة ، لماذا يجب ان ابكي في هذه اللحظة من النصر ؟

آه لقد تحرك ، كلا فالصوت قد جاء من ناحية اخرى ، وهما هم يأتون من الاتجاه الآخر راكضين ، وكأنهم سرب من الطيور السوداء . انهم اسيادي ، يهجمون علي ، ويمسكون بي . ثم ، آه ، يبدؤون بضربي ، فهم يخافون من ان مدينتهم ستهاجم وتنهب ، وهم يخشون نقمة الجنود ، على ما قمت به ، وهو حق ، ينصب على مدينتنا المقدسة . دافعوا عن انفسكم الآن ، اضربوا ، اضربوني اولاً ، فانتم تملكون الحقيقة ! آه يا سادتي ، لا شك في انكم ستغلبون الجنود ، وستغلبون الكلام والحب ، وستنشرون فوق الصحارى وعبر البحار ، ومن ثم تملأون ضياء اوروبا باقنعتكم السوداء ، آه ، اضربوا ، اضربوا بطني ، وعيني . واضربوا في كل مكان ، وانثروا ملحكم فوق القارة ، فتموت كل خضرة ، وكل حياة ، وتمتلئ الصحراء الواسعة ، بجباهير من البكم . الموثوقي الارجل . يقفزون الى جانبي . تحت الشمس التي لا ترحم . شمس الديانة الصحيحة . لن اكون وحيداً . آه الألم . الألم الذي يقعونه بي . ولا شك في ان غضبهم صليب . وعلى هذا السرج الحربي الذي يشبه الصليب . حيث وضعوني اضحك ، لانني احب الضربة التي تصيبني بالمسامير وكأني مصلوب .

* * *

يا لهذا الصمت الذي يحيم على الصحراء . لقد هبط الليل وما زلت وحيداً . انني ظلامي . ما زلت انتظر . اين المدينة ؟ تلك الاصوات البعيدة . واولئك الجنود لعلهم هم المنتصرون لا . لا يمكن هذا . حتى ولو انتصر الجنود ، فهم ليسوا على درجة كافية من غلاظة القلب تمكنهم من الحكم . وسيظلون يقولون ان على الانسان ان يصلح نفسه . ويبقى ملايين الناس حائرين بين الخير والشر . ممزقين وذاهلين . آه ايها الصنم . لماذا تخليت عني ؟ لقد انتهى كل شيء . انا ظلامي . ان جسمي يحترق . والليل الاسود يملأ عيني .

هنا الحلم . الحلم الطويل . هل استيقظت ؟ لا . انني على وشك الموت . فالفجر يبرزغ . وسيأتي الضوء الاول حاملاً النور للحياة . وحاملاً لي الشمس المحرقة ، ومعها الذباب . من يتكلم ؟ لا انسان . ان السماء لا تتفتح . لا . لا . ان الله لا يتكلم في الصحراء . ولكن من أين يأتي هذا الصوت وهو يقول : « اذا كنت توافق على الموت في سبيل الكراهية والقوة . فمن سيفر لنا ؟ » هل هو لسان آخر في فمي . او انه ذلك الرجل الآخر يرفض ان يموت تحت قدمي . ويكرر قائلاً : « تشجع ! تشجع ! تشجع ! » آه . اذا افترضنا اذن انني اخطأت ثانية ، لقد كان الرجال المتأخون . هم النجدة الوحيدة . آه ايها الوحدة ، لا تتخلي عني . هنا . من انت ايها الانسان الممزق ، ذو الفم الدامي ؟ انه انت ايها الساحر . لقد هزمك الجنود . ان الملح يحترق هناك . انه انت يا سيدي الحبيب . انزع عنك ذلك الوجه الذي يحمل صورة الكراهية ، وكن طيباً الآن . فقد اخطأنا في الماضي . وسنبداً من جديد . وسنعيد بناء مدينة الرحمة . اريد ان اعود الى وطني . نعم . ساعدني . هذا حسن . اعطني يدك .

* * *

ويمتلئ فم العبد الثرثار بملء يد من الملح .

الرجال الصامتون

كان الوقت شتاء . ومع ذلك كانت الشمس مشرقة على المدينة النابضة بالحياة . وعلى طرف الرصيف التقى البحر والسماء في ضوء واحد يهر الابصار . ولكن ايفيرز لم ير شيئاً من ذلك ، اذ كان يركب دراجته النارية ماشياً ببطء على « البوليفار » الممتد فوق الميناء . وقد ارخى قدمه المشلولة على « الدواسة » الثابتة في دراجته . بينما اشتغلت القدم الأخرى مصطرعة ، مع سطح الطريق المائلة التي ما زالت مبتلة برطوبة الليل . وتجنب دون ان يرفع رأسه عن جسده الصغير الذي يمتطي صهوة الدراجة الخط الحديدي الذي كان في السابق طريقاً للترام . ثم اطفأ بصورة مفاجئة المحرك ليسمح للسيارات بتخطيه . وكان يدفع بكوعه ، بين آونة واخرى الحقيبة التي اودعت فيرناند فيها غداءه ، مفكراً في غضون ذلك بمحتويات هذه الحقيبة التي لا تتعدى « شطائر » من الجبن بدلاً من ان تكون من « العجة » الاسبانية التي يحبها أو « شرائح » اللحم المقلية بالزيت .

ووجد الطريق الى المصبغة اطول من المألوف . وأحس بأنه يسير نحو الكهولة . وعلى الرغم من انه قد بلغ الأربعين من عمره ، وما زال تاحل العود كفصن كرمه ، الا ان عضلات الانسان في مثل هذا السن لا تقبل فيها الحيوية بسرعة . وكثيراً ما قرأ تعليقات الصحف على الانباء الرياضية .

ووجد فيها اشارة الى رياضي في التاسعة والثلاثين من عمره بأنه انسان
مرس أو محنك تقدمت به السن . فيهر كتفيه قائلًا لفرناند « اذا كان هذا
مرسًا فأنا اذن كسيح » . ومع ذلك فقد ادرك ان الصحفي لم يكن
مخطئًا تمامًا . فالرجل في الثلاثين يبدأ في اضاءة فتوته . دون ان يلحظ
ذلك وفي الاربعين لا يكون الرجل كسيحًا . ولكنه يسير في الطريق
نحو هذه النهاية . أو لم يكن هذا هو السبب الذي تجنّب من اجله النظر
الى البحر ، وهو يركب دراجته في طريقه الى الطرف الثاني من المدينة حيث
يقوم حانوت صانع البراميل؟ عندما كان في العشرين من عمره ، لم يكن يل قط
من النظر الى البحر ، لان هذا البحر كان يخفي له في طياته عظمة نهاية الاسبوع ،
يقضيها بسعادة على ساحله . وعلى الرغم مما به من عرج ، فقد كان يحب
السباحة دائمًا . ثم مضت السنون وجاءت فرناند ، وولدت له غلامًا ذكرًا .
وتضخمت مسؤولياته . واضطر في سبيل توفير معيشتها ، الى ان يعمل اوقاتًا
اضافية في الحانوت ايام السبت ، وان يقوم باعمال غريبة للآخرين في ايام
الاحد . وفقد شيئًا فشيئًا عادة قضاء تلك الايام العنيفة ، التي كانت تشبع فؤاده .
فالمياه العميقة الصافية ، والشمس الدافئة والفتيات ، والرياضة هي جميع
المتع التي كان يسعد بها في هذه البلاد ، وقد اختفت تلك السعادة مع اختفاء
الشباب . وظل ايفيرز يحب البحر ، ولكن عند الاصيل فقط ، عندما
يكتسب لون ماء الخليج بعض السواد . وكان يسعد تلك اللحظة عندما
يجلس الى الشرفة قرب بيته ، بعد انتهاء العمل ، ممتنًا ، للقميص النظيف
الذي اعدته فرناند وكوته له ، ولكأس خمر اليانسون البارد كالثلج .
وسرعان ما يهبط المساء ، وتصبح النباء ناعمة ورخصة ، ويأخذ الجيران
في الحديث الى الفيرز بصوت اقرب الى الهمس . ولم يكن يدري في هذه
اللحظات ، هل كان يشعر بالسعادة حقًا او انه يحن الى البكاء . لكنه على كل

حال ، كان يحس ، برتابة ، في هذه اللحظات ، ولا يعمل شيئاً الا الانتظار
يهدوء دون ان يدري تماماً ، ما الذي ينتظره .

وكان من عادته في الاصبح ، وهو ذاهب الى العمل ان لا يجب التطلع
الى البحر . فعلى الرغم من وجوده هناك على استعداد للترحيب به
وتحيته . كان يرفض ان يراه هذا المساء . اما اليوم وفي هذا الصباح
فكان يسير بدراجته ، وقد أحنى رأسه شاعراً بهمّ أكثر من المعتاد
يفغر فؤاده . فعندما عاد في المساء الفائت من الاجتماع واعلن لزواجه
انهم سيعودون الى العمل في الغد قالت فيرناند والسرور يغمرها .
« اذن لقد وافق صاحب العمل على رفع مرتباتكم ؟ » كلا . ان صاحب
العمل لم يرفع رواتبهم . ولكن الاضراب قد فشل اذ انهم لم يحسنوا
اعداد الامور كما يجب . وهذا ما عليهم الاعتراف به . فالاضراب كان
متهوراً . ولم يكن اتحاد العمال متحمساً في تأييده ودعمه . فالعمال
المضربون لا يتجاوز عددهم الخمسة عشر . وهو عدد نافه . وكان على الاتحاد
ان يهتم بشؤون العمال الآخرين في مصانع البراميل الاخرى الذين لم يشتركوا
في الاضراب . وليس في وسع انسان ان يلوم الاتحاد . فصناعة البراميل ،
لم تعد ناجحة ، اذ اخذت صناعة الصفائح وشاحنات البترول تهددها .
فأرقام الانتاج في البراميل آخذة في الانخفاض . وكذلك البراميل الحشبية ،
واصبح العمل فيها مقصوراً على اصلاح الموجود منها . ورأى اصحاب
العمل ، ان مهنتهم لم تعد رائجة ، ولكنهم رغبوا في الاحتفاظ بجزء ضئيل من
الارباح ، واسهل طريق لذلك ، هو تجميد الاجور الحالية ، على الرغم من ارتفاع
مستوى المعيشة . فهاذا بوسع صانعي البراميل ان يعملوا عندما تختفي صناعة
البراميل . ليس من السهل ان يغير الانسان مهنته ، اذا كان قد لاقى عنتاً
شديداً في تعلمها . وهذه المهنة شاقة ويتطلب تعلمها تدريباً طويلاً . فالصانع

الماهر ، الذي يصل بين القطع الحنية التي تصنع منها البراميل ، ثم يحكم وثاقها في النار ، باطواق حديدية احكاماً سديداً ، دون ان يقيرها ، بالدسار او يربطها بالالياف ، انسان نادر . وكان ايفيرز ، يدرك في نفسه هذه الميزة ويعتز بها كل الاعتزاز ، وليس من المهم ان يغير الانسان حرفته ، ولكن ان يتخلى عما يعرفه ، من مهنة هو استاذ فيها ، فهذا ليس بالأمر السهل . وامتلاك هذه المهارة مع البقاء دون عمل ، شيء قاتل لا سيما اذا تحتم عليك ان تستقيل . لكن الاستقالة ليست بالشيء الهين ايضاً ، ومن الصعب على الانسان ان يطبق فمه ، وان لا يتمكن من الخوض في البحث بصورة صحيحة ، ثم يسير في نفس الطريق كل صباح ، مع ازدياد في الانهك والتعب ، ليجد نفسه في نهاية كل اسبوع ، وقد حصل على مجرد ما يودون اعطائه له ، وهو مبلغ اقل بكثير مما هو أهل له .

وهكذا فقد غضبوا ، وتردد اثنان او ثلاثة ، لكن الغضب سرعان ما امتد اليهم ، بعد الحديث الأول الذي دار بينهم وبين صاحب العمل ، فقد قال لهم بصلافة ان عليهم ان يقبلوا برواتبهم او يتركوا العمل . وليس من شيمة الانسان ان يتحدث بهذه الطريقة ، وعلق ايسبوزيتو على ذلك بقوله : « وماذا يتوقع منا ؟ ايتوقع ان نذعن وان ننتظر حتى نطرد ؟ » . لكن صاحب العمل ليس من النوع السيء علي كل حال ، فقد ورث عن والده هذا المصنع الذي نشأ فيه ، وعرف جميع العمال تقريباً ، أمداً طويلاً . وكثيراً ما دعاهم الى وجبة عاجلة في المصنع ، فقاموا باعداد السمك ، أو لحم « السجق » ، على نيران اشعلوها من « نشارة الخشب » ، وكان سخياً في تقديم الخور اليهم . وجرت عادته على ان يقدم لكل عامل في أعياد رأس السنة ، خمس زجاجات من نبيذ الكرمة ، وعندما كان احدهم يصاب بمرض ، او يحتفي بمناسبة كالزواج مثلاً ، أو تناول « القربان »

كان يقدم له هدية نقدية ، وفي اعياد ابنته كان يقدم لكل عامل من عماله كمية من اللوز المحلى بالسكر. وقد دعا ايفيرز مرتين او ثلاث مرات ، للصيد في شقته الساحلية . وليس هناك من شك في انه يحب عماله ، وكان يفخر بأن والده بدأ حياته عاملاً تحت التمرين ، ولكنه لم يقم مرة بزيارة احدهم في بيته ، لانه لا يكثرث بهم ، بل بنفسه فقط ، لانه لا يعرف إلاها . اما الآن فهو يقول لهم : اما ان تأخذوا هذا المرتب او تتركوا العمل وهذا يعني انه قد اضحى عنيداً كالآخرين ، وهو في مركز يسمح له بهذا العناد .

لقد تمكن من احراج موقف الاتحاد ، باغلاقه مصنعه . وقد قال ، « لا تزعجوا انفسكم بارسال فريق منكم لمراقبة المصنع ، اذ عندما يتوقف المصنع عن العمل ، أوفر بعض المال » . وبالطبع لم يكن في قوله هذا صحة ، كما انه لم يؤد الى تخفيف المتاعب ، لانه كان يجابههم بقوله انه يقدم لهم العمل بدافع الشفقة والرافة . وقد ثار ايسبوزيتو ، ثورة عنيفة ، وانكر عليه صفة الرجولة . ولما كان صاحب العمل ، حاد المزاج ، فقد اشتبكا ، وتحتم على الموجودين الفصل بينها . لكن هذا الحادث ترك في الوقت ذاته اثراً على العمال . واضربوا ، واستمر الاضراب عشرين يوماً ، وجلست النساء في غضونه حزينات في البيت ، وثبطت عزيمة اثنين او ثلاثة منهم ، ونصحهم الاتحاد في النهاية ، بالتسليم والعدول عن الاضراب ، مقابل وعد بالتحكيم ، والتعويض عن ايام الاضراب ، بالعمل الاضافي . وقد قرروا العودة الى العمل ، مختالين بالطبع ، وزاعمين ان الموضوع لم يسو ، وانه ما زال في حاجة الى اعادة الدرس .. أما في هذا الصباح ، وقد انقلب الكلال الى هزيمة ، واستعاض في شطائره بالجبن عن اللحم ، لم يعد التعلق بالسراب امراً ممكناً . فالبحر لا يضم في حناياه وعوداً جديدة ، مهما كانت الطريقة التي تشرق بها الشمس .

وضغط ايفيرز على « الدواسة » الوحيدة في دراجته ، وبدأ له مع كل دورة من دورات عجلتها ، انه يخطو نحو الكهولة بعض الوقت . ولم يستطع التفكير بالمصنع ، ولا بزملائه العمال ، او بصاحب العمل ، الذي سيراه عما قريب والذي سيشعر عندما يراه ، بكآبة في فؤاده . وقد اعربت فرناند عن قلقها بقولها : « ماذا ستقولون له ايها الرجال ؟ » فرد عليها قائلاً : « لن نقول شيئاً » . وامتطى ايفيرز دراجته ، وهزّ رأسه ، بعد ان « صرّ » على اسنانه ، واكتسب وجهه الصغير الاسمر المجمع ، بتقاطيعه الرقيقة بعض العبوس ثم قال : « اننا عائدون الى العمل ، وهذا يكفي » . وها هو يمضي الآن في دراجته ، وقد اصطكت اسنانه ، وسيطر عليه غضب جنوبي حزين . احال السماء نفسها امامه الى ظلام دامس .

وانتقل من « البوليفار » والبحر ، ليقترحم الشوارع الرطبة في الحي الاسباني . وقادته هذه الشوارع الى منطقة تحتلها الاكواخ ، واحواض القوارب القديمة ، والمرائب ، حيث يوجد المصنع الذي يعمل فيه ، وهو كوخ خفيض ، مبني من الحجارة ، الى وسطه ، تعلوها جدران زجاجية تتصل بالسقف المعدني المتغضن . ويتصل المصنع الجديد ، بالمصنع القديم الذي كان مؤلفاً من باحة واسعة تحيط بها اكواخ مسقوفة ، والذي هجر بعد ان اتسع نطاق العمل ، واصبح يستخدم الآن كمستودع للآلات المستهلكة ، والبراميل القديمة . وتبدأ حديقة صاحب العمل وراء هذه الباحة ، وتتصل بها بواسطة ممر ، مغطى بالقرميد الاحمر . ويقوم منزله في نهاية هذه الحديقة . والمنزل ضخم وبشع المنظر ولكنه رغم ذلك يؤثر على ناظره ، بالعرائش المتسلقة على جدرانه ، وزهر العسل الذي يلف سلاله الخارجية .

ورأى ايفيرز على الفور ابواب المصنع مقفلة ، وأمامها يقف عدد من العمال صامتين . وكانت هذه المرة الأولى منذ بدأ عمله في هذا المصنع ،

يحد الابواب مغلقة عندما يصل الى عمله . فقد ود صاحب العمل ان يؤكد لهم انه صاحب اليد العليا . واستدار ايفرز بدراجته الى اليسار ، ووضعها في ذلك المنعطف ، الذي يحد الكوخ في تلك الناحية ، ثم اتجه الى الباب ، ورأى عن كشب ايسبوزيتو ، بقوامه الاسمر الفارع وشعره الغزير ، وماركو مندوب اتحاد العمال بمنظره الجاني الذي يشبه منظر نجوم الفضاء ، وسعيد ، العامل العربي الوحيد في المصنع ، ومعهم العمال الآخرون ، وقد وقفوا صامتين ، يتطلعون اليه ، وهو يتقدم منهم . لكن ابواب المصنع . بدأت تفتح ، قبل ان يصل اليهم ، والتفت الجميع ناحية الابواب ، التي ظهر فيها بالستر ، مراقب العمل . وبعد أن فتح احدى الدرفات الثقيلة ، ادار ظهره للعمال . وأخذ يدفع الباب ببطء على قضيبه الحديدي .

وكان بالستر ، اقدم العمال في المصنع ، ولم يوافق على الاضراب في بداية الأمر ولكنه لم يفه ببنت شفة عندما واجه ايسبوزيتو، متهماً اياه بخدمة مصالح صاحب العمل. ووقف بالستر عند الباب يحسمه القصير والغليظ ، مرتدياً بلوزته الزرقاء حافي القدمين . وأخذ يرقبهم واحداً اثر آخر ، وهم يدخلون ، بعينيه الشاحبتين ، اللتين تتوسطان وجهه الذي لوّحته الشمس . وقد انفرجت شفتاه عن فمه تحت شاربيه الكثيفين . وخيم السكون على جميع العمال . فقد احسوا بالاذلال من عودتهم منهزمين . وثار الدم في عروقهم على صمتهم ، الذي كلما طال كلما اشتد عجزهم عن اختراقه . ودخلوا دون ان يتطلعوا الى بالستر . اذ ادركوا انه ينفذ الأوامر الصادرة اليه ، في حملهم على الدخول بهذا الشكل . وقد دللت نظراته الناطقة بالألم واليأس على ما يعتلج في ضميره . وتطلع اليه ايفرز مرة واحدة فأحنى بالستر الذي كان يحبه كل الحب رأسه دون ان ينطق بحرف واحد .

وغدوا الآن جميعاً في الغرفة الصغيرة القائمة الى يمين المدخل . وفي هذه

الغرفة حظائر مفتوحة ، تفصلها الواح من الخشب غير مطلية ، ثبتت من طرفيها الى خزانات صغيرة مغلقة ، وقد تحولت الحظيرة الاخيرة منها ، القريبة من جدار الكوخ ، الى حمام صغير ، يضم مساحاً (دوشاً) ، يقف فوق ميزاب محفور في ارض الغرفة ، وتشاهد في وسط المصنع ادوات العمل في مراحلها المختلفة ، فتمة براميل كبيرة تم صنعها ، واخرى لم تثبت اطواقها بعد ، تنتظر « لحامها » بواسطة النار ، وثمة الواح سميكة حفرت فيها هياكل البراميل ، ودقت لبعضها قواعد الخشبية المدورة ، تنتظر « لحامها » بالنار الباردة . وأمام الجدار ، الى يسار المدخل ، تمتد مقاعد العمال في صف طويل وأمامهم تقع اكوام من القدد الخشبية تنتظر السحج والتسوية . والى جانب الجدار الايمن ، على مقربة من غرفة الملابس يوجد منشاران كهربائيان كبيران ، اعدا للعمل بعد تزييتهما ، وقد وقفا صامتين يبرقان .

وقد غدا المصنع منذ أمد ما ، كبيراً بالنسبة الى الحفنة القليلة من العمال الذين يشتغلون فيه . وقد يكون هذا من الأمور الطيبة في ايام الحر ، لكنه من العيوب في ايام البرد القارس . أما اليوم ، ففي هذا المكان الواسع ، حيث توقف العمل دون ان ينتهي ، وحيث تركت البراميل مهملة في كل زاوية من زوايا المكان ، وفي كل منها طوق واحد ، يربط قاعدة القدة ، وقد انتشرت في كل مكان كالاזהير البرية ، وعلا غبار النشارة ، المقاعد ، وصناديق المعدات والآلات ، فقد بدا المصنع صورة صادقة للامال . وتطلع العمال ، الى ادواتهم ، بعد ان ارتدوا ملابس العمل القديمة ، بسرابتها الباهتة والمرقعة ، ثم ترددوا . وكان بالستر يراقبهم وما عزم ان قال : « وهكذا ، فلنبداً » . ومضى كل واحد منهم الى مكانه دون ان يفوه بحرف واحد . وأخذ بالستر ينتقل من هذا الى ذاك مذكراً اياهم باختصار

بالعمل الذي يجب ان يبدأ أو ينتهي . ولم يرد عليه أي منهم . وسرعات
ما سمع صوت المطرقة الأولى تدق على الوتد الحديدي ، مدخلة طوقاً في
الهيكل الخارجي للبرميل ، وشوهت المسحاة ثثن لأنها اصطدمت بعقدة في
الخشب ، وشرع ايسبوزيتو ، يدير أحد المنشارين ، ونصله يثز ازيزاً
شديداً ، أما سعيد ، فيخرج القدادات عندما يطلب اليه ذلك ، ويشعل
النار من النشارة ، حيث توضع عليها البراميل لتتمدد ، ولتضغط على
نطاقاتها الحديدية . أما اذا لم يطلب اليه احد زملائه القيام بأي عمل ،
فكان سعيد يظل واقفاً عند مقعده « يبرشم » الاطواق الضخمة بمطرقة
كبيرة . وبدأت رائحة احتراق النشارة تملأ المكان . اما ايفيرز الذي كان
يخطط القدد الخشبية التي ينشرها ايسبوزيتو ويصفها في اماكنها فقد
ارتاح الى الرائحة القديمة . وشعر بفؤاده يسترخي بعض الشيء . ومضى
الجميع يعملون في صمت ، ولكن بجرارة . وبدأت الحياة تستيقظ تدريجياً في
المصنع . وغمر الضوء المنعش التنظيف المتدفق من النوافذ الغريضة جو
الكوخ . وارتفعت سحب الدخان الأزرق مقاطعة أشعة الشمس الذهبية .
وسمع ايفيرز دوي حشرة على مقربة منه .

وفتح الباب المؤدي الى المصنع القديم في تلك اللحظة بالذات . ووقف
المسيو لاسال صاحب المصنع على عتبة الباب بعيداً عند نهاية الجدار .
وبدا لاسال نحيلاً اسمر الوجه . لا يمدو الثلاثين من عمره وقد ارتدى
معطفاً للعمل ابيض اللون ، انفتح عن بدلة من قماش « الفابردين » الفاتح اللون ،
يرتديها بافاقة . وعلى الرغم من وجهه النحيل ، الذي نتأت فيه العظام ، فقد
كان يثير في وجه من يراه شعوراً بالحب ، وهذا شأن الناس الذين ينضحون
بالحيوية . ومع ذلك ، فقد بدا عليه شيء من الارتباك ، عندما دخل من
الباب ، وكانت تحيته ، اقل حماساً وجهازة صوت ، من مألوف عاداته .

لكن أياً من العمال ، على كل حال ، لم يرد على التحية . واصاب صوت المطارق بعض التردد ، وتوقف القرع فعلا ليستأنف بعد لحظات اشد قوة وعنفاً . وخطا المسيو لاسال بضع خطوات مترددة ثم اتجه الى فاليري الصغير ، الذي بدأ العمل في المصنع منذ نحو من سنة . وكان على مقربة من المنشار الكهربائي ، وعلى بعد بضعة اقدام من ايفيرز ، يركب قعرأ لبرميل كبير ، فأخذ صاحب العمل ، يرقبه باهتمام . ومضى فاليري في عمله ، دون ان ينطق بحرف واحد . وقال المسيو لاسال اخيراً : « حسنأ يا ولدي ، كيف تسير الأمور معك ؟ » . وعرا الارتباك حركات الشاب فجأة ، ثم تطلع الى ايسبوزيتو القريب منه ، والذي كان يحمل كومة من القدد بيديه الضخمتين ، لينقلها الى ايفيرز . ورد ايسبوزيتو على نظrqته ، وهو في طريقه الى عمله ، فارتدت عينا فاليري الى عمله ، دون ان يرد على صاحب العمل . وتردد لاسال لحظة أمام الشاب ، ثم هز كتفيه ، والتفت الى ماركو الذي كان على مقعده ، ينهي بضربات بطيئة صائبة ، دق قعر لاحد البراميل . وقال لاسال في صوت فيه رنة تملق ومداهنة « هالو ، ماركو » . لكن ماركو لم يرد ، بل ظل يعمل بهدوء والتفت لاسال الى بقية العمال وقال « ماذا دها كم ؟ حقاً اننا لم نتفق ، ولكن هذا لا يمنعنا من العمل معاً . اذن فما الفائدة من هذا السلوك ؟ » وهب ماركو على قدميه ، ورفع القطعة التي في يده ، واصلح طرفها الدائرة ، وتحول بعينه التعبتين وقد غرهما شعور من الارتياح ، ومضى صامتاً الى عامل آخر كان يعد برميلا كبيراً . ولم يسمع في المصنع كله الا صوت المطارق والمنشار الكهربائي . وقال لاسال اخيراً : « حسنأ ، عندما تتغلبوا على هذه العقدة ، دعوني اعرف عن طريق بالستر » ، ومضى بهدوء خارجاً من المصنع .

وفوراً وعلى الأثر ، قرع جرس الباب مرتين ، وتعالى رنينه على طنين

العمل في المصنع . وقام بالستر الذي كان قد جلس يلفّ سيكارة له ، من مقعده متاقلاً ، ومضى ببطء الى الباب في الناحية الاخرى . واستأنفت المطارق عملها بعد ذهابه باصوات اقل جلبة ، حتى ان احد العمال قد توقف عندما عاد بالستر الذي قال فور دخوله : « ان صاحب العمل يريدك يا ماركو وايفيرز » . وكانت السانحة الاولى عند ايفيرز ان يذهب ويغسل يديه ، ولكن ماركو امسك به من ذراعه وجرّه وراه وهو يظلم بقدمه العرجاء .

وكان الضوء في الخارج يغمر الباحة ، صافياً وذائباً ، وأحس به ايفيرز على وجهه وذراعيه العاريتين . وصعدا السلم الخارجي ، تحت نباتات زهر العسل المتسلقة التي تفتحت بعض براعمها . وعندما دخلا الرواق الذي امتلأت جدراناه بالشهادات المعلقة عليه ، سمعا صوت طفلة تبكي ، واستمعا الى المسيو لاسال وهو يقول : « اذهبوا بها الى الفراش بعد الغداء ، وسنستدعي الطبيب ، اذا لم تتغلب على هذه الازمة » . وظهر صاحب العمل فجأة في الرواق ، وسار بها الى المكتب الصغير الذي يعرفانه من قبل والمؤث ، بأثاث من الطراز التقليدي البسيط ، وقد ازدانت جدراناه بالتأثيل الرياضية . واقتعد لاسال ، مكانه وراء المكتب وقال لها : « اجلسا ، لقد استدعيتكما ، لانك يا ماركو مندوب اتحاد العمل ، ولأن ايفيرز اقدم العمال عندي بعد بالستر . وليست لي رغبة بالعودة الى النقاش ، الذي انتهى الآن . فليس باستطاعتي ، وهذا بالتأكيد ، ان اقدم لكم ما تطلبونه . وقد سوي الموضوع وتوصلنا الى النتيجة بان العمل يجب ان يستأنف . وارى الآن على وجوهكم علائم الغضب مني ، وهذا يؤلمني . وانا اقول لكما الآن ما اشعر به حقيقة . واود ان اضيف الى ذلك قولي : ان ما اعجز عن عمله اليوم قد استطيع ان اعمله غداً ، عندما تتحسن حالة العمل ، واذا تمكنت من عمله ، فسأقوم به ، حتي قبل ان تطلبوا الى ذلك . وفي غضون

ذلك دعونا نعمل معاً . وتوقف عن الحديث ، وبدا عليه التفكير ، ثم تطلع إليها وقال : « حسناً ! » وكان ماركو يتطلع عبر النافذة الى الخارج . واراد ايفيرز وقد اصطكت اسنانه ان يتكلم ولكنه لم يستطع . واخيراً قال لاسال : « اسمع ، لقد تحجرت عقولكم جميعاً . ولكنكم ستغلبون على هذه الأزمة . وعندما تعودون الى عقولكم ورشدكم ، لا تنسوا ما قلته لكما الان » . ونهض من مقعده وخطا نحو ماركو وامسك بيده وقال « شاد » . واصفر وجه ماركو فجأة ، وعلا العبوس بحياه الاسمر ، وبدا في ثانية واحدة ، ذليلاً مستكيناً . وأنداك استدار ماركو على عقبيه ، وخرج من المكتب ، وعلا الشحوب وجه لاسال ايضاً ، ونظر الى ايفيرز ، دون ان يمد اليه يده ثم صرخ : « اذهب الى الجحيم » .

وعندما عاد الى المصنع كان العمال يتناولون غداءهم ، وكان بالستر قد خرج ، وقال ماركو ببساطة : « مجرد ريح » ، ثم عاد الى مقعده . وتوقف ايسبوزيتو عن ازرداد لقمة الخبز التي في يده ليسألها ، عما قالاه ، فرد ايفيرز ، بأنها لم يجيبا على اقواله بحرف واحد . ومضى الى حقيبته فحملها ثم عاد الى مقعده . وعندما شرع في الأكل ، لاحظ على مقربة منه ، سعيداً مستلقياً على كومة من النشارة ، وعيناه تتطلعان من النوافذ التي غدت زرقاء ، من انعكاس السماء عليها ، بعد أن ضعف لمعانها . وسأله ايفيرز ، اذا كان قد تناول غداءه ، فرد سعيد بالايجاب وأنه أكل حبات التين التي جاء بها . وتوقف ايفيرز عن الأكل ، واختفى ذلك الشعور من القلق الذي لازمه منذ مقابلة لاسال ، ليحل محله شعور من الود الدافئ المريح . وجزأ قطعة الخبز التي معه الى قطعتين ، واعطى سعيداً احدهما بالرغم من رفضه ، مؤكداً ان الاحوال تتحسن في الاسبوع القادم ، ويوان دوره سيحل آنذاك لإطعامه . وابتسم سعيد ، وعض الشطيرة التي اعطاه

اياها ايفيزز ، بطريقة تدل على انه ليس بالجائع .

وتناول ايسبوزيتو ، قدراً قديماً واشعل ناراً صغيرة من النشارة ، وقطع الأخشاب ، وصب القهوة التي حملها من بيته في زجاجة ، في القدر ليسخنها ، وقال : ان هذه القهوة هدية الى عمال المصنع ، من بقاله ، عندما سمع بفشل الاضراب . وانتقلت جرة الخردل ، التي صبت فيها القهوة ، من يد الى يد ، وشرب سعيد بلذة فاقت ما احس به من سرور عند الاكل . وتناول ايسبوزيتو ، ما تبقى من القهوة في القدر الحار ، وقد زمّ شفّتيه ، ثم بدأ يشتم ويسب ، فقد احرقها القدر . وعاد بالستر في هذه اللحظة ، ليعطي اشارة البدء بالعمل من جديد .

وبينا كان الجميع منهمكين في جمع الاوراق ، وحاجيات الطعام، واعادتها الى حقائبهم، وقف بالستر، في وسطهم وقال فجأة ، انه يشعر معهم بالالم من الحالة التي هم فيها ، والتي يشاركونها اياها ، ولكن هذه الحالة ليست مبرراً ، لاتباع هذا السلوك كالاطفال ، وان لافائدة مطلقاً من التبرّم. والتفت اليه ايسبوزيتو، والقدر في يده ، وقد احمر وجهه الطويل الحشن . وادرك ايفيزز ماذا يريد ايسبوزيتو ان يقول ، اذ ان ما يدور بخلده ، هو عين ما يفكر به الآخرون ، فهم ليسوا بمتبرمين ، وهم قد اغلقوا افواههم ، لانهم خيروا بين احد امرين، اما القبول او ترك العمل، وان الغضب والبأس كثيراً ما يؤلمان الى الحد الذي يعجز فيه من يصيباه ، عن البكاء . فهم رجال ، اولاً وآخراً، وليس في وسعهم ان يبدأوا الضحك وتكلف الابتسام. لكن الكلمات، وجدت في فم ايسبوزيتو ، واسترخى وجهه اخيراً بعض الشيء، ثم ربت بيده على كتف بالستر بلطف ونعومة ، بينما مضى الآخرون الى عملهم . وبدأت المطارق تدق من جديد ، وارتفع صوت الطنين المألوف في الكوخ الكبير ، الذي امتلأ هواؤه برائحة النشارة ، والملابس القديمة وقد بللها العرق . وشرع المنشار الكبير ، يقطع

الاشخاب التي يضعها ايسبوزيتو الى قطع صغيرة . وقطائر غبار نشر الخشب من المنشار مغطياً الذراعين الكبيرتين اللتين يكسوها الشعر الكثيف ، واللّتين تمسكان بالالواح الخشبية التي توضع تحت نصل المنشار . ودوى في المصنع ، صوت المحرك ، الذي يدير هذه الآلة .

وأحس ايفيرز بالألم يحز في ظهره ، وهو منحني على عمله . وكانت العادة ان لا يزوره هذا الألم ، الا في ساعة متأخرة من النهار . لكن يبدو ، أن الافتقار الى التمرين خلال هذه الاسابيع التي انقضت من البطالة ، قد تركت مفعولها . وفكر ايفيرز ، بالشيخوخة تهاجمه فتجعل العمل اليدوي اكثر صعوبة ولا سيما اذا لم يكن مجرد عمل يحتاج الى الاتقان والتدقيق . فحيثما يتناول العمل العضلات ، يصبح بصورة حتمية اكثر صعوبة مما تعافى النفس ، لانه يسبق الموت ، ويصبح النوم في الالميات التي قلى العمل المضني ، اشبه بالموت . لقد اراد وهو صبي ، ان يصبح استاذاً في مدرسة ، وكان على حق في رأيه ، فهؤلاء الذين يغرقون في استخدام العبارات المألوفة للثناء على العمل اليدوي ، لا يعرفون ما يقولون .

وعندها نهض ايفيرز بهامته ، ليلتقط انفاسه ، وليطرد عنه هذه الافكار الخبيثة ، قرع الجرس من جديد . وكان الرنين هذه المرة متواصلاً ، وبصورة غريبة ، تتخلله انقطاعات واستئناف من جديد ، حتى ان العمال توقفوا عن العمل . واصفى بالستر مدهوشاً ، ثم حزم امره ، وخطا باتجاه الباب . ولم يغب عن المصنع الا بضعة ثوان عندما توقف رنين الجرس بصورة نهائية . وهاء الرجال الى عملهم . واخيراً فتح الباب من جديد ، وركض بالستر باتجاه الغرفة الخارجية التي يبدلون فيها ملابسهم وخرج بعد لحظات منها وقد ارتدى حذاء من المطاط ، ووضع سترته على كتفيه ، ثم قال لايفيرز وهو يخرج من المصنع : لقد اصببت الطفلة بنوبة شديدة ، وانا ذاهب

لاستدعاء جرمين ، ثم ركض باتجاه الباب الرئيسي . وكان الدكتور جرمين ، هو الذي يعنى بأحوال جميع أهل المصنع الصحية ، وهو يعيش في نفس الحي . واعاد ايفيرز على مسامع رفاقه ما سمعه من بالستر ، والتفوا جميعاً حوله ، والواحد منهم ، يتطلع الى الآخر ، وقد سيطر عليهم الارتباك . ولم يكن ليصدر عن المصنع أي صوت ، الا صوت المنشار الكهربائي وهو يدور بحرية وانطلاق . وقال احدهم : قد يكون الحادث بسيطاً وعادوا الى اماكنهم ، وامتلأ المصنع ثانية بأصواتهم ، ولكنهم مضوا في عملهم ببطء ، وكأنهم يتوقعون شيئاً .

وبعد ربع ساعة ، عاد بالستر ثانية ، وعلق سترته ، ثم مضى دون ان يقول شيئاً عبر الباب الصغير . وبدأ الضوء ، الذي يلطم النوافذ يبدو خافتاً ضعيفاً . وبعد قليل ، وفي الفترة التي لا يكون المنشار يقطع فيها الخشب ، سمع الجميع صوت سيارة اسعاف ، قادمة من مكان بعيد ، ولكنها تقترب شيئاً فشيئاً ، الى ان توقفت بباب المصنع . وخيم السكون على المكان . وعاد بالستر بعد لحظات واتجه جميع العمال اليه . وكان ايسبوزيتو قد اوقف محرك المنشار . وقال بالستر ان الطفلة عندما كانت تنزع ملابسها في غرفتها ، ترنحت فجأة وكأنها تحت منجل الحصاد . وعلق ماركو على ذلك بقوله : « هل سمعتم بمثل هذا من قبل » . وهز بالستر رأسه ، و اشار بصورة غامضة الى المصنع ، دون ان يفهم أحد منه شيئاً . وسمع صوت جرس سيارة الاسعاف من جديد . وكانوا يقفون هناك جميعاً ، في المصنع الصامت ، في الضوء الشاحب المتدفق من الدرف الزجاجية ، وقد اسدلوا ايديهم الخشنة التي لا نفع فيها الى جانب سراويلهم التي يعلوها مسحوق الخشب .

ومضت بقية النهار ، تجر ذيلها ، ببطء قاتل . وشعر ايفيرز الان بتعبه ، وبفؤاده المثقل بالهموم . وكان بوده ان يتكلم ،

ولكن ليس لديه ما يقوله . كما ليس لدى الآخرين ما يقولونه . وكنت ترى على وجوههم غير المعبرة علامات الحزن ، ممزوجة بنوع من العناد والاصرار . وحياناً كانت كلمة « المصيبة » ، تتجمع في فمه ، ويوشك على النطق بها ، ولكنها سرعان ما تختفي ، كما تختفي فقاعة الصابون بصورة مشابهة . و اراد ان يعود الى بيته ، وان يكون الى جانب فيرناند وطفلها ، على شرفة البيت ، واعلن بالستر ، انتهاء ساعات العمل ، وتوقفت الآلات عن الحركة ، وأخذوا يطفئون النيران ، بتكاسل ، ويميدون كل شيء الى مكانه ، ثم انتقلوا واحداً اثار آخر الى غرفة نزع الملابس . وظل سعيد وحيداً داخل المصنع ، فقد كان عليه تنظيفه ، ورش ارضه بالماء ، وعندما وصل ايفيرز ، الى غرفة الملابس ، وجد ايسبوزيتو ، يحسمه الضخم الذي يكسوه الشعر ، واقفاً تحت (الدوش) ، وقد ادار ظهره للجميع بينما تعالت فقائيع الصابون على جسده . وكانوا عادة يسخرون من عريه ويشبهونه بالدب الكبير الذي يخفي باصرار اجزاء جسده الخفية . لكن اليوم ، لم ينتبه احد منهم اليه ، وخرج ايسبوزيتو ، من المكان وقد لف جسده ، بمنشفة ، بدت وكأنها مئزر . وبدأ الآخرون يتناوبون الاغتسال ، وكان ماركو يضرب يديه جانبيه العاريين بعنف ، عندما سمعوا صوت الباب الكبير يفتح ببطء ، ورأوا لاسال يلج المصنع .

كان لاسال ، يرتدي نفس الملابس ، التي بدا بها في الصباح ، لكن شعره ، كان مشعثاً ، ووقف على عتبة المصنع ، واجال بصره في المصنع الواسع المهجور ، ثم خطا بضع خطوات ، وتوقف ثانية ، متطلعاً الى غرفة الملابس . والتفت ايسبوزيتو ، الذي كان لا يزال ملتفاً بمئزره نحوه وهو يقفز عارياً وحائراً ، من قدم ، الى قدم . وخيل لايفيرز ، ان من واجب ماركو ان يقول شيئاً ، ولكن هذا ظل مختفياً وراء الستار الكثيف من الماء الذي يلفه . وتناول ايسبوزيتو قميصه ، وكان على وشك ان يرتديه عندما سمع لاسال يقول في صوت حزين لا نغم فيه ، « مساء الخير » ،

ثم يتجه نحو الباب الصغير . وعندما خطر ببال ايفيرز ان واحداً منهم يجب ان يدعوه ، كان لاسال قد مضى واغلق الباب وراءه .

وارتدى ايفيرز ثيابه دون ان يغتسل ، وحياتهم تحية المساء من جماع فؤاده ، فردوا على تحيته بجرارة وخرج بسرعة ، فاستقل دراجته ، ومضى بها شاعراً بالألم يحزّ في ظهره . واجتاز الان في ساعات المساء ، الشوارع الغاصة بالسيارات ، وهو يغذ سيره ، مشتاقاً للعودة الى بيته القديم ، وشرفته . ورأى أن بوسعه الاغتسال ، في الحمام ، قبل ان يجلس الى شرفته متطلعاً الى البحر ، الذي أصبح الان ، مرافقاً له ، والذي بدا الان ، اشد اكفهراراً مما كان عليه في الصباح ، وراء حاجز « البوليفار » . لكن طيف تلك الفتاة الصغيرة المريضة قد لازمه ايضاً ، ولم يستطع التوقف عن التفكير فيها .

ووجد ولده قد عاد من المدرسة الى البيت ، وهو يطالع الصحف المصوّرة . وسألت فيرناند زوجها ، عما اذا كان كل شيء قد سار سيراً طبيعياً في المصنع . ولكنه لم يجر جواباً بل مضى واغتسل في الحمام ، ثم جلس الى مقعده القائم قرب جدار الشرفة الخفيض . وتدلت فوق رأسه قطع الثياب المفسولة ، وبدأ الشفق يظهر في السماء ، وبدأ بحر المساء الناعم ، وراء الجدار . وابتعدت فيرناند ، بقدحي « اليانسون » ، وبجرة من الماء البارد ، ثم جلست الى جانب زوجها ، فأمسك بيدها ، كما كان يفعل عادة في ايام الزواج الأولى وأخذ يتحدثها بكل ما وقع . وعندما انتهى من حديثه ، لم يتحرك ، متطلعاً الى البحر ، حيث بدأ الشفق في الغياب بين طرفي الافق البعيد . وقال محدثاً نفسه : « انها غلطته » . آه لو كان لا يزال شاباً ، وكانت فيرناند شابة ايضاً ، لذهب بعيداً ، عبر البحر .



الضيف

كان ناظر المدرسة يراقب الرجلين ، وهما يصعدان متجهين اليه . وكان احدهما يمتطي صهوة جواد ، والآخر يسير على قدميه . ولم يكونا قد تغلبا بعد على الصعود الفجائي المؤدي الى دار المدرسة ، المبنية على جانب من التل . ومضيا يغذان السير ، وان كان تقدمهما بطيئاً عبر الثلوج ، وبين الصخور ، على المدى الفسيح من الهضبة المهجورة العالية . وأخذ الجواد يتعثّر في سبيله ، بين آونة واخرى ، وتمكن ، دون ان يسمع شيئاً جعداً ، من رؤية زفير الجواد وهو يندفع من خياشيمه . وكان احد الرجلين على الاقل يعرف المنطقة . فقد ظلّا يلتبعان الطريق على الرغم من اختفائها منذ ايام تحت طبقة من الثلج الابيض القذر . وقدر ناظر المدرسة ، ان منتصف ساعة ستقضي على الاقل ، قبل ان يتمكننا من صعود التل . ولما كان الطقس بارداً ، فقد عاد الى المدرسة ، ليرتدي صديريّة من الصوف .

واجتاز غرفة الصف ، الخالية ، والمتجلدة . وكانت انهار فرنسا الاربعة المرسومة على اللوح ، باربعة ألوان مختلفة من الطباشير تجري نحو مصباتها في غضون الايام الثلاثة الماضية . وقد تساقط الثلج فجأة في منتصف شهر

تشرين الاول بعد ثمانية اشهر طويلة من انحباس الامطار ، وانقطع العشرون طالباً او يزيدون ، والذين يعيشون في القرى المتفرقة فوق الهضبة عن المجيء الى المدرسة . ولكنهم سيعودون عندما يتحسن الطقس . واكتفى دارو الآن باشعال النار في الغرفة الوحيدة التي يقيم فيها والمجاورة لغرفة الصف . والمطلة ايضاً على الهضبة الواقعة الى الناحية الشرقية . وكانت نافذة هذه الغرفة كنوافذ الصف تطل على الجنوب ايضاً . وتبعد المدرسة في هذا الاتجاه بضعة كيلو مترات عن النقطة التي تبدأ عندها الهضبة في الهبوط نحو الجنوب . وعندما يكون الطقس صافياً تبدو كتلة ارجوانية من سلسلة الجبال ، حيث توجد الثغرة التي تنفذ الى الصحراء .

وعاد دارو بعد ان احس بالدفء ، الى النافذة التي رأى منها الرجلين لأول مرة . لقد اختفيا ، ولم يعودا يظهران . لا ريب انهما قد بدءا بالصعود . ولم تكن السماء قائمة ، فقد توقف الثلج عن الهطول خلال الليل . واستهل النهار مجيئه بضوء خافت قذر ، لم يتحول الى بعض الاشراق ، الا عندما ارتفع سقف الغيوم من السماء . وعندما بلغت الساعة الثانية بعد الظهر ، بدا ، وكأن النهار قد بدأ في الطلوع في تلك الساعة . لكن هذه الحالة كانت افضل على العموم من الايام الثلاثة السالفة ، عندما كان الثلج الغزير يتساقط ، وسط لجة من الظلام لاتنقطع ، وقد صحبت سقوطه دفقات صغيرة من الرياح ، كانت تهز الابواب المزروجة في غرفة الصف . وقد قضى دارو معظم الوقت آنذاك في غرفته ، ولم يكن يتركها الا ليذهب الى الكوخ ، لاطعام فراخ الدجاج ، أو لنقل بعض الفحم . ومن حسن حظه ، ان سيارة الشحن القادمة من تدجيد ، اقرب قرية الى المدرسة باتجاه الشمال ، قد نقلت له ما يحتاج اليه من مؤن وحاجيات قبل يومين فقط من بدء العاصفة . وستعود السيارة بعد ثمان واربعين ساعة .

وتوفرت لديه بالإضافة الى ذلك ، مؤن تكفيه مدة طويلة ، يقاوم فيها اي حصار يفرض عليه ، فقد اكتظت الغرفة الصغيرة باكياس القمح ، الذي تركته الادارة كمخزون لها توزعه على ذلك النفر من طلابها ، الذين عانت عائلاتهم من الجحاس الامطار . ولقد كانوا بالفعل جميعاً من الضحايا ، لانهم من الفقراء . وجرت عادة دارو ، على أن يوزع عليهم في كل يوم ، حصة من القمح . وادرك انهم قد افتقدوا هذه الحصص كثيراً ، في هذه الايام السيئة . وقد يفد احد آباء الطلاب او اخوتهم الكبار ، بعد ظهر اليوم ، ويتمكن من تزويدهم جميعاً بالقمح . وتتلخص المشكلة في تمكينهم من احتمال ضائقتهم حتى الحصاد القادم . فها هي السفى تفرغ محمولها من الحنطة من فرنسا ، وقد انتهت حدة الازمة . ولكن من الصعب ان ينسى الانسان ذلك الفقر المدقع ، وذلك الجيش من الاشباح في ملابسهم المهلهلة ، يتجولون في وهج الشمس ، في الهضاب التي احترقت واستحالفت الى رماد ، شهراً بعد شهر ، بينما انكسرت الارض شيئاً فشيئاً ، وقد شاطتها الحرارة ، واصبح الحجر فيها يتحول الى تراب ، اذا داسته الاقدام . وقد ماتت قطعان الماشية آنذاك بالالوف كما مات عدد من الناس هنا وهناك . وحياناً ، دون ان يدري بموتهم انسان .

وعاش دارو ، اذا قارناه بهذه الحالة من الفقر اليائس ، كراهب في مدرسته النائية ، قانعاً الى حد كبير ، بالقليل الذي يملكه ، وبالحياة الحشنة التي يعيشها ، وشاعراً بنفسه وكأنه سيد داخل هذه الجدران المطلية بالكلس ، وعلى سريره الضيق ، وامامه رفوفه غير المدهونة ، وبشر مائه ، وحاجياته الاسبوعية من الماء والغذاء . وفجأة يهبط هذا الثلج ، دون انذار ، ودون ، أية مقدمة من الامطار . ولكنها طبيعة المنطقة بقسوة العيش فيها ، حتى بدون اناس قد لا يتمكنون من اصلاح الاحوال فيها .

ولكن دارو قد ولد في هذه البلاد ، وهو يشعر في خارجها ، في اي مكان آخر ، وكأنه في منفى سحيق .

وخطا نحو الشرفة الواقعة أمام دار المدرسة . ورأى الرجلين قد اصبحا الآن في وسط المنحدر . وتبين ان الفارس ، لم يكن الا الدركي الشيخ بالدوكي ، الذي عرفه منذ عهد بعيد . وكان بالدوكي يسحب بجبل في يده عربياً يسير وزاءه ، وقد ربطت يداه ، وخفض رأسه . وأشار الدركي بيده محيياً ، ولكن دارو لم يرد على تحيته ، فقد استغرق في التفكير بهذا العربي ، الذي يرتدي « جلابيه » زرقاء ناعمة ، وقد وضع في قدميه زوجاً من « الصنادل » تغطيها جزأت من الشعر الكثيف الحام ، وعلى رأسه لبدة قصيرة ضيقة . وأخذاً يتقدمان . وكان بالدوكي يكبح جماح حصانه ، مخافة ان يلحق الأذى بالعربي واستمر التقدم ببطء .

وعندما اصبحا على مسمع من الناظر هتف بالدوكي قائلاً : « لقد قضينا ساعة في اجتياز الكيلومترات الثلاثة التي تفصل مدرستك عن قرية الامير » . ولم يرد دارو ، بل ظل يرقبها وهما يصعدان ، وقد بدا قصيراً متساوي الطول والعرض في صدريته الثقيلة . ولم يرفع العربي رأسه مرة واحدة . وعندما وصلا الى الشرفة قال دارو : « هالو ، ادخلا ، واستدفئا » . وترجل بالدوكي بمشقة عن جواده دون ان يتخلى عن الجبل الذي يربط العربي ، وافتر ثغره ، تحت شاربته الحشن عن ابتسامة طالع بها الناظر . وبدا متأهباً ونشيطاً ، بعينيه السوداوين الصغيرتين ، الغائرتين ، تحت جبهته التي لوحتها الشمس ، وفمه الذي تحيط به التجمعات من كل ناحية . وتناول دارو عنان الجواد وقاده الى الكوخ ، ثم عاد الى الرجلين اللذين كانا ينتظرانه في المدرسة . ومضى بهما الى غرفته وقال : « سأشعل النار في غرفة الصف . فقد نجد فيها راحة اكثر » . وعندما عاد ثانية الى

الغرفة ، رأى بلدوكي جالساً على الارىكة ، وقد حلّ الحبل الذي يربطه بالعربي ، واقعى هذا بجانب المدفئة ، وكانت يده لا تزالان مقيدتين ، وقد دفع باللبدة على رأسه الى الوراء ، وهو يتطلع نحو النافذة . ولاحظ دارو قبل كل شيء ، شفّيه الغليظتين الضخمتين ، كشفاه الزوج ، ومع ذلك فقد كان انفه مستقيماً ، وعيناه سوداوين ، تغمرهما الحمى . وكشفت « اللبدة » عن جبهة عنيدة ، وبدا وجهه كله ، تحت جلده المغضّن ، الذي فقد لونه ، نتيجة البرد ، قلقاً ، ثائراً ، أثر على نفس دارو ، عندما التفت اليه العربي ، مواجهاً نظراته ، بنظرات صارمة . وقال الناظر : « اذهب الى الغرفة الاخرى ، وسأعد لكاً قليلاً من الشاي المزوج بالنعناع » . ورد بلدوكي : « شكراً ، ما اشد هذا الازعاج ، لشدّ ما اتوق الى التقاعد » . ووجه حديثه الى سجينه باللغة العربية قائلاً : « تعال انت » . ونهض العربي ، وخطا ببطء ، وقد امسك برسغيه الموثوقين ، نحو غرفة الصف .

وحل دارو مقعداً ، عندما أتى لهما بالشاي . ولكن بلدوكي ، كان قد اقتعد اقرب منضدة للطلاب ، بينما اقعى العربي على منصة الاستاذ ، مواجهاً المدفئة ، القائمة بين المنضدة والنافذة . وعندما مد دارو يده بقدح الشاي الى السجين ، تردد ، اذ ابصر بيديه الموثقتين وقال : قد يكون من الافضل حل وثاقه ، فرد بلدوكي بقوله : « طبعاً ، لقد كان الوثاق ، للرحلة » . واراد الدركي ان ينهض على قدميه ، ولكن دارو وضع القدح على الارض وركع بجانب العربي ، الذي اخذ يراقبه بعينه المحمومتين ، دون ان ينبس ببنت شفة . ولما وجد يديه طليقتين ، شرع يفرك رسغيه المتورمين ، ثم تناول قدح الشاي ، وبدأ يرشف السائل الغالي ، رشفات سريعة متلاحقة .

وقال دارو : « حسناً ، والى اين تقصد ؟ »

فسحب بلدوكي شاربته من قدح الشاي وقال : « اليك ، يا ولدي » .

- تلميذان غريبان ! وهل تنويان قضاء الليل عندي ؟

- لا . سأعود الى الامير . وعليك ان توصل هذا الشخص الى تنغويت ، حيث ينتظرونه في مقر قيادة الشرطة .

وكان بلدوكي يتطلع الى دارو ببسمة ودود صغيرة .

وقال الناظر متسائلا : وما هي القصة ؟ هل تريد ان تخدعني ؟

- لا ابدأ ، يا ولدي ، هذه هي الاوامر .

- « الاوامر ؟ انا لست ... » وتردد دارو اذ لم يكن يقصد ايذاء الكورسيكي المعجوز ثم قال ... « عنيت ، ان هذا ليس من عملي . »
- ماذا ؟ ماذا يعني قولك ؟ في ايام الحرب . يقوم الناس باداء جميع انواع المهات .

- اذن سأنتظر اعلان الحرب !

واحنى بلدوكي رأسه وقال : « حسناً . ولكن الاوامر موجودة ، وهي تتعلق بك ايضاً . لقد بدأت الامور في طور التخدير كما يبدو . فهناك حديث عن ثورة قادمة ، وقد اصبحنا في حالة تعبئة عامة الى حد ما » .
وظل دارو محتفظاً بنظرته العنيدة الصارمة .

وقال بلدوكي : « اسمع ، يا ولدي . انني احبك ، وعليك ان تفهم ، فمعدنا مع الامير لا يتجاوز الاثني عشر ، وعلينا ان نحرس المنطقة كلها التي تؤلف مقاطعة صغيرة . علي ان أعود بسرعة . وقد أمرت ان اسلم هذا الرجل اليك وان اعود دون ابطاء . ولم يكن في الامكان الاحتفاظ به

هناك ، اذ ان قريته قد بدأت تتحرك ، وأراد اهلها استرجاعه . وعليك ان تأخذه غداً الى تنغويت قبل ان ينقضي النهار . ومسافة عشرين كيلو متراً ، لا تقلق انساناً خشناً مثلك . وعندما تؤدي مهمتك ، يكون كل شيء قد انتهى وتعود الى طلابك والى حياتك المريحة . »

وسمع في الخارج صوت الجواد وهو يصهل ، ويضرب الارض بحافره . وكان دارو يتطلع من النافذة . فبكل تأكيد ، اخذ الطقس ينجلي ، والضوء يشتد ، على الهضبة المغمورة بالثلوج . وعندما ستذوب هذه الثلوج ستعود الشمس الى حالتها الأولى ، فتحرق صخور الارض . وستنقضي ايام أخرى والسماء التي لا تتبدل ، تلقي بضوئها الجاف على المدى الوحيد ، حيث لا يتصل أي شيء بالانسان .

وقال دارو وقد التفت نحو بلدوكي : « على كل حال ، ماذا اقترف هذا الرجل ؟ » وقبل ان يفتح الدركي فمه واصل دارو سؤاله قائلاً : « هل يتكلم الفرنسية ؟ »

— لا ، ولا كلمة واحدة . كنا نبحت عنه منذ شهر ، وكانوا يخفونه ، فقد قتل ابن عمه .

— وهل هو ضدنا ؟

— اعتقد ، على كل حال ، ليس بوسعك ان تتأكد .

— نزاع عائلي على ما اعتقد . وكان احدهما ، قد اقرض الآخر قمحاً كما يبدو . ان الموضوع غير جلي تماماً . على كل حال ، لقد قتل ابن عمه ببطوأة معقوفة ، وكأنه من الغنم . لقد ذبحه هكذا .

واشار بلدوكي بيده على رقبته ، واخذ العربي ، الذي اجتذبت حركته

اهتمامه ، يرقبه بنوع من القلق . وأحس دارو بغضب فجائي ، يستهدف الرجل ، بل جميع الرجال . بخلافاتهم وكرهياتهم التي لا يملون منها ، وقمعهم الى الدماء .

وبدأ « الابريق » يغني على الموقد ، فصب قدحاً آخر من الشاي لبلدوكي ، ثم تردد ، وصب قدحاً ثانياً للعربي ، الذي أخذ يحتسيه للمرة الثانية باشتهاء ورغبة . وعندما رفع يديه ، انفتحت « الجلابة » ورأى الناظر ، صدره النحيل .

وقال بلدوكي : « شكراً يا ولدي ، والآن ، فساذهب » .
ونفض الدركي ، وخطا نحو العربي وقد اخرج من جيبه حبلاً ، قصيراً وسأله دارو يحفاف : « ماذا تعمل ؟ »
وارتبك بلدوكي ، وعرض عليه الحبل . فقال الناظر : « لا تقلق ، :
وتردد الدركي المعجوز ثم قال : على كل ، الموضوع عائد اليك ، لا شك انك مسلح ؟

— لدي بندقيتي .
— اين هي ؟
— في الحقيبة .
— عليك ان تضعها قرب سريرك .
— لماذا ؟ انا لا أخشى شيئاً .
— انت مجنون ، اذا وقعت الثورة ، لا يأمن انسان على نفسه . انتا جميعاً في نفس القارب .

— سأدافع عن نفسي ، وسيتوفر لدي الوقت لارام وهم قادمون .
وأخذ بالدوكي يضحك ، وغطى شاربه اسنانه البيضاء . ثم قال : « يتوفر

لديك الوقت ؟ حسناً ، هذا ما كنت أقوله . لقد كنت دائماً أقول انك شديد الزهو بنفسك . وهذا هو السبب في حبي لك ، فقد كان ولدي على شا كلتك .

وأخرج في الوقت نفسه مسدسه ، ووضعه على النضد وقال : « احتفظ به ، لن احتاج الى سلاحين في طريقي من هنا الى القرية .

ولم المسدس على دهان المنضدة الاسود . وعندما التفت الدركي ، اشم ناظر المدرسة رائحة الجلد المدبوغ ، وشعر الخيل . وقال دارو بصورة مباغتة : « اسمع يا بلدوكي . ان هذا الوضع يثير في نفسي الاشمزاز ، ولا سيما ، هذا الرجل الذي معك . ولكنني لن اسلمه ، وسأقاتلك اذا اقتضى الأمر ، ولكنني لن اسلمه . »

ووقف الدركي المعجوز أمامه . وهو يتطلع اليه بقسوة وخشونة ثم قال ببطء : اسمع لا تكن احمق . انني لا أحب هذا الوضع ايضاً ، فليس في وسعك ان تتعود على وضع حبل في عنق رجل ، حتى بعد سنوات طويلة من الخدمة . ولا شك في انك تشعر بالحجل . أجل بالحجل . ولكن ليس في وسعك ، السماح لهم ، بان يحققوا ما يريدون .

وعاد دارو الى القول : لن أسلمه ابداً .

— ولكنه الأمر ، يا ولدي . وانا اكرره .

— حسناً ، ليكون الأمر كما تقول . فاذهب ، وأعد على مسامعهم ما قلته

لك . انني لن اسلمه .

وقام بلدوكي بمحاولة ظاهرة ، للتفكير ، وتطلع الى العربي والى دارو ، ثم حزم امره اخيراً ، وقال : « لا ، لن اقول لهم شيئاً . فاذا اردت ان تتخلي عنا ، فامض في طريقك . انني لن أشي بك . ولدي أمر بتسليم

السجين وقد سلمته . والآن ارجو ان توقع لي على هذه الورقة . »

— لا حاجة للتوقيع . لن انكر انك قد تركته معي .

— لا تحاول اهانتني . انما اعرف انك ستقول الحق . فأنت من ابناء هذه الأرض ، وانت رجل أولاً وآخرأ . ولكن يجب ان توقع . فهذا ما تقضي به الانظمة .

وفتح دارو درج مكتبه ، واخرج دواة مربعة من الحبر الارجواني ، وتناول الريشة الخشبية ، التي تحمل قلم « العريف » والتي يستخدمها عادة في كتابة نماذج من الخط لطلابه ، ووقع بها . وطوى الدركي الورقة بعناية ووضعها في محفظته ثم اتجه الى الباب .

وقال دارو : « سأودعك الى الخارج » .

فرد بلدوكي : « لا ، ولا فائدة من اظهار الكياسة معي . فقد اهننتني » .

وتطلع الى العربي وهو يجلس هادئاً في نفس مكانه ، واستنشق نفساً طويلاً وهو برم ، ثم اتجه الى الباب وقال : « وداعاً يا ولدي » . واغلق الباب خلفه . وضاع صوت خطواته في الثلوج المتراكمة ، وكان الجواد يتململ ، على الجانب الآخر من الجدار ، بينما كانت فراخ الدجاج تخفق بأجنحتها خوفاً . وظهر بلدوكي بعد لحظة أمام النافذة وهو يقود الجواد من شكيمته . وسار نحو التلة المرتفعة دون ان يلتفت خلفه ، واختفى عن النظر ، والجواد يتبعه . وسمع صوت حجر كبير ، يتدحرج هابطاً . وخطا دارو نحو السجين الذي لم يرفع نظره دون ان يتحرك عن الناظر . وقال دارو بالعربية : « انتظر ثم مضى الى غرفة النوم . وعندما كانت يمتاز بابها ، جاءت فكرة . فعاد الى المنضدة وتناول المسدس ووضعه في جيبه .

ودون ان يلتفت وراءه ، دخل الغرفة .

واستلقى على أريكتيه مدة من الزمن ، يرقب السماء وهي تغلق نفسها بصورة تدريجية ، ويصفي الى صوت السكون الشامل . وكان هذا السكون نفسه ، هو الذي حزّ في نفسه الألم في الأيام الأولى التي قضاها هنا بعد الحرب . وكان قد طلب وظيفة في البلدة الصغيرة القائمة عند سفح التلال ، التي تفصل بين الهضاب العليا والصحراء . وهناك كانت الاسوار الصخرية سوداء وبخضراء الى الشمال ، وزرقاء فاتحة الى الجنوب تضع حدود الصيف الخالد . وقد عيّن لمنصب يقع في شمال ذلك المكان الذي طلبه ، على الهضبة نفسها . ووجد في بداية الأمر مشقة كبيرة في هذه الوحدة والسكون ، على هذه الاراضي الجرداء ، التي لا تسكنها الا الاحجار . وكثيراً ما تشير الاخاديد الى الاعمال الزراعية ، ولكن هذه الاخاديد المحفورة هنا ، انما استهدفت الكشف عن نوع من الاحجار الصالحة للبناء . والحرائث الوحيدة هنا تستهدف حصاد الصخور . أما في أي مكان آخر فان طبقة رقيقة من التربة تجمع من الاخاديد ، يمكن ان تنشر لتحيل حداثق القرية التافهة الى اراض خصبة . وهكذا كانت الحال ، فالصخور العارية تغطي ثلاثة ارباع المنطقة . وغت المدن وترعرعت ثم اختفت ، وجاء الرجال ، وأحبوا بعضهم بعضاً أو حاربوا بعضهم بعضاً بمرارة ، ثم مضوا وماتوا . وليس لأي انسان في هذه الصحراء ، سواء اكان هو ، او كان ضيفه ، أية قيمة او اهمية . ومع ذلك ، فخارج هذه الصحراء ، لا يستطيع أي منها ، كما يعرف دارو ، ان يعيش حقاً .

وعندما نهض من استلقائه ، لم يسمع صوتاً في غرفة الدراسة . وادهشه ما طرأ عليه من احساس نقي من الفرح ، استخلصه من مجرد التفكير ، بأن العربي قد هرب ، وانه عاد وحيداً ، وليس بحاجة الى اتخاذ أي قرار .

لكن السجين ما زال هناك . وكل ما فعله هو انه استلقى بين المدفئة والنضد . وكان يتطلع بعينه المفتوحتين الى سقف الغرفة . وقد بدت شفتاه الغليظتان ، في هذا الوضع ، بصورة واضحة للغاية ، مكسبتين اياه ، منظر التجهم والعبوس . وقال له دارو : « تعال » . ونهض العربي على قدميه وتبعه . وأشار ناظر المدرسة في غرفة نومه ، الى مقعد قرب المنضدة ، يقوم تحت النافذة . وجلس العربي دون ان يرفع نظره عن دارو .

وقال الناظر - « هل انت جائع » .

فرد السجين - « نعم » .

وأعد دارو المائدة لاثنتين . واخرج قليلا من الدقيق والزيت ، واعد كعكة في المقلادة ، ثم اشعل « البوتاغاز » . وبينما كانت الكعكة على النار ، ذهب الى الكوخ ليحضّر بعض الجبن والبيض والتمر والحليب المكثف . وعندما انهى طهي الكعكة ، وضعها على عتبة النافذة حتى تبرد ، ووضع على النار قليلا من الحليب بعد ان اذابه بالماء ، وخفق البيض ليعده على شكل « عجة » . وبينما كان يتحرك يمنة ويسرة اصابت يده المسدس الذي وضعه في جيبه الأيمن . فوضع القصعة جانبا وذهب الى غرفة الدرس ، حيث اودع المسدس ، درج مكتبه . وعندما عاد الى الغرفة ، كان الليل قد هبط . فأشعل النور ، ثم قدم الطعام الى العربي ، قائلا « كل » . وتناول العربي قطعة من الكعكة ، ورفعها الى فمه ، ثم توقف قبل وصولها . وقال : « وأنت ؟ »

- سأكل ، بعد ان تنتهي ، ايضاً .

وانفجرت الشفتان الغليظتان بعض الشيء . وتردد العربي قليلا . ثم شرع بعض الكعكة ، باصرار .

وعندما انتهت وجبة الطعام ، تطلع العربي الى ناظر المدرسة وقال :
« هل انت القاضي ؟ »

— لا ، وانما اقوم على حراستك الى الغد .

— ولماذا تأكل معي ؟

— لأنني جائع .

وسكت العربي . ونهض دارو من مكانه ، وخرج . وجاء من الكوخ
بسرير مطوي ، نصبه بين المائدة والمدفأة ، وعلى زاوية عمودية مع سريره .
وأخرج من حقيبة كبيرة في زاوية الغرفة ، جعل منها رفاً لأوراقه ،
بطاينتين ، نشرهما على السرير . ثم توقف ، فقد شعر بعدم جدواه ، وجلس
الى سريره . ولم يبق هناك ما يعمل او يعده سوى التطلع الى هذا الرجل .
ونظر اليه ، وحاول ان يتصور هذا الوجه وهو يتفجر بالغضب ، فلم يستطع
ولم يتمكن من رؤية شيء ، الا العينين السوداوين الברاقَتين ، وفم الحيوان .
وسأله بصوت ينم عن العداء بما ادهشه ... لماذا قتلته ؟

وتطلع العربي بعيداً .

— لقد فر وقد ركضت وراءه .

ورفع عينيه الى دارو ، ثانية ، وكانتا مليشتين بالكثير من التساؤل
المكروب ... والآن ، ماذا سيفعلون بي ؟

— هل انت خائف ؟

وتصلبت اعضاؤه ، وأدار رأسه جانباً .

— وهل أنت آسف ؟

وركّز العربي نظاره فيه ، وقد فتح فمه . لا شك في انه لم يفهم .
وازداد قلق دارو واتزعاجه . وأحس في نفس الوقت بشعور وجداني غريب ،

عندما أصبح جسده الكبير محصوراً بين السريرين . وقال لضيفه بفروغ صبر : استلق هناك ، ذاك هو سريرك .

ولم يتحرك العربي ، وانما قال لدارو ... ، قل لي !
وتطلع اليه ناظر المدرسة .

— هل سيمود الدركي غداً ؟

— لا ادري .

— هل ستأتي معنا ؟

— لا ادري . لماذا ؟

ونفض السجين ، وقذف بنفسه على السرير فوق البطانيات ، وقد انجمه بقدميه الى النافذة . وتسلط الضوء المنبعث من المصباح الكهربائي على عينيه مباشرة ، فاغلقها فوراً .

وقال دارو مكرراً ، وهو يقف بجانب السرير — لماذا ؟

وقتح العربي عينيه أمام الضوء الشديد الذي يعشي الأعين وتطلع اليه محاولاً ان لا يغمض له جفن ، وقال ... تعال معنا !

* * *

وحل منتصف الليل ، ولم تكن عين دارو قد اغفت بعد . وكان قد ذهب الى سريره ، بعد ان نزع عن جسده جميع ملابسه ، فقد أُلِف النوم عارياً . ولكنه عندما ادرك ، انه لا يرتدي شيئاً ، تردد . فقد أحس بانه معرض للهجوم والاختحام وراوده احساس بارتداء ملابسه من جديد ، لكنه ما فتى ان هز كتفيه ، فهو على كل حال ليس بالطفل ، وفي وسعه اذا اقتضت الحاجة ، ان يشطر خصمه شطرين . وكان في وسعه ان يراقبه من سريره ، وقد نام على ظهره ، دون حراك ، وقد اغلق عينيه ، أمام ذلك الضوء القاسي . وعندما أطفأ دارو النور ، رأى الظلمة بدأت تتخثر

فجأة . وعاد الظلام شيئاً فشيئاً الى الحياة عبر النافذة ، حيث كانت السماء الخالية من النجوم ، تهتز بنعومة . واستطاع الناظر فوراً تمييز الجسد الملقى عند قدميه وعلى الرغم من ان عينيه كانتا مفتوحتين ، الا ان العربي ظل بلا حراك . وهبت ريح خافتة تطوف حول بناء المدرسة . وخيل لدارو ان هذه الريح ستطرد الغيوم وتعود الشمس الى الظهور والاشراق .

واشتد هبوب الريح ، اثناء الليل . ورفرفت الدجاجات بعض الوقت ثم هدأت . واستدار العربي على جانبه معطياً ظهره لدارو الذي خيل اليه انه يسمعه وهو يئن . وانصت الى صوت تنفس ضيفه ، فراه ينتظم ، ويثقل . واصفى الى ذلك التنفس قريباً منه ، وناه في بحر من التأملات دون ان يستطيع النوم . واقلقه ان يكون هذا الشخص موجوداً معه ، في هذه الغرفة حيث كان ينام وحيداً منذ نحو من سنة . ولكن اكثر ما اقلقه ، ان هذا الوجود فرض عليه نوعاً من الأخوة التي يعرفها تمام المعرفة ، ولكنه يرفض قبولها في مثل هذه الظروف القاتمة . فالرجال الذين يشتركون في نفس الغرف سواء اكلوا من الجنود أو من المسجونين ، ينمون عن نوع من التحالف الغريب ، وكأنهم عندما يقذفون بسلاحهم مع ملابسهم قبل النوم ، يتأخون كل ليلة ، متناسين خلافاتهم ، ومتجاهلينها ، في ذلك المجتمع العريق من الاحلام والمتاعب . وهز دارو جسده ، فقد كره هذا النوع من التأملات ، وكان من الضروري ان ينام .

وبعد قليل ، عندما تحرك العربي حركة خفيفة ، كان ناظر المدرسة لا يزال واعياً . وعندما قام السجين بحركة ثانية ، تصلبت عضلات الناظر متأهباً . كان العربي يرفع نفسه ببطء على ذراعيه ، بمثل الحركة التي يقوم بها من يمشي في نومه . وعندما اصبح جالساً في فراشه ، انتظر دون حراك ،

ودون ان يلتفت برأسه الى دارو ، وكأنه ينصت باهتمام زائد . ولم يتحرك دارو ، فقد طاف بخاطره ان المسدس ما زال في درج المكتب . وكان من الافضل ان يعمد الى العمل فوراً . لكنه واصل مراقبة السجين الذي ظل يتحرك حركته الانزلاقية ووضع قدميه على الارض ، ثم انتظر ثانية ، قبل ان يشرع في الوقوف ببطء . وكان دارو على وشك ان يهتف به ، عندما رأى العربي يبدأ سيره بصورة طبيعية هادئة ، ولكنها صامتة بشكل غريب . وكان يتجه الى الباب القائم في طرف الغرفة والمؤدي الى الكوخ . ورفع المزلاج بحرص وعناية ، ثم خرج ، دافعاً الباب وراءه دون ان يغلقه . ولم يتحرك دارو ، وخيل اليه ان العربي يريد الفرار ، وانها فرصة للتخلص منه . ومع ذلك فقد ظل مصغياً باهتمام اليه . ولم يسمع صوت للدجاج وهي تخفق باجنحتها ، وخيل اليه ان الضيف في طريقه الى الهضبة . وسمع صوت خرير مياه خافت ، ولم يستطع ان يعرف كنهه الا عندما رأى العربي ، يقف ثانية في الباب ، ويغلقه بعناية ، ويعود الى فراشه دون ان يحدث صوتاً ، وادار دارو عند ذاك ظهره اليه وراح في سبات عميق . ومع ذلك فقد ظل يسمع ، في اعماق سباته ، خطوات مختلسة ، تدور حول بناء المدرسة . وقال لنفسه « لا شك انني احلم ، لا شك انني احلم » ، ثم مضى يستأنف نومه . وعندما استيقظ ، كانت السماء صافية ، وتسلك من النافذة المفتوحة نسيم عليل بارد . ورأى العربي ما زال نائماً في فراشه ، وقد تكوّم تحت البطانيات ، وفتح فمه ، واسترخى كل استرخاء . وعندما هزّه دارو ليوقظه ، فتح عينيه ، والخوف يسيطر عليه ، وتطلع بهما الى دارو ، وفي نظرته وحشية واستغراب ، وكأنه يراه للمرة الأولى ، وبدا الخوف جلياً على ملامحه ، مما حمل ناظر المدرسة على التراجع قائلاً : « لا تخف . انه انا . عليك ان تستيقظ لتأكل » . واحنى العربي رأسه مجيباً بالقبول .

وعاد الهدوء الى وجهه ، ولكن تعبيره كان لا يزال خالياً من كل اكتراث أو اهتمام .

وكان دارو قد اعد القهوة . وجلسا معاً على السرير يحسبانها ، ويقضان قطعاً من الكعكة . ثم قاده دارو من يده الى الكوخ حيث ارشده الى المكان الذي يغتسل فيه . وعاد دارو الى غرفته حيث طوى البطانيات والفراش ورتب سريره ، واعاد تنظيم الغرفة . واجتاز بعد ذلك غرفة الدرس الى الشرفة . وكانت الشمس قد تعالت في كبد السماء الزرقاء ، وغمر الهضبة المهجورة ضوء ناعم مشرق . وبدأ الثلج في الذوبان على الرابية ، في نقاط متعددة . واوشكت الحجارة على الظهور ، بعد ان ظلت مختفية تحت الثلج . وتطلع الناظر الى المدى المهجور ، رابضاً عند طرف الهضبة ، فعادت به الذاكرة الى بلدوكي . لقد اساء اليه ، وطرده وكأنه لا يريد ان يتعامل معه أو يرتبط به . انه ما زال يسمع الدركي وهو يودعه ، وأحس دون ان يدري ، بشعور غريب من الخواء ، والتعرض للاقتحام والهجوم ، وسمع في تلك اللحظة سعال السجين من الطرف الثاني لبناء المدرسة ، وأصغى دارو لسعاله رغماً عنه ، وقذف وهو تأثير حصوة ، احدث انطلاقها ازيزاً في الهواء ، قبل ان تفرق في الثلج . وكان يشعر بالثورة على جريمة ذلك الرجل البليدة ، ولكن تسليمه أمر يخالف الشرف . وكان مجرد التفكير في ذلك يبعث في نفسه شعوراً من الاذلال . وبدأ يشتم في نفس اللحظة جماعته ، الذين بعثوا بهذا العربي اليه ، كما شتم العربي ايضاً لانه اجترأ على القتل ، ولم يتمكن من الهرب . ونهض دارو من مكانه ومشى بصورة دائرية في الشرفة ، ثم انتظر قليلاً دون حراك ، قبل ان يعود الى بناء المدرسة .

ورأى العربي متكئاً على ارض الكوخ الممددة من الاسمنت ، وهو يفسل

اسنانه باصبعيه . وتطلع اليه دارو وقال : « تعال » . وعاد الى الغرفة يتبعه السجين . وارتدى سترة صيد فوق صدره ، كما انتعل حذاء للشي ، وانتظر واقفاً ، العربي وهو يرتدي لبدته على رأسه ، ونعليه في رجليه . ومضيا بعد ذلك الى غرفة الدرس ، وأشار الناظر الى الباب قائلاً : « اذهب » ولكن الرجل لم يتحرك . وقال دارو « سآتي معك » . وخرج العربي . وعاد دارو الى الغرفة واعد ربطة تضمنت قطعاً من الخبز الجاف والتمر ، والسكر . وتردد لحظة واحدة في غرفة الدرس قبل ان يخرج ، أمام مكتبه ، ثم اجتاز العتبة ، واغلق الباب ، وقال : « هذه هي الطريق » . واتجه شرقاً ، يتبعه السجين . وخيل اليه بعد ان قطع شوطاً قصيراً من المدرسة ، انه سمع صوتاً خافتاً وراءهما . ففكر راجعاً على عقبه ، وأخذ يفتش المنطقة المحيطة بالمدرسة ، فلم يجد احداً ، بينما كان العربي يرقبه دون ان يبدو عليه الفهم . وقال دارو من جديد : « هيا بنا » .

ومشياً نحواً من ساعة ، واستراحا قرب قمة مدببة من الصخور الصوانية . وبدأ الثلج يذوب بسرعة اكثر فاكثر ، وأخذت الشمس تشرب من مياه البرك المتجمعة من ذوبان الثلوج ، منظفة بسرعة ارض الهضبة التي جفت بصورة تدريجية وأخذت تهتز وترتجف كاهتزاز الهواء نفسه . وأخذت الأرض ترن تحت اقدامها عندما استأنفا السير . وكان أحد الطيور ، يخترق الفضاء بين آونة وأخرى ، أمامها ، مزقزقاً فرحاً وشرع دارو يعب هواء الصباح العليل ، بلاء رثتيه . وأحس بنشوة غامرة أمام المدى الفسيح المألوف لديه ، الذي اكتسى الآن صفرة كاملة تحت قبة السماء الزرقاء . ومشياً ساعة اخرى ، هابطين باتجاه الجنوب . ووصلا ارضاً مستوية مؤلفة من صخور متفتتة . وبدأت الهضبة من هناك تنحدر نزولاً ، نحو الشرق ،

الى سهل منخفض، تقوم فيه بعض الاشجار الرقيقة العالية، ونحو الجنوب باتجاه
نتوءات صخرية ، تكسب المنظر الارضي ، طابع الفوضى .

وفحص دارو الاتجاهين . ولم يبد فيها إلا السماء متصلة بالافق ، فلا
حركة ولا انسان فيها . والتفت الى العربي ، الذي كان يتطلع اليه
بسذاجة . ومد دارو يده اليه بالربطة التي يحملها وقال : « خذها ، فيها
تمر وخبز وسكر . وستكفيك يومين اثنين ، وخذ هذه الالف « من
الفرنكات ايضاً » . وتناول العربي الربطة والمال ، ولكنه احتفظ بجماع
يديه عند صدره وكأنه لا يدري ماذا يفعل بالاشياء التي تناولها . وقال
ناظر المدرسة وهو يشير باتجاه الشرق : « والآن ، انظر ، فهذه هي الطريق
الى تنغويت ، وفي سمك ان تصلها بعد ساعتين . وستجد في تنغويت
الادارة ورجال الشرطة في انتظارك » . وتطلع العربي باتجاه الشرق ، وهو
ما زال يحمل الربطة والمال ، على صدره . وأمسك دارو بكوعه ، وأداره
بجشونة نحو الجنوب . وتراءت امامهما في سفح المرتفع الذي كانا يقفان عليه ،
طريق ضيقة . وقال دارو « وهذه الطريق ، تجتاز الهضبة ، فاذا واصلت
السير فيها يوماً كاملاً ، وصلت الى المراعي ، وقابلت اول القبائل الرحل .
وسيرحبون بك ، ويأخذونك في ضيافتهم طبقاً لشرعتهم » . والتفت
العربي في هذه اللحظة الى دارو ، وبانت في تقاطيعه تعبيرات واضحة من
الخوف والفرح . وقال « اسمع » . ولكن دارو هز رأسه وقال : « لا ،
اصمت . انني سأتركك الآن » . وادار له ظهره وخطا خطوتين واسعتين
باتجاه المدرسة ثم التفت الى العربي متردداً لحظة واحدة بعد أن رآه جامداً
في مكانه ، واستأنف سيره . وانقضت بضع دقائق لم يسمع فيها إلا وقع
خطاه على الارض الباردة ، ولم يلتفت ورائه . ولكنه بعد لحظة استدرا
ليتطلع الى العربي فرآه لا يزال واقفاً عند طرف التل ، وقد تدلت يداه ،

وهو ينظر الى ناظر المدرسة . وأحس دارو بشيء في حلقه . ولكنه شتم
مغرباً عن فروغ صبره ، ولوَّح بيده ومضى ثانية في سيره . وقطع مسافة
طويلة قبل ان يتوقف ثانية لينظر خلفه . ولم يجد هذه المرة احداً
على التل .

وتردد دارو . وكانت الشمس قد ارتفعت عالية في السماء ، وأخذت تقرع
بشدة ، شعر رأسه . ورجع الناظر القهقري متردداً في البداية ، ثم حازماً
امره ، بعد قليل . وعندما وصل التل الصغير ، كان يسبح في بحر من
العرق . وصعد التل بأسرع ما امكنه ، ووقف على قمته لاهثاً يلتقط
انفاسه . وكانت حقول الصخور في الجنوب تقف صامدة امام السماء الزرقاء ،
بينما ارتفعت في السهل الممتد الى الشرق ، حرارة تبعث البخار في كل مكان .
ورأى دارو ، في ذلك اللألاء من وهج الشمس ، بقلب افعمه الاسى العربي وهو
يسير بخطو بطيء في طريقه الى السجن .

وبعد قليل ، وقف الناظر أمام نافذته في غرفة الدرس ، يرقب الضوء
الساطع ، وهو يغمر سطح الهضبة كلها ، فلم يستطع تمييز هذا الضوء رغم
شدة اشراقه . وظهرت على اللوح الاسود وراءه ، بين انهار فرنسا الكلمات
التالية وقد كتبت بالطباشير : « لقد سلمت أخاً لنا . وستدفع ثمن ذلك
غالياً » . وتطلع دارو الى السماء والى الهضبة ، والى ما وراءها من اراض لا
يحدّها النظر تمتد بعيداً الى البحر . وشعر بوحده في هذا المنظر الطبيعي
الذي طالما أحبه .



الفنان يعمل ...

« خذوني ، واقدفوا بي الى البحر ... فانا
اعرف ان هذه العاصفة الهائلة تهب عليكم بسبي .
يونان . الاصحاب الأول .

آمن جيلبرت يوناس ، الرسام ، بطالعه . ومن الحق ان يقال ، انه لم يؤمن بشيء آخر ، على الرغم من احساسه بالاحترام ، وحق بنوع من الاعجاب بما يدين به الآخرون . لكن عقيدته ، على كل حال ، لم تكن لتفتقر الى الفضائل ، اذ انها تتلخص ، في الاعتراف اعترافاً غامضاً ، بأنه سيحصل على الكثير مع انه لا يستحق شيئاً . وكنتيجة لذلك ، فعندما اختلف عدد كبير من النقاد ، فجأة ، وكان هو في الخامسة والثلاثين آنذاك ، في الشخص الذي يرجع اليه الفضل في اكتشاف مواهب الفنان ، لم يبد جيلبرت اية دهشة ، لكن رصانته ، التي يعزوها البعض الى الغرور والكبرياء ، نجمت ، على النقيض ، عن التواضع الواثق المطمئن . فقد عزا يوناس كل شيء الى طالعه ، لا الى مواهبه وكفاءاته .

وقد دهش الى حد ما ، عندما عرض عليه ، أحد تجار الصور ، راتباً شهرياً يحرره من كل هم ، وقلق . و اشار المهندس المعماري رايتو الى يوناس الذي كان يحبه كما يحب طالعه ، منذ ايامها المشتركة في المدرسة ، بان هذا الراتب ، لا يكاد يفي بمستلزمات الحياة البسيطة العادية ، وان التاجر ، لا

يجاوز بشيء في عرضه . لكن يونس ارتضى بالعرض قائلاً : « سأقبل به مهما كان » . لكن رايتو الذي نجح بفضل عمله المجد الكادح ، في كل ما أقدم عليه ، انب صديقه على قناعته قائلاً « ماذا تعني بأنك ستقبل به مهما كان ؟ عليك ان تسام . لكن تأنيبه لم يحد . واتجه يونس الى فؤاده ، الى طالعه ، بالشكر والحمد ، وقال للتاجر : حسناً ، كما تريد ، . ثم تخلى عن وظيفته في دار النشر التي يملكها ابوه ليتفرغ بكليته للرسم قائلاً لنفسه : « يا له من حظ حسن » .

وفي الحقيقة فقد فكر بأنه نفس الحظ الحسن القديم ، فهو عندما يعود بذكرياته القديمة الى الوراء ، يحد نفس الحظ الحسن عاملاً مجدياً . فهو يشعر مثلاً ، بالاعتراف بالجميل المشوب بالحب والحنان لوالديه ، لانها اولاً ، انشأه نشأة لا عناية فيها ولا اهتمام ، مما اطلق العنان ، للاحلامه وخيالاته ، وثانياً لانها قد افترقا ، بسبب اتهامات اخلاقية تتعلق برذيلة الزنا . على كل حال ، كانت هذه هي المحجة التي تذرع بها والده ، الذي نسي ان يحدد التهمة ، بأنها جريمة زنا من نوع غريب . فهو لم يستطع احتمال ما تقوم به زوجته من اعمال الخير ، اذ انها كقديسة صادقة ، كانت قد وهبت نفسها جسداً وروحاً ، دون ان ترى في ذلك ، أي خطأ او إثم ، الى الانسانية المعذبة . لكن الزوج اراد ان يكون سيداً لفضائل زوجته ، ولسان حاله يقول كما قال عطيل من قبل : « لقد تعبت ومرضت من رؤيتي نفسي اشترك فيها مع الفقراء . »

وكان هذا الخلاف مفيداً ليونس ، إذ ان والديه وكنا قد قرأوا او سمعوا بالقضايا العديدة عن القتل ذوي الميول السادية الجنسية ، الذين ينشأون في عائلات دب فيها الطلاق ، كنا يتباريان في حشو رأسه بالفكار لازالة أية لحة من لمح مثل هذا التطور التemis . وكلما كان الجرح الذي تركه طلاقها في

نفسية الطفل أقل وضوحاً ، كلما اشتد قلقها ، لان الدمار يكون أعمق اثرأ .
وكان مجرد قول يونا س ، بأنه مسرور من نفسه أو من يومه ، كافياً لان يحيل
قلق والديه العادي الى فزع خفيف . وزادت عنايتها بالطفل ، الذي لم يعد
ينقصه شيء .

وادت مصيبتة المزعومة اخيراً ، الى ان يكسب اخأ ودوداً في شخص
صديقه راتيو . وكان والدا راتيو يحتفیان بزميل ولدهما الصغير ، لأنها
يشفقان على حالته التعيسة . وأوحت ملاحظاتها العطوفة الى ولدهما
الرياضي والقوي البنية ، بالرغبة في ان يشمل بحمايته الطفل الذي أخذ يعجب
بنجاحه اللامبالي . وامتزج الاعجاب بالوداعة ليخلق نوعاً من الصداقة التي
تقبلها يونا س كما تقبل كل شيء آخر ببساطة مشجعة .

وعندما انهى يونا س ، دون أي مجهود خاص ، دراساته الشكلية ، اتاح له
حظه ، من جديد ، ان يجد عملاً في دار النشر التي يملكها والده ، ومتنفساً
لفنه كرسام . وكان والده بوصفه اكبر ناشر في فرنسا ، يعتقد ان الكتب ،
نتيجة غوصها في ميادين الثقافة ، تمثل المستقبل . وكثيراً ما يقول : « يظهر
التاريخ ، انه كلما قلت قراءة الناس ، كلما ازداد عدد الكتب التي يبتاعونها »
وقلما كان يقرأ تبعاً لذلك ، نسخ الكتب الخطية التي تعرض عليه ، بل يقرر
نشرها على أساس شخصية المؤلف ، او جاذبية موضوع الكتاب ، وكانت
المواضيع الجنسية في رأيه أكثر الكتب استهواء أو جاذبية للقراء ، ولا سيما
اذا مضت الى التخصص ، وكان يقضي وقته في قراءة المسودات النهائية
لمطبوعاته ، أو في البحث عن الاعلانات المجانية . وعندما تولى يونا س دائرة
قراءة المخطوطات ، توفر له وقت فراغ طويل ، فتحتم عليه ان يملأه بشيء ما ،
وهكذا تعرف على الرسم .

واكتشف في نفسه لأول مرة ، حماساً غير منتظر ، لا يكل أو يتعب ، فكرّس أيامه للرسم ، ودون ان يبذل مجهوداً كبيراً تفوق في هذا التمرين الجديد . ولم يستأثر باهتمامه أي شيء آخر ، وكان عاجزاً تقريباً عن الزواج في الوقت المناسب لان الرسم ، استنفد جميع اوقاته . واحتفظ للناس ولظروف الحياة العادية ، ببسمة لطيفة انقذته من اظهار مبتهى العناية بهم . واقتضاه الوقوع في الحب ان يتعرض لحادث دراجة نارية ، فقد كان يستقل المقعد الخلفي وراء صديقه رايتو الذي سار بسرعة فائقة ، عندما وقع الحادث ، واضطر الى ربط يده اليمنى وبالتالي الى الوقوع في الحب . وكان ميالاً من جديد الى ان يرى في هذا الحادث الخطير عناية طيبة من طالعه الحسن ، اذ لولا وقوعه لما توفر له الوقت ليرى لويز بولين بالشكل الذي تستحقه .

ومن الجدير بنا ان نضيف هنا ، ان لويز ، لم تكن في رأي رايتو ، تستحق ان يتطلع اليها انسان . فقد كان رايتو قصيراً وقوياً ، وكان يحب من النساء الطويلات ، الفارعات العود . وكثيراً ما قال لصديقه « لا أدري ماذا تجد في هذه الحشرة » . وكانت لويز في الحقيقة صغيرة وسمراء البشرة والعينين ، مع جسم ممتلئ ووجه جميل . اما يوناك الطويل ، والجذاب ، فقد استهوته هذه الحشرة ، ولا سيما وانها من النوع المجدّ الفعال ، اذ ان فنّها يقوم في نشاطها وحيويتها . وكان هذا الفن يتفق مع ميول يوناك الى الاستمرار ، مع ما فيه من فوائد . وقد كرست لويز نفسها في البداية للادب ، الى المدى الذي فكرت فيه بان النشر يستهوي يوناك . وكانت تقرأ كل شيء ، دون نظام ، وتمكنت بعد بضعة اسابيع من ان تتحدث في كل موضوع . واعجب يوناك بها ، واعتبر نفسه في منجاة من القراءة ، لان لويز ، كانت تنقل اليه ما فيه الكفاية وتطلعه على جوهر الاكتشافات

العصرية . وطالما سمعها تقول له « عليك ان لا تصف هذا الشيء بالقبح أو البشاعة » بل تكتفي بمجرد القول انه يبدو قبيحاً او بشعاً . وكان الفرق مهماً ، وقد يؤدي ، كما كان راتيو يشير ، الى ادانة الجنس البشري . لكن لويز ، قطعت في الموضوع ، مرة والى الابد ، بقولها ان هذه الحقيقة تؤيدها الصحافة العاطفية والمجلات الفلسفية ، ولذا فهي حقيقة عالمية ، ولا يمكن النقاش والجدل فيها . وقد رد يوناث قائلاً : « كما تريدن » وقد تناسى فوراً ذلك الاكتشاف الفظيع لاحلامه ، بواسطة طالعهِ .

وهجرت لويز الادب ، عندما ادركت ان اهتمام يوناث اصبح محصوراً بالرسم . وكرست نفسها فوراً ، للفنون النظرية ، فأخذت تزور المتاحف والمعارض ، وتجري يوناث اليها ، مع انه لم يكن يفهم مطلقاً ماذا يرسم معاصروه ، وكان يشعر بالارتباك من سذاجته الفنية . ومع ذلك فقد سر كثيراً ، ليطلع على كل شيء ، يتعلق بفنه . واذا اردنا الحق ، فقد كان ينسى في اليوم التالي اسم الرسام ، الذي رأى صورهِ في اليوم الاول . لكن لويز كانت على حق ، عندما كانت تذكرهُ ، بصورة قطعية ، باحدى الحقائق التي حفظتها اثناء فترة قراءاتها الادبية ، وهي ان الانسان في الحقيقة لا ينسى شيئاً . وقد حرصه حسن طالعهِ بصورة أكيدة ، فمكنه دون ان يشعر بأي ألم في ضميره من ان يجمع بين حقائق التذكر ، ومباهج النسيان .

وبدأت كنوز التضحيات بالذات التي كانت لويز تغدقها عليه ، بصورة مشرقة في حياته اليومية . فقد وفرت عليه هذه الملاك شراء احذيته وملابسه وقمصانه ، وهي أمور تقصر بالنسبة للرجل العادي أجل حياته القصيرة جداً . وأخذت على عاتقها باصرار ، ألوف الاختراعات في آلة قتل الوقت . من تزويده بالبحوث القصيرة السحرية عن الضمان الاجتماعي ، الى الاوضاع الدائمة التغير ، من مكاتب ضريبة الدخل المحلية ، اذ كانت تقوم

عنه بدفع ضربته ورسوم بوليصة التأمين على الحياة . وعلق راتيو على ذلك بقوله : « حسناً ، ولكنها لا تستطيع ان تذهب الى طبيب الاسنان بدلاً عنك » . وقد لا تذهب الى الطبيب ولكنها تهتف له ، وترتب له مواعيده ، في أحسن الساعات مناسبة له ، وكانت تهتم بتبديل الزيت في سيارته الصغيرة ، وفي حجز الغرف في الفنادق اثناء العطل ، وبتأمين الفحم لمدفاته ، وكانت تبتاع له الهدايا التي يريد تقديمها ، وتختار له الزهور التي يريد ارسالها ، وتجدد الوقت الكافي في امسيات معينة ، لزيارة بيته في غيابه ، واعداد فراشه للنوم ، حتى توفر عليه مشقة القيام بهذا العمل ، عندما يعود .

وبنفس هذا الحماس ، طبعاً ، دخلت ذلك الفراش ، واهتمت بالموعد مع رئيس البلدية ، وأخذت بيد يوناك الى قاعة البلدية قبل سنتين ، من الاعتراف بموهبته كرسام ، حيث تزوجا ثم سافرا لقضاء شهر العسل ، بعد ان رقت الأمور ، بشكل ، يضمن لهما عدم اضاءة اي معرض من المعارض . وعثرت بعد جهد ، رغم ازمة المساكن على شقة مؤلفة من ثلاث غرف ، حيث اقاما بعد عودتها . وولدت له ، على التعاقب وبسرعة كبيرة ، طفلين ، ذكراً وانثى . وحققت عزمها في الحصول على الطفل الثالث ، بعد مغادرة يوناك فوراً لدار النشر ، ليكرس نفسه للرسم .

ومن الجدير ان يضاف هنا ، ان لويك بعد ان اصبحت أمّاً ، حكرست نفسها بصورة كلية لطفلها ثم لاطفالها . وكانت تحاول ان تساعد زوجها ، ولكن الوقت لم يتوفر لها . وكانت بالتأكيد ، تأسف كل الاسف ، لاهمالها يوناك ، لكن طبيعتها ، الصلبة الارادة لم تمكنها من إضاعة الوقت في مثل هذا الاسف . وكثيراً ما كانت تقول لنفسها : « ليس بوسمي ان اعمل شيئاً ، فلكل منا منضدة شغله » . وقد فرح يوناك على كل حال بهذا

التعبير ، اذ انه كغيره من فناني عصره ، كان يود ان ينظر اليه كصاحب حرفة يدوية . وهكذا اصبح صاحب الحرفة مهلاً ، وتحتم عليه ان يبتاع احديثه بنفسه . ومع ذلك ، وبالإضافة الى ان هذه الحقيقة تتفق مع طبيعة الأمور ، مال يوناث من جديد الى الرضى والقناعة . وبالطبع ، كان عليه ان يبذل جهداً في زيارة الحوانيت ، ولكن هذا الجهد كان يجزى بساعة من ساعات الوحدة ، التي تعطي النعمة الزوجية قيمتها .

واصبحت مشكلة مجال الحياة مع ذلك اعظم مشاكلها ، اذ ان الزمن والمجال اخذا يتقلصان معاً حولهما . فجيء الاطفال ، ومهنة يوناث الجديدة ، ومسكنها المحدود ، وراتبه الشهري المتواضع الذي يحول بينهما وبين الانتقال الى شقة اكبر ، لم تترك مجالاً كبيراً للنشاط لويث ويوناث المزدوج . وتقوم الشقة في الطبقة الثانية من مسكن كان خاصاً في القرن الثامن عشر ، من القسم القديم من العاصمة . ويعيش في هذا الحي عدد من الفنانين اوفياء للسبدأ القائل ان اللحاق بالجديد في الفن يمكن ان يتم فقط في اطار قديم . وكان يوناث يؤمن بهذا الرأي ، ولذا فقد كان مسروراً بالعيش في ذلك الحي .

ولم يكن ثمة مجال للتفكير ، بقدم الشقة ، لكن بعض الترتيبات العصرية جداً التي ادخلت عليها قد اضفت عليها مظهراً ابتكارياً ناجحاً ، بصورة رئيسية ، عن الحقيقة ، بأنها تؤمن حجماً كبيراً من الهواء . بينما لا تشغل الا مساحة محدودة من سطح الارض . وكانت الغرف عالية بصورة بارزة ، وقد نعمت بنوافذ مرتفعة رائعة ، وكان القصد منها كما يستطيع الانسان ان يحكم من ابعادها الفخمة ، ان تكون قاعات للحفلات والاستقبالات . لكن ضرورات الازدحام في المدن ، والحصول على الدخل من امتلاك المساكن ، قد ارغمت اصحاب هذا البيت المتعاقبين ، على تقسيم

هذه الغرف الفسيحة الضخمة ، بقواطع وحواجز ، فيضاعف بذلك عدد الحظائر التي يؤجرونها بمبالغ ضخمة ، الى قطمان المستأجرين . ومع ذلك ، فكانوا يطردون دائماً ما يسمونه « بالحجم المكعب » . وليس في وسع احد ان ينكر الفائدة ، ومن الممكن ان تعزى الى استحالة تقسيم الغرف افقياً ايضاً ، والا لوجدنا اصحاب الاملاك ، لا يترددون لحظة واحدة في اجراء التضحيات اللازمة لايحاد عدد آخر من المآوي للجيل الصاعد ، لا سيما وان هذا الجيل كان ميالاً في تلك اللحظة الى التزاوج والتوالد . يضاف الى هذا ان الحجم المكعب للغرف لم يكن دائماً مفيداً ، اذ يحمل من الصعب تدفئتها في الشتاء ، مما يحمل اصحاب الاملاك ، على زيادة الاجر الاضافي الذي يتقاضونه مقابل التدفئة . أما في الصيف ، فبالنسبة الى مساحة النوافذ الكبيرة ، والى عدم وجود ستائر خشبية عليها . كانت الشقق دائماً مغمورة بالضياء . وقد اعمل اصحاب الاملاك وضع هذه الستائر ، اذ أثبط عزائمهم حتماً ارتفاع النوافذ . وارتفاع تكاليف اعمال النجارة . وفي وسع المستأجرين ان يضعوا عليها ستائر قماشية كثيفة ، تؤدي الى نفس النتيجة ، ولا تسبب مشكلة لاصحاب الاملاك من ناحية التكاليف ، لأن مسؤوليتها تقع على المستأجرين . وكان الملاكون على استعداد لمساعدتهم ، بتأمين الستائر لهم من مستودعاتهم باسعار التكاليف . فالاحسان وعمل الخير في تأجير البيوت وتأثيثها كانا من مهمتهم ، اذ ان العمل اليومي المنظم لهؤلاء الامراء الجدد كان بيع المنسوجات القطنية والحملية .

وكان يوناس قد ذهب في نشوة من ترداد محاسن هذه الشقة ، وقبل عيوبها دون اية صعوبة ، وقال لصاحب الملك ، « كما تريد » رداً على مطالبه بصدد الاجرة الاضافية على الحرارة . واما بصدد الشتاء ، فقد اتفق مع لويز ، على انه يكفي تزويد غرفة النوم بالستائر وترك الغرف الاخرى عارية . وقال

صاحب ذلك القلب النقي الصافي : « ليس لدينا ما نخفيه » وقد ذهل يوناس بصورة خاصة من الغرفة الكبرى ، التي كان سقفها مرتفعاً الى الغاية ، بحيث لم يكن هناك أي مجال للسؤال عن وضع جهاز خاص للاضاءة فيها . وكان المدخل الخارجي ، يؤدي فوراً الى تلك الغرفة ، التي تتصل بالغرفتين الاخرين بواسطة قاعة ضيقة ، وهما غرفتان تقعان في صف واحد ، وتقلان عن الاولى كثيراً بالاتساع . ويقع المطبخ في نهاية القاعة ، وكذلك ، بيت الحلاء ، وزاوية صغيرة يطلق عليها مجازاً اسم غرفة المسحاح او «الدوش» . وكان من الممكن ان يكون « دوشاً » لو ان الجهاز قد وضع افقياً بلا ريب ، وكان المقيم في البيت راغباً في ان يقف بلا حراك تحت الرشاش .

وأدى ارتفاع السقوف الذي لا نظير له مع ضيق الغرف الى جعل الشقة تنسيقاً غريباً بالشكل المعين السداسي للسطوح ، والمغطى بالزجاج من كل ناحية ، بالابواب والنوافذ ، بحيث لا يبقى مجال في الجدار ، لوضع أي قطعة من قطع الاثاث ، ويبدو البشر من داخله يسبحون ، وكأنهم عفاريت من الزجاج ، داخل حوض عمودي . وكانت جميع النوافذ تطل على ساحة أو على نوافذ اخرى من نفس الطراز عبر الشارع ، يستطيع الانسان ان يرى وراءها ، نوافذ اخرى تطل على باحة ثانية من الجانب الآخر . وقال يوناس معرباً عن فرحه الزائد : « انها قاعة المرايا » وتقرر بناء على نصيحة رايتو ، تخصيص احدى الغرفتين الصغيرتين لنوم الفنان على ان تكون الأخرى للطفل المنتظر . أما الغرفة الكبيرة فتقوم بعمل المرسم ليوناس في النهار ، وغرفة الجلوس في الامسيات . وغرفة المائدة في اوقات الطعام . وكان في وسعها ان يتناولوا وجباتها بسرعة في المطبخ ، شريطة ان يظل احدهما واقفاً ، اما رايتو ، فقد اشغل نفسه في ابتكارات عبقرية . وتمكن بواسطة الابواب المنزلقة ، والرفوف المتحركة ، والمناضد التي تفتح وتطوى ان يؤمن لها الاستغناء عن

وفرة الاثاث ، وان يظهر تلك الشقة الغريبة ، بمظهر لعبة الاطفال .

ولكن عندما امتلأت الغرف بالصور والاطفال تحتم عليها ان يقوموا بترتيب جديد . وكان يوناى قبل ولادة الطفل الثالث يشتغل في الغرفة الكبيرة ، بينما كانت لويى تطرز في غرفة نومها ، والطفلان ، يحتلان الغرفة الاخيرة ويشيران فيها الكثير من الجلبة والضوضاء ويكبوان ويتعثران كيفما يشاءان في بقية اجزاء الشقة . واتفقا على ان يضعا الطفل الجديد في زاوية من زوايا المرسوم ، بعد ان احاطها يوناى بلوحاته فقدت وكأنها ستار يفصل تلك الزاوية عن بقية اجزاء الغرفة . وكان لهذا الترتيب ميزة وضع الطفل على مسمع من احدهما ، لتلبية ندائه فوراً . ولم يكن يوناى في حاجة الى ازعاج نفسه ، لأن لويى كانت تحتكر الطفل . ولم تكن تنتظر بكاء الطفل حتى تلج باب المرسوم ، بل كانت تدخله دائماً بكل حذر وعناية ، وعلى رؤوس اصابعها دائماً . وقد تأثر يوناى مرة من هذا الذوق المرهف ، واكد للويى ذات يوم ، انه ليس حساساً الى ذلك الحد ، وان بوسعه مواصلة العمل . رغم صوت خطاها . وردت لويى ، بانها تستهدف بهذا الحرص ، شيئاً آخر ، وهو عدم ازعاج الصبي او ايقاظه من النوم . وامتلاً فؤاد يوناى اعجاباً ، باعجاز حب الأمومة ، وقهقهه يجماع فؤاده من سوء فهمه . وكنتيجة لذلك ، لم يستطع الاعتراف بأن دخول لويى الحريص كان يزعجه كل الازعاج ، بل واكثر من ازعاج أية اغارة عنيفة من الخارج . ويرجع ذلك الى سببين اولهما ان دخول لويى كان يستغرق وقتاً طويلاً ، وثانيهما لانه كان يشبه التمثيل اليمائي ، اذ ان لويى تدخل وقد مدت ذراعيها ، ودفعت بكتفيها الى الوراء ورفعت ساقيها عالية ، بحيث يصعب عليه عدم ملاحظتها . وكانت هذه الطريقة كثيراً ما تؤدي الى عكس ما تقصده ، لأنها في مشيتها ، طالما عثرت بلوحة من اللوحات التي اكتظ بها المرسوم . وكان الصوت الناتج عن

الاصطدام في هذه الحالة يوقظ الطفل ، فيعرب عن عدم رضاه بالطريقة التي يراها ، وبقدرته على البكاء ، وهي قدرة كبيرة . وكان الوالد يفرح بقوة طفله الرئوية ، فيسرع ليهدهده وتأتي زوجته بعد ذلك ، فتنشأ المهمة عنه . ويلتقط يوناك آنذاك لوحته وفرشاته بيده وهو يصفي منتشياً الى صوت ولده المسيطر والمستمر .

وكان هذا الذي ادى الى نجاح يوناك باكتسابه في نفس الوقت عدداً من الاصدقاء . وكان هؤلاء يتصلون بهم هاتفياً أو يأتون لزيارتهم اعتباراً ، ودون سابق ترتيب او موعد . وكان جهاز الهاتف ، قد وضع بعد مشاورات طويلة في المرسى ، وكان رنينه المستمر يزعج نوم الطفل الرضيع ، الذي ينطلق عويله مع رنين الهاتف . واذا حدث وكانت لوز مشغولة مع الطفلين الآخرين ، فقد كانت تجاهد لتصل الى الهاتف معها ، فتجد غالباً يوناك ، وقد امسك بالرضيع في احدى يديه وبفراشي الرسم في اليد الأخرى ، ومعهما جهاز الهاتف ، الذي ينقل اليه دعوة صديقه الى الغداء . وكثيراً ما دهش يوناك من رؤيته أحد الناس راغباً في تناول الغداء معه ، ذلك لأن حديثه كان بليداً جامداً ، وكان يفضل ان يخرج في المساء ، لئلا يقطع عمل يومه . لكن هذا الصديق ، كان في معظم الوقت ولسوء الحظ ، لا يجيد متسعاً من الوقت لدعوته لغير الغداء ، وهذا الغداء بالذات ، ولذا فهو يصبر على اقامته ليوناك العزيز . ويقبل يوناك العزيز الدعوة . بقوله المأثور « كما ترى » . وبعد ان يضع الساعة ، يقول وهو يسلم الطفل الى لوز : « الا ترين انه يذكر اصدقاءه » . ويعود الى العمل ، لينقطع بعد قليل ، لتناول الغداء أو العشاء . وعليه ان يرفع اللوحات من الطريق ، وان يفتح المنضدة الخاصة المعدة لذلك ، وان يجلس مع اطفاله ويواصل يوناك اثناء الطعام التطلع الى الصورة التي كان يرسمها ، وكثيراً ، ما وجد

اولاده ، ولا سيما في البداية ، بطيئين في مضغ الطعام وابتلاعه ، مما يطيل أمد كل وجبة اطالة كبيرة . ولكنه قرأ في صحيفته المفضلة ، ان من الضروري ان يأكل الانسان ببطء ، حتى يتمكن من الهضم ، ولهذا فان كل وجبة كانت تخلق لديه من الاسباب ، ما يحمله على الفرح والسرور .

وكثيراً ما جاء اصدقاءه الجدد في ظروف اخرى لزيارته . اما راتيو ، فلم يزره قط الا بعد العشاء ، فهو يقضي ساعات نهاره في مكتبه ، كما يدرك ان الرسامين يعملون في ساعات النهار . لكن اصدقاء يونس الجدد ، يمتون جميعاً الى فئة من الفنانين ، والنقاد . فبعضهم قد رسم ، والبعض الآخر في طريقه الى الرسم ، اما البقية ، فيهتمون بما رسم أو يرسم . وجميعهم ، بالتأكيد ، يضعون متاعب الفن ، في منزلة محترمة سامية ، ويتذمرون من ان نظام العالم المعاصر ، يضع العراقيل في طريق اعمال اهل الفن ، وفي تمرين الخيال ، وهو أمر لاغنى عنه لكل فنان . وكانوا يقضون جميع اوقات ما بعد الظهيرة ، عنده وهم يتذمرون ، ولكنهم يرجون اليه مواصلة العمل ، وكأنهم ليسوا موجودين ، وان يعاملهم بفروسية ونبل ، اذ انهم ليسوا من السفسطائيين ، ويدركون ما لوقت الفنان من قيمة وأهمية . وكان يونس يسر من صداقة اناس كهؤلاء قادرين على السماح له بمتابعة عمله في حضورهم ، فيعود الى الصورة التي يرسمها ، غير متوقف عن الرد على الاسئلة التي توجه اليه او الضحك ، عندما ترد على مسامعه طرفة أو نكتة .

وكانت هذه البساطة ، تجعل اصدقاءه ، يشعرون بالراحة ، وينسون واجبات الزيارة ، وكانت مغنوياتهم العالية من العراقة والاصالة ، بحيث ينسون ساعات الطعام ، لكن ذاكرة الاطفال اقوى من ذاكرتهم ، فيقتحمون الغرفة ويختلطون بالضيوف فيصرخون ويولولون ، ويداعبهم الزوار ، وينتقلون من حضن الى حضن . واخيراً يخفت الضوء ، في مربع

السماء الذي يخططه المنظر من النافذة ، ويضع يونس فراشيه . ولم يكن هناك مناص من دعوتهم الى مشاطرته الطعام ، ليواصلوا الحديث الى ساعة متأخرة من الليل عن الفن بالطبع ، وبصورة خاصة عن الفنانين غير الموهوبين ، والمنتحلين ، والادعياء ، الذين لا يوجدون هناك حتماً . ويجب يونس اليقظة مبكراً ليفيد من اولى ساعات النهار . وكان يدرك بالطبع مشقة هذا ، وان طعام الفطور لن يكون جاهزاً في الساعات المعينة ، وانه سيتعب نفسه . ولكنه من الناحية الاخرى ، ابتهج بأن يعرف ذات مساء ، كثيراً من الأمور التي برهنت على عونها له ، ولو بصورة غير مرئية في فنه . وكثيراً ما قال : « في الفن ، كما في الطبيعة ، لا يضيع عبثاً أي شيء . وهذا بالطبع ثمرة كوكب السعد » .

وكان ينضم الى الاصدقاء احياناً عدد من الحواريين ، فقد اصبح ليوناس الآن طلابه وتلامذته . وقد دهش في بادئ الأمر من ان يتعلم على يديه أي انسان ، وهو نفسه ما زال في مرحلة الاستكشاف . فشخصية الفنان عنده ، ما زالت تتلمس طريقها في الظلام ، فكيف بوسعه ان يرشد الآخرين الى الطريق السوي؟! ولكنه سرعان ما ادرك ، ان ليس من الضروري ان يكون الحواري انساناً تواقاً الى تعلم أي شيء . اذ على العكس ، وفي احيان كثيرة ، يصبح الانسان حوارياً او تلميذاً ، بدافع الرغبة الخالصة في تعليم استاذه . وهكذا اصبح بوسعه ان يتقبل باذعان مثل هذه التخمّة من التكريم . وشرح له حواريوه مطولاً ، ماذا رسم ، ولماذا رسمه . واكتشف يونس ، في رسومه ، كثيراً من النوايا التي ادهشته ، ومجموعات عديدة من الاشياء التي لم يضعها فيها . وكان يخيل اليه انه انسان فقير ، ولكن الفضل لتلامذته ، فقد وجد نفسه بصورة مفاجئة غنياً ، وكثيراً ما رأى هذه الثروة المفاجئة فأحس بوخز من الكبرياء ، فيقول لنفسه : « ومع ذلك ، فما

يقولونه صحيح . فذلك الوجه في مؤخرة الصورة ، بارز ، ولا يستطيع ان افهم ما يعنونه « بالتهذيب غير المباشر » . ولكنني كما يبدو قطعت شوطاً بعيداً في هذه الناحية ولكنه سرعان ما ينقل هذه المهارة الفنية ، التي لا يربحها الا كوكب سعده فيقول « انه كوكب السعد ، جال في تلك الافاق ، أما انا فأقيم في البيت مع لويز والاطفال » .

وكانت للحواريين ايضاً فائدة اخرى ، فقد ارغوا يوناس على ان يكون اكثر قسوة مع نفسه ، فقد وضعوه في احاديثهم في منزلة عالية ولا سيما بالنسبة الى حاسته الواعية وحيويته ، ولذا ، أصبح أي ضعف منذ مجيئهم حراماً عليه . وهكذا تخلى عن عادته القديمة في قضم قطعة من السكر او الشوكولاته ، عندما ينتهي من رسم جزء صعب في الصورة ، وقبل العودة الى العمل ولو كان وحيداً لكان استسلم بصورة خفية لهذا الضعف لولا وجود حول ربه واصدقائه الدائم الذي ساعد على هذا الاصلاح الروحي الذي يمر فيه ، اذ كان يشعر أمامهم بالخجل من قضم قطعة من الشوكولاته ، لا سيما ولم يكن من اللائق ان يقطع عليهم احاديثهم الممتعة بسبب مثل هذا المزاج الذاتي التافه .

وكان حواريه ، يصرون من الناحية الاخرى على وجوب بقاءه اميناً لجماليته . أما يوناس فقد كان يعمل طويلاً ليحصل بصورة عرضية على لمحة خاطفة من الحقيقة تترامى له في ضوء جديد ، وكانت فكرته غامضة كل الغموض عن جماليته . لكن لحوارييه ، من الناحية الاخرى ، افكاراً متعددة قد تتشابه وقد تتعارض ، وهم ليسوا في وضع يمكنهم من السماح بأية سخرية حول الموضوع . وود يوناس في بعض الاحيان لو اتيح له ان يعود الى نزوات خياله ، وهي الصديقة المتواضعة لكل فنان ، لكن ما يلوح على وجوه تلامذته من العبوس ، عندما يرون بعض الرسوم وقد خرجت على الاراء التي يحملونها ، كانت ترغمه على توسيع تفكيره في فنه . وكان هذا في

مصلحته بالطبع .

وساعد الحواريون يوناس اخيراً ، في ناحية اخرى ، بارغامه على ابداء رأيه في نتائجهم . فلا يمضي يوم واحد ، دون ان يأتي احدهم بصورة خططها ، ويضعها بين يوناس واللوحة التي يرسمها ، ليستفيد من الضوء . وهو ينتظر بالطبع رأي استاذة . وكان يوناس ، حتى تلك اللحظة دائم الحجل بصورة خفية من عجزه الجوهري عن الحكم على عمل فني . وباستثناء قلة من الصور ، كانت تخرجه عن حدود صبره واحتماله ، بسبب ما فيها من عيوب واضحة فجأة ، بدت له جميع الصور الاخرى متساوية في الجمال والتأثير . وقد اضطر في النتيجة ، الى بناء ذخيرة من الاحكام ، كانت تختلف لان تلامذته كغيرهم من فناني العاصمة ، كانت لهم مقاييسهم من الموهبة ، وعندما يجتمعون حوله ، يضطر الى وضع خطوط رائعة من التمييز ليرضيهم جميعاً . وارغمه هذا الواجب السعيد ، على ان يحشد مجموعة من الالفاظ والآراء التي تتعلق بالفن . لكن دماثته الطبيعية لم تكن لتتأثر بهذا المجهود وسرعان ما ادرك ان تلامذته لا يطلبون منه انتقاداته ، التي قد لا يستفيدون منها . وانما يسألونه التشجيع والمديح ان امكن . وتحتم عليه بالطبع ان يستخدم جملاً مختلفة للمديح . ولم يكن يوناس راضياً بأن يعود الى نفسه المقبولة الاخرى . وقد اظهر عبقرية في اتخاذ هذا الموقف .

وهكذا مرت الايام ، ويوناس يرسم صوره بين اصدقائه وطلابه . وقد اقتعدوا مقاعدهم ، في حلقات دائرية حول الحامل الذي يرسم عليه . وكثيراً ما بدا الجيران في النواقد عبر الشارع ، ليزيدوا في عدد جمهوره . أما يوناس ، فهو يتحدث ويناقش ويتبادل الآراء ، ويفحص الرسوم التي تعرض عليه ، ويبتسم للوزن عندما تمر ، ويداعب الاطفال ويرد بحماس على المكالمات

الهاتفية دون ان يتخلى عن الفرشاة في يده التي يعود بها بين الآونة والاخرى الى رسم لم يتم بعد . وهكذا مضت حياته ، مكتظة للغاية ، دون ان يضيع ساعة واحدة منها ، وكان يشكر القدر الذي اتاح له ما يزيل عنه الضجر والملل . وكان اكمل احدى الصور يتطلب منه بعض الوقت ، وكثيراً ما دار بخله ان للفجر منفعة ، وهو ان تجنبه يكون بالعمل الجاد الشاق . وبدأ انتاج يونا س يبطيء كثيراً بنسبة زيادة اهتمامه باحاديث اصدقائه وأخذ يشعر في اللحظات النادرة التي يكون فيها وحيداً ، بالاجهاد والعجز عن العمل . فليجأ في هذه اللحظات الى تخيل نظام جديد يوفق بين مباحج الصداقة وفضائل الفجر .

وطرق هذا الموضوع مع لويز التي بدأت تقلق بصورة مستقلة على الطفلين الكبيرين ، وضيقت الغرفة المخصصة لهما . واقترحت نقلهما الى الغرفة الكبيرة ، على ان يوضع سريرهما وراء ستارة ، وينقل الطفل الرضيع الى الغرفة الصغيرة حيث لا يزعجه رنين الهاتف . ومضت تقول ان في وسعه ان يحيل هذه الغرفة الى مرسوم له ، لان الرضيع لا يحتل الا جزءاً صغيراً منها ، بينما تظل الغرفة الكبيرة مكاناً للاجتماعات اليومية . وفي مكنة يونا س ان ينتقل بين الغرفتين جيئة وذهاباً ليرسم هنا او يتحدث هناك ، ما دام على ثقة من ان اصدقاءه يقدرون حاجته الى الوحدة ، يضاف الى هذا ان ضرورة نوم الطفلين باكرأ ، تحتم على الاصدقاء اختصار زيارتهم في الامسيات ، وفكر يونا س قليلاً في اقتراحها ، ثم قال : « رائع » . ومضت لويز تقول : « يضاف الى هذا ان اصدقاءك اذا ذهبوا مبكرين ، فسيتمكنون لنا الوقت لرى بعضنا » . ونظر اليها يونا س ، فرأى في وجهها تعبيراً عن الحزن الصامت ، فتأثر ، ووضع يديه حول صدرها ، وقبلها ، كأعذب ما تكون القبل . واستسلمت له ، وأحسا لحظة واحدة بالسعادة التي كانا يشعران بها ، في بدء حياتهما

الزوجية . وسرعان ما تخلصت من بين ذراعيه ، وقد تكون الغرفة الجديدة صغيرة بالنسبة ليوناس . وجاءت لويز بمسطرة . وشرعت في قياساتها فوجدت انه بالنظر الى اكتظاظ المكان بلوحاته واصدقائه وطلابه الكثيرين ، فان المساحة التي يشغل فيها ، ليست اوسع من المساحة الجديدة التي تعرضها عليه . وسارع يوناس الى نقل الاثاث تطبيقاً للترتيب الجديد .

ومن حسن حظه ان سمعته كانت تتضخم ، كلما قل انتاجه ، وكان الناس ينتظرون كل معرض من معارضه بفارغ الصبر ، وتكتب عنه مقالات الاجلال والتعظيم قبل افتتاحه . وكان عدد قليل من النقاد ، اذا اردنا التأكيد ، بينهم اثنان من الذين يزورون مرسمه بانتظام ، يخفقون من حرارة عرضهم ، ببعض التحفظات . لكن ثورة تلاميذه كانت تشدد على هذه النازلة البسيطة . وكان هؤلاء ، يؤكدون بكل حزم طبعاً ، انهم يضعون الرسوم التي رسمها في الفترة الاولى فوق كل اعتبار ، لكن التجارب الراهنة توحى بشورة حقيقية وينحي يوناس على نفسه بالملامة ، لما يشعر به من انزعاج طفيف ، في كل مرة يجدون فيها اثره الاولى ، ويوجه اليهم شكره الدافق الجهم . ويتأفف راتيو ، قائلاً : « يا لغرابتهم ... انهم يريدونك جامداً كتمثال . ثم ينكرون عليك حق الحياة كإنسان » . ولكن يوناس يدافع عن حواريه قائلاً : « ليس في وسعك ان تفهم ، لانك تحب كل ما اعمل . » ويضحك راتيو قائلاً : « طبعاً ، انني لا احب صورتك ، بل رسمك » .

ومع ذلك فقد ظلت الصور تلقى النجاح تلو النجاح ، واقترح التاجر ، بعد أحد المعارض الذي استقبل بحماس منقطع النظير ، ان يرفع المرتب الشهري . فقبل يوناس معرباً عن امتنانه ، وعلق التاجر على ذلك بقوله : « ان من يسمع حديثك الآن ، يتصور ان المال يعني لك شيئاً » . وسلبت هذه الطيبة في قلب التاجر من الرسام كل سلاح ، ومع ذلك فعندما

طلب الرسام من التاجر ، الاذن بتقديم احدى لوحاته الى سوق خيري ، اراد التاجر ان يعرف ما اذا كان هذا الاحسان مقابل الثمن . ولم يكن في وسع يوناثان ان يرد على هذا الاستفهام ، فاقترح التاجر تبعاً لذلك ، التمسك بنصوص الاتفاق الذي يمنحه وحده حق بيع لوحاته ، وقال : « ان الاتفاق ، اتفاق ، وهو لا ينص على الاحسان » ، فاذعن الرسام قائلاً جملته المعهودة : « كما ترى » .

وأدى الترتيب الجديد الى قيام قناعة دائمة لدى يوناثان . واصبح في امكانه الآن ، ان يرد بنفسه على الرسائل الكثيرة التي تصله ، والتي تحتم عليه كياسته ان يرد عليها . وكان بعض هذه الرسائل يتناول فن يوناثان ، بينما يتناول البعض الآخر ، وهو الاكثر عدداً رسائل من اشخاص ينشدون التشجيع في عملهم الفني ، أو يحتاجون الى المشورة أو العون المالي . وكلما كثر ظهور اسم يوناثان في الصحف ، كلما نشده الناس ، كما ينشدون غيره من المشهورين ، ليؤدي دوراً عملياً ، في ازالة المظالم المثيرة . وكان يوناثان يزد على هذه الرسائل ، فيكتب عن الفن ، ويشكر الناس ، ويقدم المشورة ، ويستعيز عن شراء ربطة عنق ، بارسال عون مالي ضئيل ، ويوقع اخيراً الاحتجاجات العادلة التي كانت تصله ، طالبة توقيعه . وكثيراً ما قال له راتيو ، دعك من هذه الاحتجاجات التي تقحمك في السياسة ، واتركها للدباء والعجائز من العوانس . لكن يوناثان بصر على توقيع الاحتجاجات التي تحمل أي طابع حزين معين . وكانت معظم هذه الاحتجاجات والبيانات تنشد الاستقلال الجميل الصورة . وفي نهاية كل اسبوع ، كان يوناثان يمضي وقد امتلأت جيوبه بالرسائل ، التي اهل بعضها من الاسابيع السابقة ، فجاءه ما يذكره بها . ويجلس الى مكتبه ، يرد على المستعجل منها ، ومعظمها من اناس مجهولين ، تاركاً لفرصة اخرى

اكثير ملاءمة ، الرد على الرسائل الباقية ، ومعظمها من اصدقائه . وتراكت عليه المسؤوليات حتى انها حرمته من الهذر والثروة ، والاذعان لانطلاق الروح . وأحس دائماً بأنه متأخر عن هذه المسؤوليات ، وانه الملوم على هذا التأخر ، حتى ولو كان يعمل ، كما كان يفعل بين وقت وآخر .

وعبأت لوز جميع قواها لخدمة منزلها واطفالها واجهدت نفسها ، بالقيام بكل شيء ، حتى بالاعمال التي كان باستطاعته في ظروف اعتيادية ان يقوم بها بنفسه في بيته . واثار هذا الوضع الألم في نفسه . فهو على كل حال ، يعمل ما يلذه ويسره ، بينما كانت حصتها من الصفقة اسوأ الحصص . وكان يدرك هذه عندما تذهب الى السوق لشراء حاجياتها ، فيصرخ طفله الاكبر : « الهاتف ، الهاتف » . ويضع يونس الصورة التي كان يعمل فيها ليركض الى الهاتف بعد ان تلقى دعوة لغداء او عشاء ولا يلبث ان يعود الى صورته ، حتى يسمع صوت الطفل الآخر ، وقد فتح الباب « رجل الغاز » الذي يقرأ المقياس ، « فهتف لوالده ، « ها انا قادم » . وعندما يترك يونس الباب أو الهاتف ، ليعود الى غرفته الصغيرة ، يلحق به أحد اصدقائه او تلامذته ، لاستئناف الحديث الذي انقطع . واصبحوا تدريجاً ، من الزائرين المنتظمين للقاعة ، حيث يقفون ، ويتحدثون ، ويسألون يونس رأيه عن كتب ، او يتدققون لفترة صغيرة على الغرفة الصغيرة . ويقول هؤلاء الذين يدخلون : « هنا على الاقل ، يمكن للانسان ان يراك بعض الوقت دون مقاطعة أو تدخل » . وكان هذا القول يعزف على اوتار فؤاده فيقول « معكم الحق ، فليست لدينا الفرصة ليرى الواحد منا الآخر » . وكان يدرك في الوقت نفسه ، ان الألم يحز في قلوب الذين لا يراهم ، وهذا ما احزنه : وكثيراً ما كانوا من الاصدقاء الذين يود ان يلقاهم ، لكن الوقت لا يتوفر لديه ، وليس باستطاعته ان يقبل كل شيء . وكنتيجة لذلك ، فقد لحق الأذى بسمعته ،

واصبحت تجد اناساً يقولون : « آه ، لقد صار متكبراً ، بعد ان نجح . فهو لا يرى اي انسان بعد الآن » ، او آخرين يهيمون « انه لا يجب احداً الا نفسه » . لا . انه يحب لويز ، ويحب اطفاله ، ويحب راتيو ، وعدداً قليلاً من اصدقائه ، كما انه لا يضيق بالجميع ، بل يألفهم . لكن الحياة قصيرة ، والزمن يسابقه ، ولطاقته حدودها . فمن الصعب عليه ان يرسم العالم والناس ، وان يعيش معهم في الوقت نفسه . وهو لا يستطيع أن يشكو او يشرح الأمور التي تقف في طريقه . اذ لو عمل ذلك ، لربت الناس على ظهره قائلين : « ايها السعيد الحظ . هذا هو ثمن الشهرة ! »

وبدأ بريده يتراكم امامه ، والحواريون لا يسمحون له بأي عزلة ، بينما بدأت شخصيات المجتمع تلتف من حوله . ومن الحق ان يقال ان يوناث كان يعجب بهم لاهتمامهم بالرسم ، بينما كان في وسعهم كفيرهم من الناس ، ان يهتموا فقط بالاسرة المالكة البريطانية او بمآدب الطعام . وكان معظم هذه الشخصيات من نساء المجتمع ، اللاتي ينم سلوكهن عن بساطة . فهن لا يبتعن من صور الفنان لانفسهن ، ويقدمن اصدقاءهن اليه ، يحفرهن الأمل الذي لا مبرر له بان يشتري هؤلاء الاصدقاء الرسوم نيابة عنهن . وكن ، من الناحية الاخرى ، يساعدن لويز في تقديم الشاي الى الزائرين . وكانت اقداح الشاي ، تنتقل من يد الى يد ، عبر القاعة ، من المطبخ الى الغرفة الكبيرة ثم تعود ثانية لتجثم في المرسوم الصغير ، حيث يجلس يوناث وسط لفيف من اصدقائه وزائريه يملأون عليه الغرفة ، يمضي في تصويره حتى يضطر الى القاء فرشاته ليتناول مع الشكر القدح الذي صبته ، خصيصاً له ، سيدة رائعة جميلة .

ويحتسي يوناث شايه ، ويتطلع الى رسم وضعه احد تلامذته أمامه على الحاملة ، ويضحك مع اصدقائه ، ويقطع ضحكته ، ليطلب الى احدهم ،

ان يحمل رزمة الرسائل التي كتبها في الليل الى دائرة البريد ، ثم يلتقط طفله الثاني الذي تعثر على قدمه ، ثم يقف ليلتقط له احد المعجبين صورة فوتوغرافية ، واذا بصوت يتعالى من الغرفة الكبيرة : « الهاتف ، يا يونا » ، فيحمل قدح الشاي في الهواء ملوحاً به ، ويشق طريقه عبر الحشد الضخم من اصدقائه الواقفين في القاعة ، معتذراً لهذا أو ذاك ، لانه قد صدمه ، ثم يعود ، ويحمل فرشاته ، فيملأ الفراغ في زاوية من الصورة التي يرسمها ، ثم يتوقف ليرد على سيدة جذابة ، معرباً عن سعادته بأن يرسم لها صورتها ، ثم يعود الى عمله ليستأنفه ، واذا بصوت يهتف : « توقيعك يا يونا » ، فيسأل : (ماذا ارسالة مسجلة ؟) فيرد الصوت قائلاً : « لا ، ولكنها مشكلة المسجونين في كشمير » . ويهتف ، « ها انا قادم » ، ويركض الى الباب ليستقبل صديقاً شاباً من المحكوم عليهم ، ويستمع الى احتجاجه ، فيعرب عن قلقه ، بأن الموضوع قد يتناول السياسة ، ثم لا يلبث ان يوقع بعد ان يتلقى تأكيداً جازماً حول هذا الشأن مع التحذير بان هذه الواجبات لا يمكن فصلها عن الامتيازات التي نالها كفنان ، ويعود ثانية الى الظهور ، ليقابل ملاكماً نسي اسمه ، احرز انتصاراً رائعاً في الآونة الاخيرة ، او احد اعلام التمثيل في بلد اجنبي . ويقف الممثل امام الفنان خمس دقائق ، معرباً بالعواطف المتدفقة من عينيه ، عما يعجز التعبير عنه بلسانه نظراً لجهله للغة الفرنسية ، بينما يحني يونا رأسه شاعراً باحساس يغمره من الاخوة . وينقذه لحسن حظه من هذا الموقف الجامد ، اقتحام الخطيب المفقوء ، ساحر المنابر للمكان ، طالباً التعرف الى الفنان العظيم . ويعرب يونا عن سروره الذي يحس به حقيقة ، ثم يلمس رزمة الرسائل التي لم يرد عليها بعد ، والموجودة في جيبه ، ويتناول فرشاته ، ويستعد للعودة الى استئناف عمله ، ولكنه يدرك ضرورة التوجه بالشكر الى ذلك

الشخص الذي جاء قبل قليل بزوج جميل من « الكلاب » اودعه في غرفة الفنان فيجدها سيدة ويشكرها ، كما يقبل دعوتها الى الغداء ثم يسرع ثانية تلبية لنداء لويز ، ليرى بنفسه ، ولا يعلق بخاطره اية ذرة من الشك ، في ان هذين الكلبين لم يتعودا على حياة الشقق ، وانها قد نقلتهما الى غرفة « الدوش » حيث يمكنهما ان ينبجا كما يشاءان ، دون ان يسمعهما انسان . وكان يوناس يرى بين آونة واخرى ، فوق رؤوس الزائرين نظرة تنطق بالحزن في عيني لويز . واخيراً ينتهي النهار ، وينصرف الزائرون ، بينما يظل بعضهم في الغرفة الكبيرة ينظرون بحنان الى لويز وهي تحمل الطفلين الى فراشيها ، تساعداه في ذلك سيدة انيقة ترتدي ثياباً فاخرة ، تتذمر من انها ستعود الى بيتها الفخم ، حيث تنتشر الحياة فوق طبقتين ، مفتقرة الى هذه الالفة التي تراها في بيت يوناس .

وجاء راتيو بعد ظهر يوم من ايام السبت حاملاً معه مجففة ثياب رائعة يمكن تعليقها في سقف المطبخ . ووجد الشقة مكتظة ، ويوناس جالس في غرفته الصغيرة محاطاً بمحيي الفن ، يرسم السيدة التي أهدته الكلبين ، بينما يقوم فنان رسمي برسم صورته . وذكرت لويز ان هذا الرسام منتدب من الحكومة ليرسم صورة اسمها « الفنان يعمل » . وانسحب راتيو الى زاوية من الغرفة ليرقب صديقه وهو يبدو مستغرقاً في عمله . ومال عليه أحد محيي الفن ، وهو لا يعرفه ، وقال : « انه يبدو رائعاً ، أليس كذلك ؟ » . ولم يرد راتيو بينما استطرد الآخر يقول : « اعتقد انك ترسم ايضاً . انني ارسم حسناً . صدقني ، لقد بدأ في دور التأخر والانحطاط . » وتساءل راتيو : « بمثل هذه السرعة ؟ » . فقال الفنان الغريب : نعم ، انها سبة النجاح . ليس في وسعك ان تقاوم النجاح . لقد انتهى . وهو اما ان يكون في طريق الهبوط ، أو انه انتهى . « والفنان الذي يبدأ في الهبوط ، قد انتهى .

انظر . ليس فيه أي شيء ، يمكنه من ان يمضي في الرسم . يرسمونه الآن ،
وسيعلقون صورته في المتحف .

وحل منتصف الليل ، وكانت لويز تجلس في زاوية من السرير والى
جانباها يجلس راتيو ، بينما وقف يوناث ، وقد خيم عليهم الصمت جميعاً . وكان
الاطفال نائمين ، والكلاب تجول في الخارج ، وقد انتهت لويز قبل قليل
غسل الصحون والحاجيات بينما قام يوناث وراتيو بتجفيفها ، وشعروا جميعاً
بالتعب والانهاك . وعندما رأى راتيو كومة الاطباق قال : « لماذا لا تأتون
بجاذمة ؟ » فردت لويز بصوت يشوبه الحزن ، « ولكن اين سنضعها ؟ »
وسكتوا جميعاً ولم يحيروا جواباً . وفجأة قال راتيو متسائلاً : « هل انت
سعيد ؟ وابتسم يوناث ، ولكن التعب كان بادياً على محياه ثم قال : « نعم .
فالكل يبدي لي منتهى اللطف » . وقال راتيو : « لا ، عليك ان تراقب .
فهم ليسوا جميعاً بطيبين » . « ومن مثلاً ؟ » . « اصداقائك الرسامون مثلاً » .
وقال يوناث : « اعرف ذلك . ولكن كثيرين من الفنانين هم على هذه
الشاكلة . انهم لا يثقون من وجودهم . حتى العظماء منهم ولذا فهم يبحثون
عن الادلة ، فيصدرون الاحكام ويقضون . وهذا يمنحهم القوة . انه بداية
الوجود . انهم يشعرون بالوحدة » . وهز راتيو رأسه معرباً عن شكه فقال
يوناث : « صدق ما أقول . انني اعرفهم . وعليك ان تحبهم » . ورد راتيو
قائلاً . « وماذا بصددك ؟ هل انت موجود ؟ لم اسمع منك يوماً شيئاً سيئاً
عن أي منهم » . وشرع يوناث يضحك وقال : « كثيراً ما حملت عنهم
فكرة سيئة ولكن سرعان ما أنسى . » واكتسب هيئة جدية ومضى يقول :
« لا انا لست بواثق من وجودي ، ولكن سأصبح موجوداً في يوم ما .
وانا واثق من هذا » .

وسأل راتيو لويز رأيها في الموضوع ، فدفعت عن نفسها ما تشعر به من

تعب واجهاد وقالت انها تظن بان يوناى على حق ، وأن رأي زوارهما لا قيمة له ولا اهمية . وان المهم هو عمل يوناى . وهي شاعرة بان الطفل سيقف في طريقه ، فهو ينمو على كل حال . وعليها ان يبتاعا له سريراً ، سيملاً فراغاً في الغرفة . وماذا بوسعهما ان يفعلا حتى يتم انتقالهما الى شقة اكبر ، وتطلع يوناى الى غرفة نومه ، بالطبع انها ليست المثل الاعلى ، فالسرير عريض وواسع ، ولكن الغرفة خالية طوال النهار . وعرض الفكرة على لويى ، التي أخذت تدرسها . وفي وسع يوناى ان يعمل في غرفة نومه دون ازعاج . اذ ان الضيوف على كل حال لن يجرأوا على الاستلقاء على فراشها ووجهت لويى بدورها سؤالها الى راتيو وقالت ... « وما رأيك بهذه الفكرة ؟ » فتطلع الى يوناى ، الذي كان يتجه بنظره عبر النافذة الى الطريق . ثم رفع عينيه الى السماء التي لا نجوم فيها ، ومضى فأسدل الستائر . وعندما عاد ابتسم الى راتيو وجلس الى جانبه على السرير دون ان يقول شيئاً . ويبدو ان لويى ، قد لحق بها الاعياء ، فأعلنت انها ماضية الى المسحاح لتلقى رشاشاً من الماء . وعندما اصبح الصديقان وحدهما ، شعر يوناى بكتف راتيو يمس كتفه . وقال دون ان ينظر اليه : « اننى احب الرسم . بل واحب ان ارسوم طيلة حياتي ، ليلها ونهارها ، اليس هذا من حسن طالعي ؟ » ونظر اليه راتيو بخنان صادق وقال : « اجل ، انه من حسن الحظ » .

ومضى الاطفال في طريق النمو ، ويوناى سعيد بان يراهم اصحاء سعداء . وأخذوا يذهبون الى المدرسة ويعودون منها كل يوم في الساعة الرابعة . وكان في وسع يوناى ان يتمتع بصحبتهم بعد ظهر ايام السبت ، أو في ايام الخميس أو اياماً بكاملها اثناء عطلاتهم المتكررة والطويلة . ولم يكونوا قد وصلوا بعد السن الكافي ليجعلهم يصرفون اوقاتهم بهدوء ، ولذا فقد ظلوا

يملأون البيت بشجارهم وضحكهم . وكان عليه ان يهدى من ثائرتهم ، وان يتوعدهم ، بل واحياناً يتظاهر بضربهم . وكانت هناك ايضاً مشكلة غسل ثيابهم ، وتثبيت ازرار ملابسهم . ولم يكن في وسع لويز ان تقوم بجميع هذه الامور وحدها . ولما كانوا عاجزين عن ايواء خادمة في البيت ، أو السماح لواحدة منهم بأن تهدم جو الالفة الذي يعيشان فيه ، فقد اقترح يوناث استدعاء شقيقة لويز ، روز ، التي توفي عنها زوجها ، تاركاً لها ابنة كبيرة . وردت لويز بقولها : « أجل » ، فمع روز لسنا بحاجة الى اصطناع التكلف ، وفي وسعنا اخراجها عندما نريد . وفرح يوناث بهذا الحل ، الذي يريح لويز كما يريح ضميره في الوقت نفسه الذي يشعر بالعذاب لما تعانيه زوجته من اجهاد . وكان العون اكثر اثرأ لان روز كانت تأتي معها في الغالب بابنتها لمساعدتها . وكانتا معاً مثلاً للطيبة ، كالتبر الخالص ، وقد تميزت طبيعتهما النبيلة بالفضيلة وعدم الاثره . وقد بذلا كل جهد ممكن لتقديم المساعدة ، ولم يضنا بوقتها في سبيل هذه الغاية . وقد أعانها في ذلك ، ما تشعران به في حياة وحدتهما من ضجر وملل . وما تحسان به من متعة ، في الظروف الهنيئة التي تغلب على بيت لويز . وهكذا تحققت نبوءة لويز ، وعاشت قريبتها معها دون كلفة ، منذ البداية ، وأحستا وكأنهما في بيتهما . وغدت الغرفة الكبيرة مكاناً مشتركاً ، فهي غرفة طعام ، وخزانة ملابس ، ومكان عناية بالاطفال . أما الغرفة الصغيرة ، التي ينام فيها الطفل الصغير ، فقد غدت مخزناً للصور ، وسريراً ، مطويماً تنام عليه روز احياناً ، عندما تأتي وحدها ، دون كريمتها .

واحتل يوناث غرفة نومه ، واخذ يعمل في الفراغ القائم بستين السرير والنافذة . وكان عليه ان ينتظر في الصباح ، حتى يتم اعداد الغرفة ، بعد الانتهاء من غرفة الاطفال . وبعد بدء هذا الترتيب الجديد مضى في عمله ،

دون ازعاج من احد ، الا عندما تأتي لويز او روز لتناول ملاءة سرير او منشفة من خزانة البيت الوحيدة الموجودة في تلك الغرفة . اما بالنسبة الى الزائرين ، فعلى الرغم من ان عددهم قد انخفض ، الا انهم اتخذوا لانفسهم عادات معينة ، وكان بعضهم ، خلافاً لما تتوقعه لويز ، لا يرعوي عن الاستلقاء على فراش الزوجية المزدوج ، ليشعر بالراحة وهو يتحدث الى يوناس . وكثيراً ما جاء الاطفال الى الغرفة لتحية ابيهم قائلين ... « دعنا نرى الصورة » ويعرض يوناس عليهم الصورة التي يرسمها ، ويقبلهم بحب وحنان . وعندما كانوا يفارقونه ، كان يحس بأنهم يملأون عليه شغاف قلبه ، دون أي تحفظ . وانه لو فقدهم ، لاصبحت حياته وحدة وخواء . وكان يحبهم كما يحب رسومه لانهم كانوا الاشياء الحية الوحيدة في العالم الى جانب رسومه .

وأخذ انتاج يوناس يقل كلما ، وهو لا يدري سبباً لذلك . وعلى الرغم من مثابرته ، فقد اضحى يشعر بصعوبة الرسم ، حتى في اللحظات التي يكون فيها وحيداً ، واصبح يفضل قضاء هذه اللحظات ، متطلعاً الى السماء . ولقد كان طيلة حياته ، ثائه الذهن ، يضيع بسهولة في افكاره ، اما الآن فقد اضحى من الحالمين ، وبدأ يفكر بالرسم كمهنة يتمتعها ، بدلاً من التفكير به كفن . وعلى الرغم من انه واصل مناجاة نفسه بقوله « انني احب الرسم » الا ان يده التي تحمل الفرشاة ، كانت تظل معلقة الى جانبه ، عندما يصغي الى صوت مذياع بعيد .

وبدأت سمعته في الوقت نفسه ، تسير في طريق الهبوط ، وشرع يقرأ في الصحف التي يأتون بها اليه ، مقالات ملأى بالتحفظات ، او اخرى تحمل طابعاً غير ودي بصراحة ، أو ثالثة ملأى بالهجوم القذر ، مما يثير في نفسه الألم العميق . وكان يقول لنفسه ، ان هذه الحملات قد تؤدي الى الخير ، إذ

ترغمه على تحسين انتاجه ، وأخذ الذين واصلوا زيارته من اصدقائه ومن الفنانين ، يعاملونه معاملة لا تكلف فيها ، كما يعاملون أي صديق قديم ، لا يتحتم عليهم التكلف في حضوره . وعندما كان يعرب عن رغبته في العودة الى العمل ، كانوا يقولون له ... « أوه ، لا يزال أمامك وقت طويل » ، وادرك يوناس انهم الى حد ما ، أخذوا يضمونه الى زميرتهم من الفاشلين . ولكن في هذا التضامن الجديد ، بعض النفع والعزاء . وكثيراً ما هز راتيو كتفيه ، قائلاً له : « انك لمحنون . انهم لا يهتمون بك مطلقاً » . فيرد يوناس بقوله : « لا انهم يضمرون لي بعض الحب الآن ، وهذا القدر من الحب شيء رائع ، وليس من المهم البحث في طريقة الحصول عليه » . ومضى في حياته الرتيبة من الحديث وكتابة الرسائل ورسم الصور ، بأحسن ما يستطيع . وكان بين آونة واخرى يجيد الرسم حقيقة ، ولا سيما بعد ظهر ايام الآحاد ، عندما يخرج الاطفال مع لويز وروز . وفي المساء كان يعرب عن فرحه . لما استطاع انجازها من عمل في الصورة التي يرسمها . وكان في هذا الوقت قد شغف برسم السماوات .

وعندما حل اليوم الذي فاجأه فيه التاجر باضطرابه آسفاً الى تخفيض الراتب نظراً للهبوط الذي طرأ على بيع لوحاته ، وافق يوناس على ذلك دون نقاش ، لكن لويز شعرت بالقلق الشديد . فقد حل شهر ايلول ، واصبح الاطفال بحاجة الى الملابس الجديدة للذهاب الى المدرسة . واقبلت على العمل بنفسها بشجاعتها المعهودة ، وسرعان ما استهلك جميع أوقاتها ، بينما مضت روز في اصلاح الملابس القديمة ، ووضع الازرار ، وخياطة العرى ، فصرفها عن القيام بمحاجات المنزل الاخرى ، التي عهد بها الى ابنة عم زوجها التي اصبحت تؤم المنزل لمساعدة لويز في الخياطة ، وكثيراً ما جلست على مقعد في زاوية غرفة يوناس ساعات وساعات ، وهي صامتة .

وعندما رأت لويز هدوءها ، اقترحت على يونا س ان يرسم صورة « الحياطة » . واعجبته الفكرة ، وحاول البدء بها ، واتلف لوحتين ، ثم عاد الى صورة سماء يرسمها ولم يكملها بعد . وفي اليوم التالي ، أخذ يونا س يذرع الشقة جيئة وذهاباً بعض الوقت وهو يتخيل بدلاً من ان يرسم . وجاءه أحد حواريه ، ثائراً ، يحمل مقالاً طويلاً لم يكن قد اطلع عليه بعد ، يقول كاتبه ان رسومه يفرط في تقديرها ، مع انها في الحقيقة اضعفت قديمة الاسلوب . وهتف له التاجر ليقول له من جديد انه يشمر بالقلق من هبوط البيع للوحاته . ومع ذلك ، فقد واصل العيش في احلامه وخيالاته . وقال للحواري ، ان هناك بعض الصدق في المقال ، ولكنه ، أي يونا س ، يستطيع المضي في العمل عدة سنوات اخرى . ورد على التاجر بأنه يفهم قلقه دون ان يشاطره اياه . فهو مقدم على عمل عظيم وجديد ، من الطراز الخلاق ، وسيبدأ كل شيء من جديد . وعندما كان ينطق بهذه الاقوال ، أحس بأنه يقول الحقيقة ، وان كوكب سعدة يطل عليه . ان كل ما يحتاج اليه هو نظام طيب .

وحاول في غضون الايام التالية ان يعمل في الصالة ، وانتقل بعد يومين الى غرفة الحمام مستخدماً الضوء الكهربائي ، ثم الى المطبخ في اليوم التالي . وأخذ يشعر بالبرم لأول مرة من هؤلاء الناس الذين يدفع بهم الى كل مكان وهم اولئك الاشخاص الذين لا يعرفهم حق معرفة ، وافراد عائلته الذين يحبهم . وتوقف عن العمل فترة ما وأخذ يفكر . كان في وسعه ان يرسم مناظر الطبيعة في الخارج ، لو كان الطقس مناسباً ولسوء الحظ ، كانت الشتاء قد بدأ ، وكان من الصعب ان يرسم صور الريف أو الطبيعة قبل حلول الربيع . وقام بالمحاولة ولكنه تراجع عنها ، فقد اخترق البرد الشديد لباب جسده . وعاش بضعة ايام مع لوحاته ، جالساً الى جانبها ، أمام

النافذة دون ان يرسم شيئاً . وبدأ يتعود على الخروج من منزله في كل صباح . فيضع على عاتقه مهمة رسم الخطوط التفصيلية الاولى لشجرة أو بيت ما ، او قطاع جانبي . ويحل المساء ، ولا يكون قد قام بأي عمل فأقل اغراء ، كالصحف ، او مقابلة المعارف او التطلع الى واجهات العرض في الحوانيت ، او الدفء في احد المقاهي ، كان يضله عن غايته . ويجلس في كل مساء يخلق الاعذار المناسبة الى ضميره السيء الذي لم يفارقه لحظة واحدة . انه سيرسم ، وهذا أمر مؤكد ، وسيكون رسمه هذه المرة ، أحسن من الماضي بعد هذه الفترة من اتلاف الوقت الواضح . ان هذه العواطف والافكار تتفاعل في نفسه ، وسيبرز كوكب سعدة ، جديداً ومشرقاً من وراء هذه السحب السوداء . وفي غضون ذلك لم يكن يفارق المقاهي ، وقد اكتشف ان الخمر تمنحه من شعور العظمة والتعالي ، مثل ما كان يمنحه اياه يوم من العمل المنتج في ذلك الوقت ، عندما كان يفكر برسومه ، بنفس الحب والحرارة التي يحس بها نحو اطفاله . وعندما يصل الى الكأس الثاني من الكونياك ، كان يسترد ذلك الاحساس البارز الذي يجعل منه ، في نفس الوقت ، سيداً وخادماً لجميع العالم . والفرق الوحيد ، انه يلتذ بهذا الشعور وهو في فراغ ، ويداه عاطلتان ، وليس في وسعه ان ينقله الى شيء يعمله . ومع ذلك ، فقد كان هذا الشعور قريباً من الفرح الذي عاش من اجله ، وأخذ يقضي الآن ساعات جالساً يحلم في اماكن صاخبة تعج بالدخان .

وأخذ يهرب من الأماكن والقطاعات التي يؤمها الفنانون . وعندما يلتقي باحد معارفه فيحدثه عن فنه ، كان يونس يحس بالفرح . انه يريد ان يفر ، وهذا واضح ، ثم يهرب فعلاً . وعرف ما يدور حوله من اقوال ، وما يتهامون به خلفه من انه يظن نفسه « ريرمبراندت » ، فيزداد انزعاجه

واضطرابه . على أي حال ، توقف يوناث عن الابتسام ، وأخذ اصداؤه السابقون يستخلصون نتائج غريبة ، ولا مناص منها . من هذه الظاهرة قائلين : اذا كان قد عدل عن الابتسام ، فلانه راض بنفسه قانسع بها . « وغدا تبعاً لذلك ، ميالاً الى تجنب الناس والنفرة منهم . ويكفيه اذا دخل احد المقاهي ان يحس بأن احد الموجودين فيه قد عرفه ، حتى تتسلط عليه سحابة من الأسى . ويتوقف ثانية واحدة ، عاجزاً ، يملؤه حزن غريب ، وقد أخفى وجهه الغامض قلقه وحاجته الفجائية الواضحة الى الصداقة . ويتذكر نظرة راتيو المشجعة ، فيسارع الى الخروج . وسمع ذات يوم شخصاً يقف على مقربة منه يقول عندما اراد الخروج : « انظروا الى إطلالة هذا الرجل . »

وبدأ يؤم النواحي البعيدة المعزولة التي لا يعرفه فيها انسان . وفي هذه الاماكن كان في وسعه أن يتحدث ويبتسم ، وان يرد الناس على لطفه ، لأن أياً منهم لا يتوقع منه شيئاً . واتخذ لنفسه عدداً من الاصدقاء الجدد الذين لم يكن من الصعب عليه ارضاؤهم . وكان يلتفت برفقة شخص معين ، كان يخدمه في احد مشارب المحطات التي اعتاد على ارتيادها . وكان ذلك الشخص يسأله عن مهنته في الحياة فيرد يوناث بأنه رسام . ويسأل الشخص : « هل انت رسام صور او داهن بيوت ؟ » ، فيرد بأنه يرسم الصور ، ويعلق الشخص على ذلك بقوله ان هذه المهنة ليست بالأمر السهل . ولم يطرأ هذا الموضوع بعد تلك المرة . حقاً ان هذه المهنة ليست بالأمر السهل ، ولكن يوناث سيدبر أمره تمام التدبير فيها عندما يجد الطريقة اللازمة لتنظيم عمله .

ومضت الايام واحداً اثر اخر ، وتوالت الكؤوس ، وكثرت المقابلات مع النساء ، فشعر بشيء من العون والمساعدة . ففي وسعه أن يتحدث الى هؤلاء النسوة ، قبل عملية الحب او بعدها ، وان يزهو بنفسه امامهن ، فهنّ

يفهمه ، حتى ولو لم يقتنعن بأقواله . وخيل اليه مرات عدة انه قد استرجع قواه القديمة . وفي ذات يوم ، شجعتة احدى معارفه ، فحزم أمره ، وعاد الى بيته ، وحاول ان يعمل ثانية في غرفة نومه ، اذ كانت الخياطة غير موجودة ذلك النهار . ولكن بعد ساعة من المحاولات الفاشلة وضع لوحته بعيداً ، وابتسم للويز دون ان يراها ، وخرج من البيت . وقضى طيلة اليوم يحترس الخمر ، كما قضى ليلته مع صديقتة دون ان يكون في وضع يجعله راغباً فيها . وطالعتة في الصباح صورة الألم ، ممثلاً في وجه معذب ، عندما رأى لويز . لقد ارادت ان تعرف ما اذا كان قد عاشر تلك المرأة جنسياً تلك الليلة . فاعترف يوناس انه ، نتيجة لكثرة ما احتسى من خمر ، لم يستطع ان يفعل شيئاً ، ولكنه استطاع ، في مرات سابقة مع غيرها . وتمزق فؤاده لأول مرة ، فقد رأى في لويز فجأة صورة المرأة الغريبة ، التي تنبعث من الدهشة والألم المفرط . وبزغ في فكره رأي ، انه لم يفكر بلويز طيلة هذه المدة ، وأحس بالخلج من نفسه . وسألها ان تغفر له ، فقد انتهى كل شيء ، وسيبدأ في الغد من جديد ، كما كان في الماضي . ولم تستطع لويز ان تقول شيئاً بل ادارت وجهها وقد اغرورقت عيناها بالدموع .

وخرج يوناس في اليوم التالي ، مبكراً للغاية من بيته . كانت السماء تمطر ، وعندما عاد ، وقد ابتل كل ما عليه ، كان ينوء باحمال من الألواح ، فوجد صديقين من اصدقائه القدامى في البيت يحترسان القهوة ، وقد جاء يسألان عنه . وقالا : « يبدو انك تريد تغيير طريقتك ، والرسم على الخشب » . فابتسم يوناس وقال : « لا ، ابدأ » ، ولكنني سأبدأ بشيء جديد . ومضى الى الرواق الصغير المؤدي الى الحمام والمطبخ وبيت الخلا . وتوقف في الزاوية اليمنى حيث يلتقي الرواق بالقاعة ، واخذ يدرس تفصيلاً ، الجدران العالية التي ترتفع الى السقف المظلم . وشعر بالحاجة الى سلم . فهبط الدرج ، وأتى

به من حارس البناية .

ورأى عندما عاد ، عدداً آخر من الناس في شقته ، وكان عليه أن يصرع مع عواطف زائريه الذين فرحوا بالعثور عليه من جديد ، ومع اسئلة افراد أسرته ، قبل ان يصل الى نهاية القاعة . وخرجت زوجته في تلك اللحظة من مطبخها . ووضع يوناس السلم الذي يحمله ، وضم لوز الى صدره ، وقطعت لوز اليه وقالت « ارجوك ان لا تعود الى مثلها ثانية » . وقال يوناس : « سأرسم . يجب أن ا رسم . » وبدا وكأنه يتحدث الى نفسه ، لأنه كان يتطلع الى ناحية ثانية . ان عليه ان يعمل . واقام من اللوح التي أتى بها منصة على الحائط ضيقة ولكنها عميقة وعالية . وعندما جاءت ساعات بعد الظهر ، كان كل شيء قد انتهى . واستعان يوناس بالسلم ، ليعلق نفسه بالمنصة ، ليختبر متانتها فوجدتها قوية ثابتة . وعاد الى الآخرين فاختلط بهم ، وفرحوا جميعاً بعودته الى سابق عهده من الألفة والود . وعندما خلت الشقة من الناس في المساء ، جاء يوناس بمصباح غازي ومقعد وحاملة ولوحة للرسم . وحمل جميع هذه الحاجيات الى المنصة ، أمام عيون النسوة الثلاث المندهشة والاطفال . وقال من محفته العالية : « في وسعي الآن ان اعمل ، دون ان اضايق احداً . وسألته لوز عما اذا كان واثقاً بما يقول ، فرد بقوله : « طبعاً ، انني لست بحاجة الى مساحة واسعة . سأكون هنا اكثر حرية وانطلاقاً ، وقد عرف التاريخ عدداً من مشاهير الرسامين الذين كانوا يعملون على اضواء الشموع... ثم ... » فقاطعت زوجته قائلة : « وهل الارض ثابتة ؟ » فرد بالايجاب ، طالباً اليها ألا تقلق ، ومؤكداً ان هذا الحل رائع وطيب . ثم هبط ثانية من منصته .

وصعد في صباح اليوم التالي الى المنصة ، واتخذ مجلسه ، ووضع اللوحة على الحاملة ، التي اسندها الى الحائط ، وتريث قبل ان يشعل الضوء . وكانت

الاصوات المباشرة التي تصله صادرة اما من المطبخ أو من بيت الخلاء ، أما
الاصوات الاخرى فتبدو بعيدة نائية ، ولم يعد يسمع اصوات الزيارات ، وقرع
الاجراس ، ورنين الهاتف ، والذهاب والاياب ، والاحاديث ، الاكاشياء
خافتة ، وكأنها آتية من الشارع أو من الباحة الخارجية . وعلى الرغم من
ان الضوء كان يغمر الشقة بأسرها ، فان الظلام يحيم على منصته فيضفي عليها
نوعاً من الهدوء والراحة . وكان احد الاصدقاء يأتي من حين الى آخر فيقف
تحت المنصة ويهتف قائلاً : « ماذا تعمل هناك يا يونا ؟ » فيرد عليه بقوله :
« انني اشتغل » . « وهل تشتغل بدون ضوء ؟ » ، « نعم الى فترة من الزمن » .
انه لا يرسم ، ولكنه يتصور ويتخيل . وأخذ يصغي في هذا الظلام ، وذلك
الهدوء الذي تصوره اذا ما قورن بما جرى عليه في الماضي كصمت الصحراء
او القبور ، الى دقائق قلبه ، ولم تعد الاصوات التي تصل اليه وهو على
منصته لتهمه ، حتى ولو انها كانت موجهة اليه . فقد غدا مثل اولئك الذين
يموتون وحيدين في بيوتهم وهم نائمون ، فيقرع جرس الهاتف في الصباح محمواً ،
وعنيداً ، من البيت المهجور ، فوق جسد اصابه الصمم الى الابد . ولكنه
كان لا يزال على قيد الحياة ، وهو يصغي الى ذلك السكون في داخله ،
وينتظر كوكب سعدة ، الذي ما زال غائباً ولكن على استعداد للاشراق من
جديد ، والاندفاع بقوة ، دون ان يتغير ، او يتعرض للتغير ، فوق هذا
الوجود من الفوضى الذي طبع خواء ايامه الاخيرة . واخذ يهتف مناجياً
نفسه : « اشرق ، اشرق ايها الكوكب ، ولا تحرمني من ضيائك » . انه
سيضيء ثانية ، وهو واثق من هذا كل الثقة . ولكن عليه ان يعيش في
تأملاته مدة اطول . ما دام ان الفرصة قد اتاحت له اخيراً ، ليعيش وحيداً
دون ان يفترق عن عائلته . وعليه ان يكتشف ، ما لم يستطع فهمه بوضوح
حتى الآن ، على الرغم من معرفته له دائماً ، ومن اقباله على الرسم وكأنه

يعرفه . اجل عليه ان يمتلك اخيراً ناحية ذلك السر ، الذي ليس بسر الفن
المجرد ، كما يراه الآن . وهذا هو السبب الذي حمله على عدم اضاءة المصباح .
ويصعد يوناث في كل يوم الى منصبه . وبدأ زواره ، يقل عددهم ، تدريجياً .
لان لويز ، كانت تنشغل عنهم باعمالها البيتية الكثيرة ، ولا تلقي بالاً الى
احاديثهم . ويهبط يوناث ليتناول وجبات طعامه ، ثم يعود الى منصبه
فيجلس دون حراك في الظلام طيلة النهار . وفي المساء ، يذهب الى زوجته
التي تكون قد آوت الى فراشها . وبعد بضعة أيام ، طلب من لويز ، ان تعد
له غداءه ، فعملت ما اراد ، مع احساس بالالم اثار يوناث ، فطلب اليها
لكي يجنبها المشقة مرة ثانية ان تعد له بعض الحاجيات من المواد الغذائية
المعلبة التي يستطيع اختزانها على المنصة . وأخذ بالتدريج يكف عن الهبوط
منها طيلة اليوم على الرغم من انه لم يكن ليمس المعلبات التي حملها .

ونادى لويز ذات مساء وطلب اليها أن تأتيه ببعض البطانيات قائلاً
انه سيقضي الليل في مكانه . ونظرت اليه لويز ، وقد ارتد رأسها الى الوراء ،
وارادت ان تقول شيئاً ، ولكنها سرعان ما اغلقت فمها ، وظلت تفحص
يوناث بنظرة حزينة مشوبة بالقلق . ورأى فجأة ، ما لحق بها من كهولة ،
وكيف اثرت عليها متاعب الحياة التي قطعها معها . وادرك انه في الحقيقة
لم يحاول قط مساعدتها . ولكن ، قبل ان ينطق بحرف واحد ، كانت تبتسم
له ابتسامة تتدفق بالحب والحنان ، عصرت فؤاده . قالت له : « تماماً كما
تقول ، ايها العزيز » .

وأخذ منذ تلك الليلة يقضي ليلاليه على منصبه ، ولا يهبط منها الا لماماً .
وخلت الشقة ، نتيجة لذلك ، من الاصدقاء ، لان يوناث لم يعد يظهر اليهم ،
لا في الليل ولا في النهار . وكثيراً ما قيل للبعض منهم انه ذهب الى
الريف ، وللبعض الآخر ، عندما استحال الكذب ، انه قد وجد مرسماً

بعيداً عن البيت . وظل راتيو الصديق الوحيد الذي يؤم البيت باخلاص
فيرتقي السلم ، الى ان يرتفع رأسه الودود الكبير فوق ارض المنصة
ويبادر صديقه بقوله « كيف تسير الامور معك » فيرد هذا بانها مدهشة ،
ويسأله راتيو : « وهل تشتغل ؟ » فيرد يونا : « تماماً » كالشغل ، عين
النتيجة « ، ويقول راتيو : « ولكن ليست لديك لوحة » فيرد هذا
قائلاً : « انني اعمل على كل حال » . وكان من الشاق ان يطول الحديث
اكثر من هذا بين السلم والمنصة ، فيهر راتيو رأسه ، ويهبط ثانية ويساعد
لويز في اصلاح عطل كهربائي ، او قفل باب ، ثم يودع يونا بتحية المساء
دون ان يصعد السلم ، فيرد هذا على التحية بمثلها . وفي ذات يوم ، اضاف
يونا على التحية كلمة الشكر ، فقال راتيو : « وعلام الشكر ؟ » فرد
يونا : « لانك تحبني » . وقال راتيو وهو يمضي : « حقاً ، ان هذا
نبا جديد ! » .

واستدعى يونا راتيو ذات ليلة ، فجاء هذا راكضاً ، وكان يونا قد
اشعل الضوء لأول مرة ، وأخذ يطل من المنصة وقال : « اعطني لوحة ! »
وقال راتيو « ولكن ماذا دهاك ! انك تبدو نحيلاً للغاية ، بل انك كالشبح . »
فرد يونا : « انني لم اتذوق شيئاً منذ يومين . ولكن هذا لا يهم مطلقاً ،
يجب ان اعمل ! » . « كل اولاً ! » ، لا ، لست يجائع » . وأتى له راتيو
بلوحة . وعندما اوشك يونا على الاختفاء في منصته قال : « وكيف هم ؟ »
« من هم ؟ » . « لويز والاطفال » . « انهم بخير » ، وسيكونون اسعد
لو كنت معهم . » . « انني ما زلت معهم . قل لهم . انني ما زلت معهم » .
ثم اخفى . وعاد راتيو فأعرب للويز عن قلقه . فاعترفت بأنها تحس بمثل
هذا القلق منذ بضعة ايام ثم قالت « ولكن ما العمل ؟ آه لو كان بوسعي ،
ان اعمل بدلا منه » . وتطلعت الى راتيو وفي عينيها تعاسة وقالت : « لا

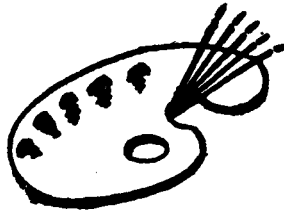
استطيع الحياة بدونه « . وبدأت وكأنها الفتاة التي كانتها قبل الزواج ، مما ادهش راتيو . وادرك هذا لتوه ان وجهها قد تضرع خجلاً .

وظل المصباح مضيئاً طيلة تلك الليلة وفي الصباح التالي ، وكان يرد على من يأتي ليحدثه كراتيو ولويز بأنه يعمل . وطلب قليلاً من الكيروسين عند الظهيرة . وظل المصباح مضيئاً حتى المساء . ولم يغادر راتيو المنزل ، فقد تناول العشاء مع لويز والاطفال . وعند منتصف الليل ، وقف تحت المنصة ليودع يوناث ، ولكنه ، بعد تردد قليل ، غادر المكان دون ان ينبس ببنت شفة . وعندما استيقظت لويز في صباح اليوم الثاني وجدت المصباح لا يزال مضيئاً .

وبدأ نهار جميل ، لكن يوناث لم يحس به . فقد ادار اللوحة الى الحائط . وظل جالساً في مكانه ، وقد انهكه الاعياء ، ينتظر . وقد وضع كفيه على ركبتيه . وناجى نفسه بأنه لن يعمل ثانية ، فقد كان سعيداً . وسمع صوت اطفاله يصرخون ، والماء يجري ، وطقطقة الاطباق . كانت لويز تتحدث . واهتزت النوافذ الضخمة عندما مرت سيارة شاحنة في البولفار المجاور . واصفى يوناث الى همس الترحيب منبعثاً من الانسانية . ولم ينطلق هذا الهمس ، من بعيد معاكساً لتلك القوة المرحية التي يشعر بها في قرارة نفسه والتي هي فنه ، لأنها الافكار الصامتة بصورة ازلية ، التي لم يستطع التعبير عنها والتي جعلته يحس ، قبل كل شيء ، بالحرية والانطلاق في الهواء . وكان الاطفال يلهمون داخل الشقة . والبنت الصغيرة تضحك ضحكاً عالياً ، وهامي لويز تضحك ايضاً . لقد انقضى امد طويل منذ رآها تضحك لآخر مرة . انه يحبهم . آه لشد ما يحبهم . واطفاً المصباح ، وخيم الظلام الذي عاد فجأة وهناك ! أليس ذلك هو كوكب سعدة ما زال مشرقاً ؟ انه الكوكب ، وقد عرفه يجماع قلبه المفعم بالشكر ، وكان لا يزال يرقبه عندما سقط دون حراك .

واعلن الطبيب الذي استدعوه على التو بعد لحظات : « ليس الأمر خطيراً .
انه يجهد نفسه في العمل . وسيمشي على قدميه بعد اسبوع » . وقالت لويز ،
وقد علا الأسى وجهها « هل انت واثق من انه سيشفى ؟ » . فرد الطبيب
قائلاً : « اجل سيشفى » .

وكان راتيو يتطلع في الغرفة الاخرى الى اللوحة ، البيضاء الخالية ، التي
كتب يوناس في وسطها مجرد حروف صغيرة ، اذا جمعت الى بعضها ، كوّنت
كلمة واحدة . ولكنه لم يكن واثقاً منها كل الثقة ، وهل تعني « العزلة » أو
« التضامن » .





الحجر النامي

دارت السيارة برعونة حول المنعطف ، في الطريق الرملية الحمراء ، التي غدت الآن كتلة من الطين . والتقطت المصابيح الكاشفة فجأة في دجى الليل ، كهفين خشبيين ، لهما سقوف من الألواح المعدنية ، يقوم احدهما على هذا الجانب من الطريق ، ويقوم الآخر على الجانب الثاني . وإلى اليمين على مقربة من الكوخ الثاني شوهد برج من العوارض الخشبية ، الخشنة ، امكن رؤيته عبر الضباب الخفيف وسطح على ظهر البرج سلك معدني لا يرى المكان الذي يبدأ فيه ، عندما انعكست عليه اضواء السيارة قبل ان يختفي وراء الحاجز الذي يغلق الطريق . وابطأت السيارة في سيرها وتوقفت على بعد بضع ياردات من الكوخين .

وجاهد الرجل الذي كان يجلس الى جانب السائق ، في الخروج من السيارة ، وعندما وقف على قدميه ، ترنح جسده الضخم بعض الترنح . وبدأ وقد وقف في ظل السيارة ، بعد ان ثبت قدميه ، اللذين انهكهما الاجهاد في الارض . انه يصغي الى صوت المحرك المسترخي ، ثم خطا باتجاه الحاجز ، ودخل في المخروط من النور الذي تشكله المصابيح الكاشفة .

وتوقف عند قمة المنحدر ، وقد برز كتفاه العريضان في الظلام المحيط بالمنطقة ، وعاد بعد لحظات فالتفت ورائه ، وابصر على الضوء المنبعث من لوحة السيارة الداخلية ، وجه السائق الاسود ، وقد افتر عن ابتسامة .
واشار الرجل ، فأطفأ السائق المحرك . وخيم على الفور سكون جامد على الطريق وعلى الصحراء ، واصبح في الامكان سماع خرير المياه .

وتطلع الرجل الى النهر الذي يجري تحته ، والذي لا يرى الا عندما تتألق عرضاً بعض البقع ، في انسيابه المظلم الواسع . وبدأت ظلمة كثيفة لا حراك فيها تشير الى الضفة الاخرى البعيدة . واذا ما ثبت الانسان نظره ، في الضفة البعيدة الهادئة ، امكنه ان يرى ضوءاً وكأنه مصباح غازي ، يبعث بضوئه من بعيد . والتفت الرجل الضخم الى السيارة واوماً برأسه . وأطفأ السائق الانوار ، ثم اضاءها ثانية ، وأخذ يكرر العملية بانتظام . وكان الرجل يظهر ويختفي وراء الحاجز ، وفي كل مرة يبدو فيها ، كان حجمه يبدو اكثر ضخامة وطولاً . ولاح على الضفة الاخرى من النهر فجأة ، مصباح تحمله ذراع غير مرئية ، تتقدم به وتتأخر عدة مرات . وعلى اثر اشارة اخيرة ، اطفأ السائق الانوار للمرة الاخيرة ، فباتت صفحة النهر ، وأخذت بعض امواجه ، تبرز بصورة غير متقطعة ، بينما اختفت السيارة والرجل في ظلمة الليل البهيم . ولاحت على جانبي الطريق ، اشجار الغابة المظلمة ، وقد ارتفعت بهاماتها الى السماء ، وبدأت قريبة منها . وكان المطر المنهمر ، الذي غمر الطريق ، قبل أقل من ساعة ، لا يزال يرف في الهواء الدافئ ، مضخماً السكون والجود ، في هذه الارض الفسيحة الحالية في قلب الغابة العذراء . وتلألأت في السماء السوداء ، نجوم يلفها الضباب .

وارتفعت من الضفة الأخرى اصوات سلاسل حديدية وخضخضة مخنوقة

في الماء . وظل السلك المعدني يمتد متوتراً فوق الكوخ القائم الى يمين الرجل ، الذي لا يزال ينتظر . وبدأ صرير بليد ، يسمع على طول السلك المشدود ، بينما ارتفعت من النهر اصوات خافتة ولكنها مسموعة ، تشير الى حركة في الماء . وأخذ الصرير ينتظم ، وانتشر الصوت في النهر ، ثم بدأ في التركيز ، بينما شرع المصباح ، في التضخم شيئاً فشيئاً . واصبح في الامكان الان رؤية نوره الاصفر بكل وضوح . وامتد النور شيئاً فشيئاً ، بينما ظل المصباح منيراً عبر الضباب ، ليرتفع بعد قليل ، فوق سقف مربع من سعف النخيل الجاف ، يرتكز على دعائم من الخيزران الغليظ . وأخذ هذا المأوى الغريب ، الذي تظهر فيه اشباح غامضة تتحرك ، يتقدم ببطء من الضفة . وعندما اصبح في وسط النهر ، بدا ثلاثة رجال ، قصار ، سود الوجه في الضوء الاصفر ، وقد عريت الاجزاء العليا من اجسادهم من اللباس ، وعلى رؤوسهم قبعات مخروطية الشكل . ووقف الرجال الثلاثة جامدين ، وقد انفجرت اقدامهم ، ومالوا بعض الميل ، ليوازنوا اجسامهم ، مع تيار النهر القوي ، الذي يضغط بكل ما فيه من مياه غير مرئية ، على جانب زورق كبير غريب الشكل يندفع من الظلام . وعندما دنا القارب اكثر فأكثر ، استطاع الرجل ، ان يرى تحت سقف القارب ، الى الجانب الذي يتجه فيه التيار ، زنجيين طويلين ، عاريي الصدر ، وعلى رأسيهما قبعتان واسعتان من القش ، وسراويل من القطن . وكانا يرتكزان جنباً الى جنب يجميع قواهما ، على عمودين طويلين ، يهبطان ببطء في النهر ، باتجاه المقدمة ، بينما يقومان بحركة بطيئة ، وقد انحنيا على الماء ، الى المدى الذي يسمح فيه توازنهما لهما بالانحناء .. أما في المؤخرة ، فيقف الثلاثة الحلاسيون ، هادئين ، صامتين ، يرقبون اقتراب الضفة منهم ، دون ان يرفعوا اعينهم الى الرجل الذي ينتظرهم عليها .

واصطدم الزورق فجأة بشيء . وتأرجح المصباح من الصدمة ، فحط

على رافدة ، تمتد الى الماء . ووقف الزنجيان الطويلان ، هادئين ، وقد وضعاً ايديهما فوق رأسيهما ، يسكان بطرقي العمودين اللذين ظهرا وكأنها قد تثبتا في قعر النهر ، بينما ظلت عضلاتها القوية ، تتمدد وتنكش بصورة مستمرة في حركة ، تبدو وكأنها ناجمة عن اندفاع الماء . والقى بقية رجال القارب بسلاسل حديدية ربطوها الى الاوتاد القائمة على الرصيف ، ثم قفزوا اليه وانزلوا نوعاً من «الصقالة» ، غطت مقدمة القارب ووصلت بينها وبين الرصيف . وعاد الرجل الى السيارة وانسل اليها ، بينما ادار السائق محركها . وارتفعت السيارة ببطء فوق الحاجز ، متجهة بمقدمها الى السماء ، ثم هبطت به نحو النهر على المنخفض المنحدر . وتقدمت السيارة ، بعد ان احكم السائق فراملها ، فانزلت على الوحل ، وتوقفت لتستأنف الحركة من جديد ، وتخطو على « الصقالة » ، بهدير عنيف ، حتى وصلت نهايتها ، حيث يقف الخلاسيون صامتين ، على الجانبين ، وهبطت ببطء فوق الزورق ، الذي غطس مقدمه في الماء ، من البداية ، ثم عاد الى توازنه الطبيعي ، عندما اصبحت السيارة بكاملها عليه . وقاد السائق سيارته الى المؤخرة أمام السقف المربع ، حيث كان المصباح معلقاً ، وقام الخلاسيون على الفور ، بسحب « الصقالة » واسلاك التثبيت ، وابتعدوا بالقارب عن الضفة الملأى بالوحل . وجاهد النهر تحت الزورق ورفع على سطح الماء ، فصار ببطء الى الضفة المقابلة . وخفف الزنجيان الطويلان من جهودهما ، واخرجا اعمدهما من الماء وخرج الرجل والسائق من السيارة ، وجاء ليقفا في طرف العوامة مواجهين مجرى النهر . ولم يفه أي انسان بكلمة اثناء العملية كلها ، وظلوا جميعاً ، كل في مكانه ، هادئاً وبدون حراك ، باستثناء احد الزنجيين الطويلين الذي اخذ يلف سيارته في ورقة عادية .

وكان الرجل يتطلع الى الفتحة التي يتدفق منها النهر خارجاً من الغابة

البرازيلية الهائلة ، مندفعاً نحوهم . وكان النهر في تلك الناحية يتسع الى مسافة عدة مئات من الياردات وتضغط مياهه التي ذاب فيها الطين ، على جوانب العوامة . دون ان يحول بينها وبين هذه الاطراف شيء ، ثم تعود ، فتلتف حول العوامة ، وتنتشر ، مناسبة ، في طوفان قوي وينعومة عبر الغابة المظلمة ، باتجاه البحر والليل . وتهب رائحة عفنة ، من الماء ، أو من السماء التي تبدو كالاسفنج ، معلقة في الفضاء . وأخذ صوت اصطفاق الماء على الجوانب يسمع بوضوح ، كما اخترق هدأة الليل ، نقيق الضفادع منبعثاً من الضفتين ، مصحوباً مع زعيق الطيور الغريب . واقترب الرجل الضخم من السائق الصغير النحيل الذي كان يتكئ على أحد اعمدة الخيزران ، وقد وضع يديه في جيوب لباسه المصنوع من الأقمشة الهندية ، التي كانت في يوم ما زرقاء ، ولكنها أصبحت مظلمة الآن بالأتربة الحمراء ، التي كانت تهب في وجوهم طيلة النهار . وانتشرت ابتسامة عريضة على وجهه المليء بالتجمعات على الرغم من حداثة سنه . وكان يحملق في النجوم الباهتة السابجة في السماء الرطبة دون ان يراها .

وارتفع زعيق الطيور وقد اختلط بهمهمات غير مألوقة ، وبدأ السلك المعدني في صريره من جديد . ووضع الزنجيان قبضتيهما في الماء ، باحثين ، عن القمر . والتفت الرجل الى الساحل الذي تركوه قبل لحظات ، فرآه ، وقد غمرته الظلمة والمياه ، واسعاً ومتوحشاً مثل تلك القارة من الاشجار الممتدة وراءه الوف الكيلومترات . وبين المحيط القريب ، وهذا البحر من الخضرة ، بدت حفنة الرجال الذين يسوقهم التيار تلك اللحظة فوق ذلك النهر الثائر ، وكأنهم ضائعين . وعندما قذفت « العوامة » ، بإسلاك تثبيتها ، وصقالتها ، بدت وكأنها ترسو الى جزيرة في الظلام ، بعد أيام شاقة من الابحار المستمر . وأخذت أصوات الرجال تتضح أخيراً بعد ان وصلوا الى البر . ودفع لهم

السائق ، أجرم ، وأخذوا يودعونه بالبرتغالية ، بصوات تبدو غريبة وفرحة في الليل الثقيل ، واستأنفت السيارة ، سيرها .

وقال السائق : « يقولون ان المسافة الى اينغواب ستون كيلو متراً ، وبعد ثلاث ساعات تكون الرحلة قد انتهت . ان سقراط مسرور .

وقهقه الرجل ، واندفعت منه ضحكة دافئة نابضة من القلب . ضحكة تشبه تماماً في مرحها وقال : « وانا سعيد كذلك ، يا سقراط . فقد كانت الطريق شاقة » .

— « انها ثقيلة يا مسيو داراست ، وانت ثقيل للغاية ايضاً .. قال السائق ذلك ، وأخذ يضحك ، وكأنه لا يريد ان يتوقف ابداً .

ومضت السيارة تغدّ سيرها . وكانت تتقدم بين جدارين عاليين من الاشجار ، والخضرة المتشابكة ، تحيط بها رائحة حلوة ناعمة . وطارت الجبابح ، من هنا وهناك ، تشرق بضوئها في ظلمة الصحراء ، وبين آونة واخرى ، تندفع طيور ذات عيون حمراء ، فتصطدم باللوحنة الزجاجية الامامية للسيارة . وكثيراً ما وصل الى اذانها صوت غريب متوحش ، صادر من أعماق الليل ، فيتطلع السائق ، الى الرجل ، وفي عينيه نظرة هازئة .

واستمرت الطريق في التفافها وتموّجها ، عابرة فوق الجداول الصغيرة ، فوق جسور من الالواح المتحركة . وأخذ الضباب بعد مرور ساعة يتكاثف ويشتد . وهطل رذاذ ، رائع ، اعتم أضواء السيارة ، وأغشى داراست نصف اغفاءة ، على الرغم من الهدير المتواصل .. فهو لا يسير في الغابة الرطبة بل في طرقات الهضبة التي مشى فيها عند الصباح ، عندما تركا سان باولو . ويتصاعد من هذه الطريق القذرة باستمرار غبار أحمر ، ما زال طعمه في فمه ، وهو يغطي على جانبي الطريق الى مدى النظر الخضرة المتفرقة فوق السهل .

وتميزت الصحراء التي لا نهاية لها . والتي مرا بها ، بالشمس المحرقة ، والجبال الشاحبة الملأى بالأخاديد ، وقطعان البقر الهندي الجائعة ، تحرسها اسراب من النصور السوداء التي تعيش في اواسط امريكا وجنوبها ، وتوقفت السيارة . فقد اصبحا الآن في الياباب ، فهناك مساكن نخيلة على جانبي الطريق ، وفي داخل هذه المساكن تبدو ازياء الكيمونو التي تحتلس النظر . وأخذ السائق يتحدث الى ياباني يرتدي « الدنفاري » ، وقد وضع على رأسه قبعة برازيلية من القش . وعاد السائق ليستأنف السير ، قائلاً : لم يبق امامنا سوى اربعين كيلومتراً .

— اين كنا ؟ في طوكيو ؟

— لا . انها ريحيسترو . فجميع اليابانيين في البرازيل يعيشون فيها .

— لماذا ؟

— لا ادري . إنهم من الصفر ، كما تعرف يا مستر داراست .

وأخذت كثافة الغابة تخف شيئاً فشيئاً ، وبدأت الطريق تصبح اكثر سهولة ، رغم ما فيها من الخداز وانزلاق ، اذ ان السيارة تسير على الرمال . وتسرب من النافذة نسيم دافئ ، فيه بعض الملوحة .

وقال السائق وهو يلحق شفتيه : « هل تشمه » ، انه البحر الطيب ثانية ، سنصل عما قريب اينغواب .

— اذا كان لدينا ما يكفيننا من البترول . وعاد داراست الى اغفائه .

* * *

وعندما استيقظ داراست في الصباح الباكر ، تطلع مندهشاً الى الغرفة الواسعة التي وجد نفسه فيها . وكان النصف الاسفل من الجدران العالية قد

صبغ مؤخراً باللون البني . أما النصف العلوي ، فقد كان في يوم ما مدهوناً باللون الأبيض ، وقد بدت فيه بقع صفراء تمتد الى السقف . وكان ثمة صفان من الاسرة يواجه الواحد منها الآخر ، ورأى داراست سريراً واحداً ، غير مرتب في نهاية الصف الذي ينام فيه ، وقد خلا من أي انسان . وسمع صوتاً ، الى شماله ، فالتفت ناحية الباب ورأى سقراط ، يحمل زجاجة من المياه المعدنية في كل من يديه ، وقد وقف يضحك ثم قال : « ذكرى مرحلة » . وهز داراست نفسه . وتذكر ان المستشفى الذي وضعها فيه رئيس البلدية السالفة ، كان يدعى « ذكرى مرحلة » . وواصل سقراط حديثه قائلاً : « ذكرى اكيدة . وقد قيل لي انهم يبنون المستشفى اولاً ، ثم يعثرون له على الماء . وفي غضون ذلك ، عليك ان تغتسل في « ذكرى مرحلة » ، في مياه معدنية فاترة . واختفى سقراط ، وهو يضحك ، ويغني ، وكأنه لا يشعر بالاجهاد من العطاس الجائح ، الذي هزته طيلة الليل ، والذي حرم داراست من النوم ثانية واحدة .

واصبح داراست الآن في يقظة كاملة . ورأى عبر النافذة الذي وضع عليها شباك حديدي ، باحة ، صغيرة ، ارضها حمراء ، غمرها المطر ، الذي ينصب دون صوت على اجمة من اشجار النند العالية . وأبصر بامرأة تمر ، وقد وضعت وشاحاً اصفر على رأسها . واستلقى داراست في سريره ، لينهض بعد ثوان ، فيجلس فيه برهة ، ثم يتركه وقد احدث صريراً من ثقل جسمه . وعاد سقراط في تلك اللحظة ليقول : « ان رئيس البلدية ينتظرك يا مستر داراست في الخارج » . وعندما رأى النظرة التي عبرت في وجه داراست اضاف قائلاً : « لا تقلق ، فهو على غير عجلة من امره » .

وحلق داراست فقهه بالمياه المعدنية ، ثم مضى خارجاً الى رواق البناء ، وكان رئيس البلدية ، الذي يشبه في سجمه الصغير ، ونظراته التي تبدو وراء

نظارتيه المذهبيتين ، ابن عرس ، غارقاً في تأملات واسعة عن المطر المنهمر . وعندما رأى داراست ، تبدلت هيئته تماماً ، بتلك البسمة الجذابة التي اشرقت على وجهه . وانتصب يحسمه الصغير ، واسرع ، ماداً ذراعيه القصيرتين ، يحاول بهما عناق المهندس . وجاءت سيارة في تلك اللحظة ، فوقمت امامها ، على الجانب الثاني من السور المنخفض ، وانزلقت في الطين الرطب ، وتوقفت اخيراً ، وقال رئيس البلدية : « انه القاضي » . وكان هذا ، كزميله رئيس البلدية ، مرتدياً بدلة زرقاء ، وقد بدا اصغر سناً بكثير ، من رئيس البلدية ، وربما كان الفضل في ذلك ، لقوامه الانيق ، ونظرة الفتوة البادية في عينيه . واخذ القاضي يتجه اليها مجتازاً الساحة ، ومتجنباً ، برك ماء المطر المتجمع . وعندما اصبح على بعد بضع خطوات من داراست ، مد يديه ، مرحباً به . وكان معترساً ، بأن يحيي المهندس النبيل ، الذي يشرف قريتهم المسكنة بزيارته ، كما امتلأ قلبه بالسرور ، من الخدمة التي لا تقدر بثمن ، التي كان المهندس النبيل يعترم القيام بها لايفوايه ، ببناء ، ذلك الحاجز الصغير الذي يمنع الفيضانات الموسمية ، من ان تغمر الاجزاء المنخفضة من البلدة . يالها من مهنة نبيلة ، ان يسيطر صاحبها على المياه ، ويشرف على الانهار . آه ، ومن المؤكد ان الشعب المسكين ، في ايفوايه ، سيدكر دائماً ، اسم المهندس النبيل ، وسيدكرونه في صلواتهم ، لعدة سنوات قادمة . وأسرت هذه البلاغة والجادبية داراست فشكر القاضي ، ولم يجرؤ على ان يظهر استغرابه من العلاقة الممكنة التي تربط بين القاضي وبين الحاجز . وذكر رئيس البلدية أن الوقت قد حان للذهاب الى النادي ، حيث يود كبار اهل البلدة ان يتقابلوا المهندس النبيل ، وان يرحبوا به ، قبل ان يبدأ طوافه في الاحياء الفقيرة . ومن هم وجهاء البلدة ؟

وقال رئيس البلدية : « حسناً انهم ، انا كرئيس للبلدية والقاضي المستر

كارفالهو ، الموجود هنا ، وقائد الميناء ، وعدد آخر من الناس اقل اهمية .
ولن يتحتم عليك ان تظهر اهتماماً كبيراً بهم ، اذ انهم يحفلون الفرنسية .
واستدعى داراست سقراط ، وابلفه انه سيلقاه عندما تنتهي ساعات
الصباح . وقال سقراط : « حسناً ، سأذهب الى حديقة الينبوع » .

— حديقة ال ؟

— نعم . كل انسان يعرفها . لا تخف يا مستر داراست .

ولاحظ داراست ، عندما ترك المستشفى ، ان هذا البناء قد اقيم في
طرف الغابة ، وان الاوراق الخضراء ، الكثيفة تتدلى على سقف المستشفى .
وأخذت الامطار تتساقط على سطح الاشجار ، فتمتصها الغابة الكثيفة دون
أي صوت ، وكأنها قطعة كبيرة من الاسفنج . وكانت البلدة تتألف من نحو
من مائة بيت ، تغطيها سقوف من « القرميد » المنبسط ، تمتد ، بين الغابة
والنهر ، بينما تصل وشوشات المياه البعيدة الى المستشفى . ودخلت السيارة
في شوارع مخضلة ، ثم خرجت فجأة الى ساحة كبيرة مستطيلة ، تبدو فيها ،
الحفر وقد امتلأت بالماء الآسن ، ممزوجاً بالطين الاحمر ، الذي تظهر فيه اثار
العجلات ، من مطاطية وحديدية ، واقدام الخيل . وحول هذه الساحة ،
تقوم دور خفيضة ، مطلية بالحص ، وهي مغلقة على الساحة ، ومن ورائها ،
تظهر ابراج مزدوجة لكنيسة ذات لون يمتزج فيه البياض بالزرقه ، وقد بنيت
على الطراز الذي يظهر في المستعمرات . وتسيطر على هذا المنظر ، رائحة
الماء المالح ، منتشرة من مصب النهر . ورأى داراست ، أمام البيوت حشداً
متنافر الألوان من رعاة الابقار من نسل الاسبان والهنود بعد تزواجهم ،
والبابانين ، وانصاف الهنود ووجهاء المواطنين ببدايتهم السوداء ، وهم
يتقدمون بتحيات واشارات بطيئة ، بينما بدا في منتصف الساحة اشباح بللها
المطر . وهي تتجول فيها . وكان الجميع يخلون الطريق بمظاهر النبيل ،

مفسحين المجال أمام السيارة ، ويقفون ليرقبوا من فيها . وعندما توقفت السيارة في مدخل أحد البيوت في الساحة ، التفت حولها دائرة ، من هؤلاء الرعاة ، وقد ابتلت ملابسهم من المطر ، تحلقوا حول السيارة ومن فيها .

وعندما دخل داراست النادي ، وهو أشبه ما يكون بجانة في الطابق العلوي ، مجهزة بقاطع من الخيران ومناضد الحديد ، رأى وجهاء القوم ، وقد تضخم عددهم . وقد شرب الجميع خمرأ مصنوعة من قصب السكر ، على نخب داراست الذي اقترحه رئيس البلدية وهو يحمل الكأس في يده ، مرحباً به ، ومتمنياً له أقصى السعادة . وبينما كان داراست يحتسي كأسه ، على مقربة من النافذة ، اندفع انسان ضخم غليظ ، يرتدي ملابس الركوب وهو يترنح بعض الشيء ، والقى خطاباً سريعاً وغامضاً لم يفهم منه المهندس الا كلمة واحدة أعادها كثيراً وهي « جواز السفر » . وتردد المهندس قليلاً ، ثم أخرج الوثيقة التي أمسك بها ذلك الشخص بشراهة ، وبعد ان قلب صفحات الجواز ، أعرب عن الاستياء الواضح ، ثم استأنف خطابه وهو يهز الوثيقة تحت أنف المهندس . الذي أخذ يتطلع دون تأثر او هياج ، الى الرجل الغاضب . وتقدم القاضي آنذاك مبتسماً ، وسأل عن الموضوع . وتطلع الرجل الثمل ، الى هذا الخلق الضئيل ، الذي جرؤ على مقاطعة متفحصاً اياه ، ثم تقدم مترنحاً ، بصورة خطيرة ، وأخذ يهز الجواز في وجه ، محدثه الجديد . واحتد النقاش ، وفجأة ، تفجّر القاضي عن صوت كهزيم الرعد ، ما كان لانسان ان يتصور صدوره عنه . وتراجع الرجل الضخم دون سابق انذار ، كالطفل الذي يقبض عليه متلبساً . وخطا تنفيذاً لأمر اخير من القاضي نحو الباب كما يخطو أي طالب يتعرض للعقاب ، ومضى في طريقه .

واقترب القاضي ليشرح لداراست ، بصوت عاد الى طبيعته الهادئة ،

تصرفات هذا الانسان الغريب الاطوار ، الذي غادر المكان ، وذكر انه رئيس الشرطة ، وانه تجاسر فزعم ان جواز السفر ، لم يكن سليماً ، وأكد انه سيعاقب على هذا الانفجار الذي بدا منه . وخاطب القاضي كارفالهو ، آنذاك كبار المواطنين الذين تحلقوا حوله في دائرة ، وبدا وكأنه يوجه اليهم الاسئلة . وبعد نقاش قصير ، اعرب القاضي لداراست ، عن اعتذارات الاهلين الصادقة ، ورجاه ان يعتبر الموضوع ثمرة السكر الشديد ، الذي جعل ذلك الرجل يتجاهل ما يمكنه جميع أهل البلدة من احترام واعتراف بحيله ، وطلب اليه أخيراً ان يقرر بنفسه العقوبة التي يرى وجوب ايقاعها في ذلك الانسان التعيس . وقال داراست ، انه لا يريد ايقاع اية عقوبة بالرجل ، وانه يعتبر الموضوع حادثاً تافهاً ، وانه على غاية من الشوق للذهاب الى النهر . وتحدث رئيس البلدية ، بعد ذلك ، فاكد بروح طيبة وبسيطة ، ان العقوبة أمر يمكن ان يوكل بها ، وان الرجل المذنب سيظل رهن السجن ، وانهم جميعاً سينتظرون ما يقرره زائرهم العظيم بشأنه . ولم يكن بوسع اي احتجاج من داراست ان يخفف من شأن هذه القسوة المصحوبة بالابتسام ، فاضطر ان يعدهم بدراسة الموضوع . وقرروا على التو ان يقوموا بزيارة الاحياء الفقيرة في البلدة .

وكان النهر ، قد بدأ ينشر مياهه الصفراء على الضفاف الخفيفة المائلة . وكانوا قد خلفوا وراءهم ، آخر بيوت بلدة الغوبي ، ووقفوا بين النهر وبين حاجز منحدر ، تتعلق به اكواخ مبنية من الطين وغصون الاشجار . وتمتد الغابة امامهم ، في نهاية الحاجز ، بصورة مفاجئة ، بنفس الطريقة الموجودة على الضفة الثانية من النهر . ولكن الثغرة التي احدثها الماء ، كانت تتسع بسرعة بين الاشجار حتى تصل الى خط رمادي غير واضح ، يشير الى بداية البحر ، وتقدم داراست دون ان ينبس ببنت شفة من المنحدر ، حيث

تركت مستويات الفيضانات المتعددة أثراً ما زالت حديثة . وانطلقت طريق موحلة ، صاعدة نحو الاكواخ التي وقف امامها عدد من الزوج ، صامتين يرقبون الوافدين ، وكان عدد من الأزواج قد تشابكت ايديهم ، كما وقف صف من الاطفال السود على طرف المرتفع ، أمام ذويهم ، وقد اندفعت بطونهم والتوت ارجلهم ، يتطلعون بعيونهم المستديرة .

ولما وصل داراست ، إلى مدخل الاكواخ ، اشار بيده الى ضابط الميناء ، وكان زنجياً بديناً ضحوكاً ، يرتدي لباساً عسكرياً ابيض . وسأله داراست بالأسبانية ، اذا كان بإمكانه ان يقوم بزيارة احد الاكواخ . وكانت الضابط واثقاً من امكانية ذلك ، واعتقد انها فكرة طيبة ، وان يوسع المهندس النبيل ، ان يرى اشياء تهمه كثيراً . فألقى خطاباً مسهباً وجهه الى الزوج مشيراً الى داراست وإلى النهر . وكانوا يصفون اليه ، دون ان ينطقوا بحرف واحد . وعندما انتهى الضابط ، من خطابه ، لم يتحرك ، أي منهم . فعاد الى الحديث من جديد ، وقد فرغ صبره . ثم اشار الى واحد منهم مستدعياً اياه ، فhez هذا رأسه . وأثناء نطق الضابط ببضع كلمات مختصرة ، في لهجة الأمر . وخرج ذلك الرجل من صفوف جماعته ، وواجه داراست ، ثم اشار اليه بيده ، مرشداً اياه الى الطريق . لكن نظرته كانت تحمل طابع العداء . وكان الرجل كهلاً ، وقد ابيض شعره القصير ، فوق وجهه النحيل الجاف ، ومع ذلك ، فقد كان جسده لا يزال فتياً ، يظهر فيه كنفاه النحيلتان ، وعضلاته البارزة ، من قبضه الممزق ، وسراويله القطنية . ومضوا في طريقهم يتبعهم الضابط ، وحشد من الزوج ، فارتقوا ، حاجزاً جداً منحدرأ ، حيث تلتصق الاكواخ المبنية من الطين والصفوح ، والقصب بالارض ، بصعوبة شديدة ، مما يضطرم الى تقويتها في قواعدها ، باحجار ثقيلة . وقابلوا امرأة ، تهبط الطريق ، وهي تتعرض للانزلاق بقدميها

الحافيين ، وقد حملت على رأسها برميلا من الحديد مملوءاً بالماء . ووصلوا
 أخيراً الى ساحة صغيرة ، غير منتظمة ، محاطة بثلاثة اكواخ . واتجه الرجل
 الى أحد هذه الاكواخ ، ودفع باباً من الخيزران ، يدور على « فصّالات »
 من النباتات الاستوائية المعترشة . وتنحى جانباً دون ان ينطق بكلمة
 واحدة ، متفرساً في المهندس ، بنفس النظرة غير الودودة . ولم ير داراست
 في الكوخ شيئاً ، في البداية الا ناراً خامدة ، اشعلت على الارض في وسط
 الغرفة تماما . ثم شاهد في زاوية خلفية ، سريراً من النحاس الاصفر ، وقد
 وضعت عليه خشبة عارية مكسرة ، وفي الزاوية الاخرى ، منضدة ، عليها
 اطباق من الطين المحروق ، وبين الزاويتين ، نوع من المنصة ، عليها صورة
 ملوثة تمثل القديس جورجوس . ولم يكن في الكهف باستثناء ما ذكرنا ،
 الا كومة من الاسمال البالية تقوم الى يمين المدخل . كما عقلت الى السقف بعض
 الملابس المختلفة الالوان لتجف على النار . ووقف داراست ساكناً جامداً ،
 يشم رائحة الدخان والفقر ، المنبعثة من الارض ، فكادت تخنقه . وسمع
 الضابط يصفق بيديه وراءه ، فالتفت خلفه ورأى في الضوء ، قلنسوة فتاة
 سوداء جميلة ، تمد له شيئاً . وتناول كأس الخمر المصنوعة من قصب السكر
 واحتساها . وظلت الفتاة واقفة ، لتأخذ منه الكأس الفارغة ، ثم مضت
 بحركة مرنة مطواع ، فشعر داراست فجأة بالرغبة في ان يمسك بها .

وعندما خرج ، لم يميزها بين حشد الزنوج ووجاه القوم الذين احتشدوا ،
 حول الكوخ . فشكر الرجل الكهل ، الذي انحنى دون ان يقول شيئاً . ثم
 غادر المكان يتبعه الضابط ، الذي استأنف شمروحه ، سائلاً متى سيكون
 في وسع الشركة الفرنسية في بريو ، ان تبدأ العمل ، وهل بالامكان اقام بناء
المنجبر المائي قبل حلول فصل الامطار . ولم يعرف داراست ، ماذا يجيب
 فقد كان يفكر حقاً في شيء اخر . ومضى هابطاً الى النهر البارد ينساب

تحت الضباب الرائع . وكان لا يزال مصغياً الى ذلك الصوت العظيم النفاذ ،
الذي كان يسمعه باستمرار منذ وصوله ، والذي لا يدري أينبعث من الماء أو
من الاشجار . وعندما وصل الى الضفة ، تطلع الى المدى البعيد عند خط
البحر الذي لا يرى ؛ وهو البحر الذي يمتد الوف الكيلومترات من المياه
المنعزلة ، التي تصل حتى افريقيا ، وحتى مسقط رأسه في اوروبا .
وقال داراست : « علام يعيش هؤلاء الناس الذين رأيناهم قبل قليل ،
ايها الضابط ؟ »

— انهم يشتغلون عندما يطلب اليهم العمل . اننا فقراء .

— وهل هم افقر اهل المنطقة ؟

— نعم الافقر .

ووصل القاضي في تلك اللحظة ، ينزل في حذائيه الجميلين ، فقال ، ان
الفقراء ، قد بدأوا يحبون المهندس النبيل ، الذي سيقدم لهم ، فرص العمل .
ومضى يقول انهم يرقصون ويغنون في كل يوم . ثم سأل داراست دون ان
يقطع حديثه عما اذا كان قد فكر في العقوبة .

— أية عقوبة ؟

— عقوبة رئيس شرطتنا .

— اطلقوا سراجه . ولكن القاضي اعلن ان هذا مستحيل ، وان من
الواجب معاقبته ، وكان داراست قد مضى في طريقه نحو اينغواي .

* * *

وفي حديقة الينبوع الصغيرة ، الجميلة والرائحة ، في هذا الجو الماطر ،
تدلت عنقايد من الازهار الغريبة ، على النباتات المعترشة ، بين اشجار الموز
والفندوس . وكانت اكوام الاحجار المبتلة تشير الى تقاطع الطرق التي

يخطو عليها حشود من الناس المتنافري الالوان ، فيبينهم الخلاسيون وفريّة
العناصر المتبادلة المتزاوجة ، كالاسبان والهنود ، وهم يتحدثون في اصوات
هامسة خفيفة ، او يتجولون على الممرات التي تحيط بها اشجار الخيزران
منتبهة الى نقاط ، تكثف فيها الدغلان ، والاجمات ، ويصبح من العسير
المرور فيها . وهنا تبدأ الغابة بشكل مفاجيء .

وكان داراست يبحث عن سقراط بين حشود الجماهير عندما فاجأه هذا
من الخلف بوكزة خفيفة قائلا ، وهو يضحك ، وقد تعلق باكتاف داراست
العالية قافزاً ، ومرحاً ... انه يوم عيد .

– « أي عيد ؟ » .

وقال داراست دهشاً مستغرباً : « الا تدري ؟ انه عيد يسوع الطيب .
وهم يأتون في كل سنة الى الكهوف حاملين مطارقهم .
واشار سقراط ، لا الى كهف ، بل الى حشد من الناس ، يبدو منتظراً
في زاوية من الحديقة .

وقال سقراط « اتدري ؟ في ذات يوم حمل النهر من البحر ، تمثال
المسيح الطيب ، لقد عثر عليه بعض الصيادين ، آه ما أجمله ، ما أجمل
هذا التمثال ، وجاءوا به فغسلوه في الكهف . وأخذ احد الحجارة في
الكهف ينمو شيئاً فشيئاً ، وفي كل سنة يحل العيد ، ويذهب الناس بمطارقهم
فيقطعون من الحجر ، اجزاء يحفظونها للبركة ، ولتجلب لهم السعادة ، وهذا
الحجر يستمر في النمو ، ويواصل الناس قطع اجزاء منه . انها المعجزة » .

وكانا قد وصلا الى الكهف ، وأبصرا بمدخله المنخفض ، وراء الناس
الاجتمعين امامه ينتظرون دورهم ، ورأيا على ضوء الشموع في ظلمة الكهف ،
شخصاً متعباً ، وهو يطرق الحجر بمطرقته . وخرج الرجل ، وهو خلاسي

نخيف البنية ، يحمل شارباً طويلاً ، وقد حمل في كفه المفتوحة ، حتى يراها الجميع قطعة صغيرة من الصخر الرطب ، سرعان ما اغلق عليها يده قبل ان يمضي . وأحنى رجل آخر هامته ودخل الى الكهف .

والتفت داراست في كل ناحية واتجاه ، فرأى الحجاج من كل جانب ينتظرون دورهم ، دون ان يتطلعوا اليه ، ولا يكثرثون بالماء المتساقط من الاشجار ، في الواح رقيقة . ووجد نفسه يقف امام الكهف ، متعرضاً لنفس الغشاوة من الماء ، وهو لا يدري سبباً لوقوفه . وها هو يقف امامه باستمرار ، مدة شهر واحد ، أي منذ هبطت قدماه ارض هذه البلاد . انه ينتظر ، في حرارة الايام الحمراء ، وتحت نجوم الليل الصغيرة ، على الرغم من المهام الملقاة على عاتقه ، والسدود التي يجب ان يقيمها ، والطرق التي يتحتم عليه ان يشقها ، وكان العمل الذي جاء من اجله الى هنا ، لم يكن الا ذريعة ، لمفاجأة أو مقابلة لم يكن قط يتصورها ، وانما كانت تنتظر قدومه صابرة في هذا الطرف من العالم . وصحا الى نفسه ، فضى ، دون ان يلتفت اليه أحد من المجموعة الصغيرة من الناس ، التي وقفت الى جانبه ، ومضى الى المخرج . فعليه ان يعود الى النهر والى عمله .

وكان سقراط ينتظره عند الباب ، وقد ضاع في حديث ذرب مع رجل بدين قصير ذي بشرة صفراء ، لا سوداء . وكان رأسه حليقاً ، تماماً ، ويظهر جبهة عريضة واسعة . وكان وجهه المريض الناعم من الناحية الاخرى ، وقد ازدان بلحية سوداء للغاية مربعة الشكل .

وقال سقراط مقدماً إياه الى داراست : « انه بطل ، وسنراه غداً في الموكب » .

كان الرجل يرتدي ملابس البحارة من القماش السميك ، وتحت جاكيتته ،

قيص مخطط ، باللونين الابيض والازرق ، وأخذ يدرس داراست بعينيه
السوداوين الهادئتين . وكان يبتسم في نفس الوقت ، وقد ظهرت جميع اسنانه
البيضاء ، بين شفتيه الغليظتين اللامعتين .

وقال سقراط : « انه يتحدث الاسبانية » ثم التفت الى الرجل الغريب
قائلاً : « تحدث الى المستر داراست . ومضى سقراط راقصاً نحو جماعة جديدة
وتوقف الرجل عن الابتسام متطلعاً الى داراست ، بنظرة فيها فضول صارخ :
« هل يمكنك ان تتحدث ايها القبطان ؟ »

— انا لست قبطاناً .

— هذا لا يهم ، ولكنك نبيل ، وقد ابلغني ذلك سقراط .

— لا . انا لست نبيلًا ، ولكن والدي كان نبيلًا ، وكان والده وجميع
اسلافه كذلك . أما الآن ، فلم يعد هناك نبلاء في بلادنا .

وقال الزنجي ضاحكاً : — آه ، فهمت ، كل انسان نبيل .

— لا ، ليس الأمر كذلك ، فليس هناك الآن نبلاء أو عامة شعب .

وفكر الزنجي قليلاً ثم حزم امره وقال : « ألا يعمل احد في بلادكم ؟ أو
لا يتألم احد ؟

— بلى ، ملايين الناس .

— اذن هؤلاء هم عامة الشعب .

— نعم ، من هذه الناحية ، هم عامة الشعب ، ولكن السادة هم التجار والشُرَط .

وقطب الخلاسي وجهه اللطيف ، ثم مهم قائلاً : « آه ، البيع والشراء ،
يا للاذارة . ومع الشُرَط ، تسيطر الكلاب » .

وانفجر الرجل ضاحكاً بصورة مفاجئة . ثم قال : « وأنت ، هل تبيع ؟

— لا . ابدأ ، انا اضع الجسور والطرق .

هذا حسن . أما انا فطباخ في باخرة . واذا رغبت اعددت لك طبقاً
من الفول الاسود .
- حسناً .

واقترب الطباخ من داراست وامسك بذراعه وقال : « اسمع ، انا احب
ما تقوله ، وسأحدثك بدوري عن اشياء قد تحبها » .

وقاده قرب الباب الى مقعد من الخيزران تحت اجمة من اشجاره ، ثم
قال : « كنت في البحر على بعد من ايفواي ، على ظهر ناقلة بترول ساحلية
صغيرة تقوم بتموين الموانئ على طول الشاطئ . واشتعلت النيران في السفينة .
ولم يكن ذلك بسبب خطأ مني ، فقد كنت اعرف عملي وانما نتيجة سوء
الطالع . وتمكنا من ازالة قوارب النجاة . وفي الليل ، هاج البحر ، وقلب
القارب ، فزلت في الماء ، وعندما صعدت الى سطح البحر ثانية ، اصبحت
القارب برأسي . فأبعدت عنه . وكان الليل مظلماً ، والامواج رهيبية ،
بالاضافة الى جهلي بالسباحة . وسيطر عليّ الفزع . وآنداك رأيت ضوءاً عن
كثب عرفت فيه ضوء كنيسة المسيح الطيب في ايفواي . ونذرت للمسيح انه
اذا انقذني حملت على رأسي حجراً زنته مائة رطل في موكبه السنوي . وقد
لا تصدقني ، ولكن سرعان ما هبطت الامواج وهداً البحر ، كما شعرت
بالطمأنينة تغمر قلبي . وسبحت ببطء ، وكنت سعيداً حتى وصلت الشاطئ
وغداً سأفي بنذري .

وتطلع الى داراست في نظرة تنطق بالشك وقال : « انك لا تضحك ؟ »
- ، انا لا اضحك ، على الانسان أن يفني بما يعد .

وربت الرجل على كتفه وقال : « والآن تعال معي الى بيت اخي قرب
النهر . سأطبخ لك بعض الفول .

فرد داراست بقوله : « لا ، لدي بعض الاعمال الان . لتكن دعوتك في المساء اذا رغبت .

— حسناً . ولكن الليلة ، هناك رقص وصلوات في الكوخ الكبير .
فالיום عيد القديس جورجوس .

وسأله داراست اذا كان قد رقص ايضاً ، فظهر العبوس على وجه الطباخ فجأة ، واصبحت عيناه لأول مرة ، تتحركان . وقال : « لا . لا . انا لا ارقص . علي ان احمل غداً الحجر . انه ثقيل . وسأذهب هذا المساء لاحتفي بالقديس ، ثم اذهب مبكراً .

— وهل يطول الاحتفال ؟

— طيلة الليل ، وقد يمتد الى ساعات الصباح .

وتطلع الى داراست بنظرة تحمل طابع الحجل ثم قال : « تعال الى الرقص ، ففي وسعك ان تأخذني الى البيت فيما بعد . والا ، فسأظل هناك ارقص . وقد لا اتمكن من البقاء بعيداً عنه .

— هل تحب الرقص ؟

— نعم . كل الحب . ويضاف الى هذا هناك السيكار ، والقديون والنساء . فقد تنسى كل شيء وتكف عن الاطاعة .

— وهل ثمة نساء ايضاً ؟ جميع نساء البلدة ؟

— لا ، جميع نساء الأكواخ ، لا البلدة .

واسترد طباخ الباخرة ابتسامته وقال : « تعال . سأطيع اوامر القبطان ، وستساعدني على الوفاء بنذري في الغد » .

وأحس داراست ببعض القلق ، فماذا يعني ذلك النذر السخيف له ؟

ولكنه تطلع الى ذلك الوجه الجميل الصريح يتطلع اليه بثقة ، وقد علت به بسمه مشرقة ونضحت بشرته السوداء بالصحة والحيوية . وقال : « سآتي وسأسير معك الان قليلا .

وتخيل دون ان يدري سبباً ، تلك الفتاة السوداء ، وهي تقدم له كأس الترحيب ذلك اليوم .

وخرجنا من الحديقة ، وسارا عبر عدة شوارع موحلة ، ثم وصلا الى الساحة المترعة وقد بدت اكبر من حجمها بفضل هذه البيوت الخفيضة التي تحيط بها . وكانت الرطوبة تتساقط الان على الجدران المطلية بالجلس ، على الرغم من هطول المطر ، لم يزد عما كان عليه . وكان هدير النهر وحفيف الاشجار ، يصلان اليها عبر السماء الاسفنجية الممتدة الى ما لا نهاية ، وقد خفتنا بعض الشيء . وكنا يسيران في خطو متزن ، فداراست يمشي متاقلاً ، بينما الطباخ ، يخطو خطوات مرنة . وكان هذا ، يرفع رأسه بين آونة واخرى ليبتسم الى صديقه . ومضيا في اتجاه الكنيسة . التي كانت تبدو لها مرتفعة فوق البيوت ، حتى وصلا الى نهاية الساحة ، ثم انتقلا الى شوارع موحلة اخرى امتلأت بروائح الطهي المستفزة . وكنا يريان بين آونة واخرى ، امرأة تحمل طبقاً ، او قدر مطبخ ، تطل برأسها فضولاً ، من احد الابواب ثم تعود لتخفي على التو . ومرا بمدخل الكنيسة ، ثم سرعان ما ولجا حياً قديماً من احياء البلدة ، تمتد فيه البيوت الخفيضة المتشابهة ، وخرجنا منه فجأة على هدير النهر الذي لا يرى والذي يسير وراء منطقة الاكواخ ، التي تذكرها داراست .

وقال داراست : « حسناً ، سأتركك الان ، لاراك عند المساء .

— أجل . أمام الكنيسة .

ولكن الطباخ لم يتخل عن يد داراست ، ثم تردد واخيراً حزم امره

وقال : « وأنت ألم يسبق لك في حياتك ان استغثت ، ووعدت بنذر .

— بلى ، مرة واحدة كما اعتقد .

— في حادث غرق باخرة ؟

— اذا احببت ان تكون . وسحب داراست يده من يد الطباخ بمخشونة
وعندما كان على وشك ان يمضي في طريقه التقت عيناه بعيني الطباخ . فتردد
لحظة ثم ابتسم .

وقال دارست : « في وسعي ان اخبرك بالحادث على الرغم من عدم
اهميته ، كان ثمة شخص على وشك الموت بسبب غلطة ارتكبتها ، ويبدو لي
انني قد استغثت .

— وهل نذرت ؟

— لا . وكنت احب ان انذر .

— أوقع الحادث منذ عهد بعيد ؟

— قبل أن آتي الى هنا بوقت قصير .

وأمسك الطباخ بذقنه يجماع يديه ، وكانت عيناه تومضان ؛ وقال :

— انك قبطان . وبيتي هو بيتك . ثم انك ستحملني على الوفاء بنذري ،

وكأنك الذي وفيت به . وهذا مما يربحك قليلا .

وابتسم داراست وهو يقول : لا أظن ذلك .

إنك متعجرف يا قبطان

— كنت متعجرفاً . أما الآن ، فأنا وحيد . ولكن قل لي . هل كان

مسيحك الطيب يرد على استغاثتك دائماً ؟

— دائماً ! ... لا يا قبطان ؟

— اذن ؟

وانفجر الطباخ في ضحكة مرحة ، صبيانية وقال : حسناً ، انه حر ،
اليس كذلك ؟ .

وكان رئيس البلدية قد طلب من داراست في النادي حيث تناول طعام
الغداء مع وجهاء البلدة ، ان يوقع على سجل الزائرين ، لتحفظ البلدة
بأثر من الحادث العظيم ، الممثل بمجيئه الى ايفواي . وعثر القاضي على جملتين
او ثلاث جل مفيدة ، يكيل بواسطتها المديح اليه ، مضيفاً إليها الثناء على
فضائل الضيف ومواهبه ، وعلى البساطة التي يمثل فيها بينهم البلد العظيم
الذي يعتز بالانتماء اليه . ورد داراست ببساطة ، ان مما يشرفه حقاً ويشرف
الشركة التي ينتمي اليها ، ان تنال هذا العمل البناء الضخم الذي
ستجزه في البلدة . وهنا اعرب القاضي عن اعجابه بهذا التواضع ثم قال :
« على أي حال ، هل فكرت بما يجب عمله مع رئيس الشرط ؟ » .
وابتسم داراست وقال : « نعم ، لقد وجدت الحل ، ومضى يقول انه
يعتبره مأثرة شخصية ، فضلاً ممتازاً ، اذا عفي عن الشخص الاحق ،
باسمه حتى يتيسر له ، ان تكون اقامته في ايفواي التي أحبها كل الحب ، كما
احب اهلها ، ستبدأ في جو من السلام والصداقة . وهز القاضي الذي كان
يصفي لاقواله ويبتسم ، رأسه ، وبعد ان تأمل لحظة واحدة في الكلمات
التي نطق بها داراست ، وصياغتها تأمل الخبير ، دعا الحاضرين الى تمجيد
التقاليد الفرنسية العظيمة ، واستدار الى داراست ثانية معرباً عن اقتناعه ،
وقال منبهاً حديثه : « واذا كان هذا هو ما تريد ، فسنناول اليوم طعام
العشاء معاً ، ومعنا رئيس الشرط . واعتذر داراست بأنه مدعو لدى بعض
الاصدقاء ، لحضور حفلة الرقص في الاكواخ ، فعلق القاضي على ذلك بقوله :
« آه ، هذا احسن ، يسرني انك ماض الى هناك . وسترى بنفسك ان

الانسان لا يستطيع ان يقاوم ، عاطفة الحب القوية التي يشعر بها لشعبنا .

* * *

وجلس داراست ذلك المساء ، مع طبابخ السفينة واخيه ، حول بقايا نار مشتعلة في وسط الكوخ الذي كان المهندس قد زاره في الصباح . ولم يندهش الأخ لرؤيته عائداً ، وكان يتحدث الاسبانية بصعوبة . ولذا فقد اكتفى بهزات رأسه ، طيلة الوقت . أما الطبابخ ، فقد ابدى اهتماماً شديداً بالكاتدرائية ، كما اخذ يطنب في الحديث عن حساء الفول . وهبط الليل ، وعلى الرغم من ان داراست كان لا يزال يرى الطبابخ وأخاه ، الا انه لم يكن قادراً على التمييز في طرف الكوخ البعيد ، بين شخصين ، امرأة عجوز ، والفتاة التي قدمت له الكأس . ومضى في الوقت نفسه ، يسمع هدير النهر الرتيب .

ونفض الطبابخ قائلاً : « لقد حان الوقت » . وهبوا على اقدامهم ، ولكن المرأتين لم تتحركا . وخرج الرجال وحدهم . وتردد داراست ثانية ثم انضم الى الآخرين . كان الليل ، قد ادلمت ظلمته ، وتوقف المطر ، عن الهطول ، بينما ظلت السماء السوداء الشاحبة على حالها من الميوعة . وبدأت النجوم ، تلعب عبر مياهها السوداء الشفافة هناك في الافق البعيد . وسرعات ما اهتزت هذه النجوم ، وتساقطت واحدة اثر اخرى ، في النهر ، وكان آخر الاضواء ، ينضج من السماء وامتلأ الهواء الثقيل برائحة الماء والدخان . وسمعت اصوات الغابة الهائلة القريبة ، على الرغم من جمودها ، وسكونها . وانفجرت عن كئيب ، بصورة مفاجئة ، اصوات الطبول والغناء ، وكانت خافقة في البداية ، ثم اخذت تتضح شيئاً فشيئاً ، كلما اقترب مصدرها ، ثم توقفت اخيراً . ورأى داراست بعد قليل ، موكباً من الفتيات السوداوات ،

يرتدين ملابس بيضاء من الحرير الخام . وكان يلحق بهذا الموكب زنجي طويل وقد ارتدى جاكيتة حمراء ضيقة ، تزينها قلادة من الاسنان المختلفة الالوان ، ووراء هذا الرجل ، يسير حشد غير منظم من الرجال يرتدون البيجامات البيضاء ، ولفيف من الموسيقيين يحملون طبولاً قصيرة واسعة ومثلثة الشكل . واقتراح الطباخ ان يلحقوا بالرجال .

وساروا مع النهر بضع مئات من الياردات ، ووصلوا الى كوخ يقوم وراء آخر الاكواخ الاخرى ، وكان كبيراً وخالياً ومريحاً وقد طليت جدرانها بالجص . وكانت ارضه من الطين ، وسقفه من البوص وسعف النخيل ، يقوم على عمود مركزي في الاوسط وجدران عارية . وفي نهاية الكوخ ، مذبح ، تغطيه الشموع التي لا تضيء اكثر من نصف القاعة ، وفوق هذا المذبح صورة كبيرة ملونة للقديس جورجوس ، يحلله الجذاب وهو يقتل التنين . وتحت المذبح كوة مزخرفة بورق « الروكوكو » الملون ، وفي داخلها تمثال صغير ، من الآجر الاحمر اللون ، يمثل الها له قرون ، يقف بين شمعة ، وطست للماء . وكان الاله ، وقد علت وجهه نظرة متوحشة ، يلوح بيده ، مطواة ضخمة ، مصنوعة من ورق الفضة .

وقاد الطباخ داراست الى زاوية ، حيث وقفا مستندين الى الحائط قرب الباب ، وهمس قائلاً : « في وسعنا بهذه الطريقة ان نترك المكان دون ان نززع احداً . وكان الكوخ والحق يقال مكتظاً بالرجال والنساء . وأخذت الحرارة في الارتفاع ، واتخذ الموسيقيون اماكنهم ، على جانبي المذبح الصغير . وافترق الرجال عن النساء ، والفوا حلقتين متراكبتين للرقص ، مع الرجال في الدائرة الداخلية . ووقف في المركز القائد الاسود يحاكتته الحمراء . واتكأ داراست على الجدار ، ضاماً يديه .

واخترق القائد ، حلقة الراقصين وتقدم اليها ، ونطق ببضع عبارات

بطريقة جدية وجهها الى الطباخ . وقال الطباخ « افتح يديك ، يا قبطان ، فانت بضمها الى صدرك ، تمنع روح القديس من الهبوط » . واطاع داراست ، فأرعى يديه الى جانبيه . ولكنه ظل واقفاً وقد استند الى الحائط ، بأعضائه الطويلة الثقيلة وجسمه الكبير ، وهو ينضح بالعرق . وبدأ داراست نفسه مثل إله حيواني خير . وبعد ان تطلع اليها الزنجي الطويل ، وارتضى من وقفته عاد الى موضعه . وافتتح الانشاد بصوت مجلجل ، رد عليه الحاضرون كمجموعة تصحبهم الطبول . وبدأت الحلقتان تدوران في اتجاهين متعاكسين في رقص ثقيل مثير اكثر منه مجرد دوس بباطن القدم ، تؤكد حركات الارذاف الثقيلة .

واشتدت الحرارة ، وانكشت الوقفات بين الرقصات ، وأخذ الرقص يسرع في خطوه . ودون ان يمترض ايقاع الاخرين ، او يتوقف عن الرقص ، فقد خطا الزنجي الطويل عبر الحلقتين ، متجهاً الى المذبح . وعاد الى موضعه وهو يحمل قدحاً مملوءاً بالماء ، وشعلة مضاءة ثبتها في الارض في منتصف الكوخ . وصب الماء حول الشعلة في دائرتين متراكبتين ، ثم انتصب بقامته وتطلع بعينيه المجنونتين نحو السقف . لقد وقف يحسده المشدود ، ساكناً ينتظر . وهمس الطباخ قائلاً : « انظر ! انظر ! ها هو القديس جورج آت . » وكانت عيناه تكادان تقفزان من محجريها .

وبالفعل ، بدا على بعض الراقصين انهم في غيبوبة ، ولكنها غيبوبة متزمته ، وقد وضعوا ايديهم في خصورهم ، وصلبت خطامهم ، وراحت عيونهم تتفرس في الفراغ . أما البعض الآخر ، فقد اسرعوا في ايقاعهم ، وانحنوا في حالة تشنجية ، يهتزون باجسادهم ، واخذوا يخرجون صيحات غير واضحة ، وارتفعت الصيحات شيئاً فشيئاً ، وعندما انطلقت في زعيق جماعي ، صرخ القائد ، وكانت عيناه لا تزالان صاعدتين ، صرخة عالية جامدة ، خرجت

من صميم رثيته . وظلت نفس الكلمات تنطلق مع هذا الصراخ . وقال الطباخ : « اترى انه يصف نفسه ببيدان معركة الاله . وتطلع داراست الى الطباخ ، وقد ادهشه التبدل الذي طرأ على صوته . وكان هذا قد مال الى الامام ، وقد انكشت قبضته ، وبرزت عيناه ، يتابع خطوات الراقصين دون ان يتحرك من موضعه . واخيراً لاحظ ، انه هو نفسه ، قد شرع يرقص بجميع ثقله دون ان يحرك قدميه .

وبدأت الطبول تدق بعنف مرة واحدة ، وفجأة ، انطلق الشيطان الكبير الاحمر من عقاله . كانت عيناه تبرقان ، وأعضاؤه الاربعة تدور حوله بشدة ، وكان يقفز وقد ثنى ركبته على قدم واحدة ، ليعود فيقفز على القدم الثانية ، مسرعاً في الايقاع الى الحد الذي بدا فيه وكأنه على وشك الطيران في أجزاء مفتتة . ووقف فجأة على حدود احدى قفزاته ليتفرّس في من حوله بنظرة فظيعة متكبرة ، بينما كانت الطبول تقصف كالرعد . وقفز على الفور راقص من الزاوية المظلمة ، وركع أمامه مقدماً رمحاً صغيراً الى الرجل الذي حلت فيه الروح . وأخذ الزنجي الطويل الرمح دون ان يتطلع الى من حوله ، وحوّمْ به فوق رأسه . ورأى داراست في تلك اللحظة صديقه الطباخ يرقص بين الآخرين . ولم يكن المهندس قد رآه ، وهو يذهب من جانبه .

وارتفعت من الارض ، سحابة من الغبار في الضوء الاحمر ، غير الواثق ، فأحالت الهواء الى كتلة كثيفة ، تكاد تلتصق بجلد الانسان ، وشعر داراست بالاعياء بصورة تدريجية يتقلب عليه ، وأخذ يتنفس بصعوبة شديدة . ولم يستطع ان ير كيف أمسك الراقصون بالسيكارات الطويلة التي يدخنونها وهم يرقصون ، وامتلأ الكوخ برائحة السيكار ، وأحس برأسه يسبح ، وابصر بالطباخ يمر بقربه وهو لا يزال يرقص وينفث الدخان من سيكاره . وقال

داراست « لا تدخن ! » . وقبع الطباخ كالخنزير دون ان يضيع ايقاع الموسيقى ،
محملاً في العمود الاوسط . في هيئة الملاكم الذي أوشك على الانهيار ، بينما
يدور عموده الفقري في هزات طويلة . وكانت الى جانبه زنجية بدينة تدور
برأسها البهيمي من جانب لآخر ، وهي تعوي . اما الزنجيات الشابات بصورة
خاصة ، فقد ضمن في غيبوبة خيفة وقد التصقت اقدامهن بالارض بينما اهتزت
اجسامهن من اخمص القدم حتى هامة الرأس ، في حركات تشنجية ، تشدد
عنفاً كلما وصلت الى الاكتاف . وكانت رؤوسهن تترنح جيئة وذهاباً وكأنها
انفصلت عن اجسادهن المبتورة . وشرع الجميع في الوقت نفسه يعمدون باستمرار ،
عواء جماعياً لا نغمة فيه ، دون ان يتوقفوا لحظة واحدة ، ليستريحوا أو
ليدخلوا تلحيناً جديداً وكان الاجساد قد توثقت عضلاً واعصاباً ، في انفجار
متعب ، لتحديث صوتاً صادراً عن مخلوقات كانت حتى الآن صامتة في قرارة
نفوسهم . وأخذت النساء ، وهن يعوين ، يسقطن واحدة اثر اخرى ،
فيقترب القائد الاسود ، ويركع الى جانب كل منهن ، ويضغط بسرعة
وبصورة تشنجية على صدغيها بيده الضخمة التي تتفجر منها العضلات السوداء ،
فتنهض ، وهي تترنح ، وتعود الى الرقص والعواء ، بصورة ضعيفة في البداية
لا تلبث ان تشدد وتعلو فيما بعد ، قبل ان تسقط من جديد ، لتنهض ثانية ،
وتبدأ الرقص وهكذا باستمرار ، حتى ينخفض صوت العواء بصورة عامة .
ويتبدل ، الى نوع من النباح الحزين ، يقطعه اللهاث . وأحس داراست
بالانهاك ، وقد تصلبت عضلاته ، من الرقصة الطويلة التي رقصها وهو جامد
في مكانه ، وكاد يختنق من صمته ، فشرع بنفسه يترنح . وقد تضافرت الحرارة
مع الغبار ، ودخان السيكار ، ورائحة الاجساد ، فجعلت الهواء ، غير قابل
للتنفس . وتطلع الى الطباخ الذي اختفى . وسمح داراست لنفسه بالانزلاق
على الجدار ، حتى اندفع خارجاً وهو يحاول ان يمنع الغثيان في احشائه .

وعندما فتح عينيه ، كان الهواء لا يزال خامداً ، وان كانت الاصوات قد خفتت . وكانت الطبول وحدها تقرع نغماً موزوناً ، والجماعات في كل زاوية من زوايا الكوخ ، وقد غطوا انفسهم باقمشة بيضاء ، يقضون الوقت بقراع الارض باقدامهم . أما في منتصف الغرفة ، التي رفع منها الشمع والزجاج . فقد رأى مجموعة من الفتيات السود يرقصن وهن اشبه ما يكن في حالة تنويم مغناطيسي ، رقصاً بطيئاً ناعماً ، حتى انهن تركن قرع الطبول يسبقهن . وكن قد اغلقن اعينهن ولكنهن ظللن واقفات ، يتأرجحن على اخص اقدامهن ، دائماً في نفس البقعة . وكانت اثنتان منها بدينتين ، تغطيان وجهيهما بقناع من الياف النخيل . وهما تحيطان بفتاة اخرى طويلة رقيقة ، ترتدي لباساً تنكرياً . وتعرف داراست فيها على الفور ابنة مضيفه . وكانت تلبس لباساً اخضر ، وقد وضعت على رأسها قبعة صياد من القز الازرق مقلوبة من مقدمها ، وقد ازدانت بالريش ، وهي تحمل في يدها قوساً اخضر واصفر ومعه سهم ، التصق بطرفه طير متعدد الألوان . وكان رأسها الجميل يترنح على جسدها الرقيق ببطء ، وتعود الى الوراء قليلاً فيعكس وجهها النائم حزناً بريئاً . وكانت عند توقف الموسيقى تتأود وكأنها نصف يقظى . ومع ذلك ، فقد وهبها قرع الطبول المتزايد ، نوعاً من العون غير المرئي لتضم حولها زخارفها الغريبة ، حتى تتوقف ثانية ، مع الموسيقى ، متأرجحة ، على حافة التوازن ، ومخرجة صوتاً كأصوات الطيور ، فيه نغم وفيه رقة .

وكان داراست مسحوراً بهذه الرقصة البطيئة تقوم بها ديانا السوداء ، عندما خرج الطباخ فجأة امامه . وقد اضطرب وجهه الرقيق ، اذ اختفت الرقة من عينيه ، ليحل محلها شرابة اكيدة . وقال ببرود ، وكأنه يحدث شخصاً غريباً : « لقد اصبح الوقت متأخراً يا قبطان . وسيواصلون الرقص

طيلة الليل ، ولكنهم لا يريدون ان تظل هنا . ونهض داراست ، وقد ثقل رأسه ، وتبع الطباخ ، الذي مشى بجانب الحائط الى الباب . وعندما وصلا العتبة ، تنحى الطباخ ، فاتحاً باب الخيزران ، فدخل منه داراست الى الخارج . والتفت خلفه ليرى الطباخ ، لم يتحرك من مكانه . فقال : « تعال . فبعد قليل ، عليك ان تحمل الحجر .

وقال الطباخ ، في تعبير صامد : « سأظل هنا » .

— وهل تعود ؟

ولم يرد الطباخ بل أخذ يدفع الباب ببطء ، الذي كان لا يزال داراست يسكه بيده . وظلا على هذه الحال نحواً من ثانية ، حتى استسلم داراست هازأً كنفية . ثم مضى في طريقه .

وكان الليل ، يعبق بالشذى العطري الذي انبعث في الهواء من جديد ، وبدأت النجوم القليلة في السماء الجنوبية فوق الغابة ، وقد غشاها ضباب غير مرئي ، تلمع خافتة ، ضعيفة . وكان الهواء الرطب ثقيلًا قاسياً ، ومع ذلك فقد أحس ببرودته عندما خرج من الكوخ ، وصعد داراست المنحدر ، الكثير المزالق وهو يترنح كرجل ثمل ، يسير في طريق ملأى بالحفر . وكانت الغابة القريبة تزجر ، زجرة خافتة . وعلا هدير النهر . وبدأت القارة بأسرها وهي تخرج من الليل ، وغلب عليه الفثيان . وخيل اليه انه يرد ، لو ثقيلاً جميع هذه البلاد ، وان يتقياً معها أحزان ما فيها من مدى فسيح ، ونور أخضر ينبعث من غاباتها ، ومن الاحضان المظلمة لأنهارها الكبيرة المهجورة . وكانت هذه الارض واسعة يختلط فيها الدم بالفصول ، ويذوب الزمن . والحياة فيها تتدفق مع التربة ، وعلى الانسان لكي ينسجم معها ، ان يستلقي وينام سنوات طويلة على الارض الموحلة او الجافة . أما هناك في اوروبا ،

فيمثل العار والغضب . أما هنا ، فالمنفى والوحدة ، بين هؤلاء الجانبين الذين لا يتحركون ولكنهم تشنجوا في رقصات يواصلونها حتى الموت . وظلت تصل الى اذنيه في ذلك الليل الرطب ، الثقل برائحة الخضرة ، تلك الصيحة التي تشبه صوت الطائر الجريح ، والمنبئة من تلك الفتاة الجميلة النائمة وهي تؤدي رقصتها .

* * *

وعندما استيقظ دارا ست بعد ساعات سيء ، وكأنه يعاني فيه كابوساً ، أحس بصداع شديد ، يكاد يعصف برأسه ، وكانت الحرارة مشبعة بالرطوبة تلقي بظلمها الثقيل على البلدة والغابة الهادئة . ووقف في رواق المستشفى ، ينتظر وهو يتطلع الى ساعته ، التي توقفت عن السير ، وقد بات متشككاً من الوقت وقد ادهشه وضع النهار وهدوء البلدة . وارتفعت السماء الزرقاء الصافية على مدى خفيض فوق اسطحة المنازل . ونامت النور الامريكية ذات الريش الاصفر وقد اكدت بالحرارة ، على البيت المقابل للمستشفى . وفجأة خفق احدها بجناحيه ، وفتح منقاره ، واستعد للطيران ، بعد ان رفر فرقتين باجنحته وارتفع عدة بوصات فوق السطح ليعود بعدها الى اغفائه فوراً .

ومضى المهندس باتجاه المدينة ، فرأى ساحتها الرئيسية العامة خالية ، خلو الشوارع التي مر بها . وارتفعت ضبابية منخفضة بعيداً على ضفتي النهر ، فوق الغابة . وكانت الحرارة تهبط بصورة عمودية ، وبجث داراست عن مكان ظليل . ورأى في تلك اللحظة ، وراء السدف التي تقطعي أحد البيوت رجلاً قصيراً يشير اليه ، وعندما اقترب منه عرف فيه سقراط .

وقال هذا : - « حسناً يا مستر داراست ، هل اعجبك الاحتفال .

ورد داراست بان الحر كان شديداً داخل الكوخ ، وانه فضل عليه السماء ونسيم الليل العليل .

وقال سقراط - « حسنًا ففي بلادك ، ليس هناك الا القداس ، اذ لا رقص عندكم » وفرك سقراط يديه ، وقفز على رجل واحدة ، ودار حول نفسه عدة دورات في الهواء ثم قهقه قهقهة عالية وهو يقول : « هذا ليس ممكناً ، انه غير ممكن » . وتطلع الى داراست بفضول وقال : « وانت هل تذهب الى القداس ؟ »

- لا .

- اذن ، اين تذهب الآن ؟

- لا هدف لي ولا اعرف .

وضحك داراست ايضاً وقال : « هذا ليس ممكناً ، ان يكون النبيل دون كنيسة ودون أي شيء آخر .

وضحك داراست ايضاً وقال : « اجل ، وهكذا فلم أجد مكاناً لي ، ولذا تركت وطني .

- ابق معنا يا مستر داراست ، انني احبك .

- كم اود ياسقراط لو بقيت ، ولكنني لا اعرف الرقص .

وردد الصمت الخيم على مكان رجع قهقهتها .

وقال سقراط - « آه » لقد نسيت . ان رئيس البلدية يريد ان يراك انه يتناول غداءه في النادي .

ومضى سقراط دون وداع او انذار في الطريق الى المستشفى .

وهتف به داراست قائلاً : « اين تذهب ؟ »

وقد سقراط صوت الشخير وقال : « لا انا . فبعد قليل يمر الموكب ، واستأنف شخير ، وهو يركض نصف ركضة .

كان رئيس البلدية ، يريد ان يقدم لداراست ، مكان الشرف والصدارة ، ليرى الموكب . وشرح له الاحتفال بينما كان يشاركه في تناول طبق من الازر واللحم . تكفي معجزته لشفاء انسان مصاب بالشلل . وتقرر ان يأخذوا أولاً اماكنها على شرفة دار القاضي المقابلة للكنيسة لرؤية الموكب خارجاً منها . وبعد ذلك ينتقلان الى دار البلدية في الشارع الرئيسي المؤدي الى الكنيسة ، الذي سيمر به الخطاة في طريق العودة الى الكنيسة . على ان يرافقه اليها القاضي ورئيس الشرطة ، لاضطرار رئيس البلدية للاشتراك في الاحتفال . وكان رئيس الشرطة في غرفة النادي ، يغدق المحاملات على المستر داراست ، بابتسامة لا تكل ولا تمل ، مغرقاً اياه بخطب لا يفهمها ولكنها تنطوي كما يبدو على كلمات ذات معان رائعة . وعندما غادر داراست دار النادي ، سارع رئيس الشرطة الى فتح الطريق امامه ، والامساك بالابواب ليمر منها .

ومضى الرجلان ، تحت الشمس المحرقة ، في المدينة الهادئة الصامتة ، متجهين الى دار القاضي . وكان صوت خطواتها ، الصوت الوحيد الذي يسمع وسط ذلك الهدوء الشامل . وفجأة انطلق سهم ناري متفجراً في شارع مجاور ، فايقظ اسراب النور ، التي كانت تغط في سباتها العميق على اسطحة المنازل . وارتفعت عشرات الاسهم النارية من كل مكان ، وانفتحت الابواب ، وبدأ الناس يخرجون من بيوتهم ويملأون الشوارع الضيقة .

واعرب القاضي عن اعتزازه باستقباله في داره التي لا تليق به ، وقاده فوق سلم جميل رائع ، مدهون باللون الطباشيري الازرق . وعندما وصل الى الدارة ، كانت الابواب تفتح ، وتطل منها رؤوس سوداء صغيرة ،

لتعود فتختفي وراء ضحكات مرحة . وكانت الغرفة الرئيسية جميلة في هندستها ، وتصميمها ولا تضم الا اثاثاً ، من خشب النخيل « الروطاني » ، وبعض الاقفاص ، المملأ بالطيور المتناغية . واطلت الشرفة التي جلس عليها القاضي وداراست ، على الساحة الصغيرة امام الكنيسة . وبدأت الجموع الآن تملأ هذه الساحة ، وقد سكنت سكناً غريباً ، تحت هذه الحرارة الهابطة من السماء في موجات مرئية . وركض الاطفال وحدهم في الساحة ، ليشعلوا الاسهم النارية ، فيرتفع دوي تفجرها ، واحداً اثر آخر في سلسلة متلاحقة سريعة . وبدأت الكنيسة من المكان الذي يقفان عليه ، يجدرانها المدهونة بالخصّ ودرجاتها الاثني عشرة ، وابراجها الزرقاء والمذهبة ، اصفر مما هي عليه .

وارتفع صوت الأرغون ، فجأة داخلها . والتفتت الجماهير الى الاروقة ، وانسحبت الى جوانب الساحة . ورفع الرجال قبعاتهم ، بينما ركعت النساء على ركبتين . وأخذ الارغون البعيد ، يعزف نغماً يشبه لحن النشيد العسكري . وارتفع صوت غريب من الاجنحة من الصحراء ، وظهرت طائرة صغيرة يحناحين شفافين ، وجسم واهن ضعيف ، لا مكان له في هذا العالم الذي لا عمر له ، فوق الاشجار ، وحلقت قليلاً فوق الساحة ، ثم مرت فوق الرؤوس وهي ترسل ازيزاً عالياً ، واتجهت نحو مصب النهر ، حيث ، اختفت هناك .

وانبعثت من ظلال الكنيسة ضوء خافتة اثارت الاهتمام . فقد توقف الارغون ، ليحل محله صوت الطبول والصناجات ، التي لم تكن تظهر في الاروقة . وخرج الخطاة من الكنيسة وقد ارتدوا ثياباً سوداء كثياب الكهنة ، واحداً اثر آخر ، وشكلوا جماعات خارج الابواب بدأت تهبط الدرج . وخرج وراءهم عدد من التائبين في ثيابهم البيضاء ، يحملون الاعلام

البيضاء والزرقاء ، تتلوهم مجموعة صغيرة من الصبيان وقد ارتدوا ثياباً كالملائكة ، يمثلون اخويات العذراء ورعوياتها ، بوجوههم السوداء الجادة . واخيراً ، ظهر تابوت متعدد الالوان ، يحمله عدد من وجوه البلدة ، وقد تصبب العرق منهم ، وهم يرتدون ملابسهم السوداء ، وفي هذا التابوت تمثال المسيح الطيب نفسه ، وهو يحمل قسبة في يده ، وقد وضع على رأسه تاجاً من الاشواك والدماء تنزف منه ، وهو يترنح فوق الجماهير التي اصطفت على السلام .

وعندما وصل التابوت الى اسفل السلم ، توقف الموكب قليلاً بينما حاول الخطاة ان يسيروا في صفوف منتظمة . وعندئذ رأى داراست صديقه طباطخ السفينة وقد تعرتى نصفه الاعلى من اللباس ، يخرج من الرواق ، يحمل على رأسه الملتحية صخرة مستطيلة كبيرة الحجم ، وقد وضعت على بساط من الفلين . وهبط الطباخ درج الكنيسة بخطوة ثابتة متزنة ، وقد توازن الحجر تماماً في القوس الذي شكلته ذراعاها القصيرتان المفتولتا العضلات . وعندما اصبح وراء التابوت تحرك الموكب . واندفع الموسيقيون من الاروقة ، يرتدون معاطف فاتحة اللون ، وينفخون في آلات نحاسية مربوطة بالاشرطة وسار الخطاة والتائبون على انغام العزف الموسيقي السريع ، حتى وصلوا الى احد الشوارع المؤدية الى الساحة العامة ، وعندما اختفى التابوت وراءهم ، لم يعد يظهر الا الطباخ وآخر الموسيقيين . وتحركت الجماهير وراءهم ، وسط تفجر الاسهم النارية ، بينما عادت الطائرة بأزيزها الذي يصم الآذان ، لتطير فوق الجماهير التي تسير في المؤخرة . وركز داراست اهتمامه بالطباخ ، الذي كان يختمني الآن في الشارع ، ورأى كتفيه وقد بدءا يميلان . ولكنه لم يستطع ان يرى بوضوح من هذه المسافة البعيدة .

ووصل القاضي ورئيس الشرط وداراست ، عبر الشوارع الخالية وبين

الحوانيت المغلقة والابواب المدرسية الى دار البلدية . وعندما ابتعدوا عن الفرقة الموسيقية وقاذفي الاسهم النارية ، عاد الصمت ليغلف البلدة الهادئة ، كما عادت بعض النصور بالفعل الى اماكنها على اسطحة المنازل . وكانت دار البلدية تقوم في شارع طويل ضيق يمتد من القطاعات الجانبية الى ساحة الكنيسة . وكان الشارع خالياً في تلك اللحظة . ولم يكن ليظهر من الشرفة على مدى النظر الا ارضعة الشوارع وقد امتلأت بالحفر التي امتلأت بالمياه الآسنة من الامطار الاخيرة . اما الشمس وقد انخفضت بعض الشيء ، فكانت لا تزال تقضم في جدران الابنية التي لا نوافذ فيها عبر الشارع .

وانتظروا وقتاً طويلاً ، طيلة المدة التي قضاهما داراست وهو يشعر بالاجهاد والدوخان يعودان اليه من جراء تطلعه المستمر ، الى ذبذبات الشمس على الجدار المقابل . وأحس بان هذه الشوارع الخالية ببيوتها المهجورة تجتذبه في نفس الوقت الذي يشعر فيه بالنفور منها . واراد مرة ثانية ان يخرج من هذه البلاد ، وفكر من جديد بذلك الحجر الهائل ، وود ان تنتهي تلك التجربة ، وكان على وشك ان يقترح النزول من دار البلدية للبحث عن شيء ، عندما أخذت اجراس الكنيسة تقرر بعنف وشدة . وتدفت ضجة شديدة في نفس الوقت من النهاية الأخرى للشارع الواقع الى اليسار ، كما ظهر جمهور غفير من الناس في وضع شديد الانفعال . وشوهد الناس من مسافة بعيدة ، يحتشدون حول التابوت ، وقد اختلطوا بالحجاج والخطاة والتائبين وهم يتقدمون وسط اسهم نارية تتفجر ، وهتافات معبرة عن الفرح ، عبر شارع ضيق . واكتظ الشارع بهم ، وهم يزحفون على دار البلدية في فوضى لا توصف ، وقد اختلطت الاعمار بالاجناس والازياء ، التي امتزجت في جماهير متباينة من الناس ، باعينهم المفتوحة وافواههم الصارخة . وظهرت من بين الحشود ، جماعات تحمل اشياء دقيقة كالرماح ، تنبعث منها مشاعل ، تحتفي

في ضوء الشمس المحرقة . وعندما اقتربت هذه الحشود من دار البلدية ، وكانت كثيفة وكبيرة ، ووقفت تحت الشرفة ، وكأنها تريد ان تتسلق الجدران ، لم ير داراست طباخ الباخرة بينها .

وغادر داراست الشرفة مسرعاً كالبرق الخاطف ، دون ان يعتذر ، وهبط السلم بمجلة ولهفة الى ان وصل الشارع ، فوقف بين الاصوات المزججة ، من الاجراس والصواريخ النارية . وكان عليه ان يشق طريقه عبر حشود المحتفلين وحلة المشاعل والخطاة والتائبين . ولكنه استطاع بثقل جسمه وبالعنف قوته ، ان يدفع عن نفسه مد الجماهير الطاغية ، وان يشق طريقه بصعوبة ، حتى انه ترنح وكاد يسقط عندما وجد نفسه وقد خرج من الزحمة ، اصبح حراً طليقاً في نهاية الشارع . واستند الى الجدار الذي يحترق كالنار من الحرارة ، منتظراً ، التقاط انفاسه . ثم استأنف طريقه . ورأى في تلك اللحظة جماعة من الرجال ، تظهر في الشارع . وكان الذين في المقدمة يسرون الى الوراء ، ورأى داراست انهم يحيطون بالطباخ .

وكان من الواضح ان الجهد قد قتله . فقد كان يقف بعد كل خطوة ، تحت عبء الحجر الثقيل ، ثم يركض عدة خطوات بسرعة عمال الطرق أو وساق السفن التجارية ، مهرولاً ، هرولة الكادحين وراء خبزهم اليومي . وقد النف حوله عدد من التائبين في ملابسهم الكهنوتية ، التي انتشر عليها الغبار ، وقطرات الشمع يشجعونه كلما توقف . وكان اخوه يسير الى جانبه صامتاً ، ويركض عندما يركض . وبدا لداراست ان وقتاً مرمدياً سينقضي قبل ان يجتازوا ، المسافة التي تفصلهم عنه . وعندما وصلوا اليه ، توقف الطباخ ثانية ، والتفت حوله ، بعينين بليدتين خاملتين . وعندما رأى داراست ، بدا وكأنه لم يعرفه ، فوقف صامتاً ثم التفت اليه ، وكان العرق القذر الذي يشبه الزيت يغطي وجهه ، الذي اصبح شاحباً ، وقد امتلأت لحيته باللغاب ،

بينما علا الزبد شذقيه . وحاول ان يبتسم . ولكنه لم يستطع حراكا تحت هذا العبء الثقيل الذي يحمله ، بينما كان جسمه يرتجف باستثناء كتفيه ، حيث بدا أن عضلاتها قد انكشيت . وقال اخوه الذي عرف داراست لتوه ببساطة : « انه كاد ان يسقط . » وهمس سقراط ، الذي خرج فجأة من مكان لم يره في اذنه قائلا : لقد رقص كثيرا ليلة امس يا مستر داراست . رقص طيلة الليل . وهو يشعر الآن بالتعب . »

وتقدم الطباخ ثانية ، بهرولته المترنحة ، لا كانسان يريد ان يتقدم ، بل كشخص يهرب من الحمل الذي ينوء به ويود ان يخفف من ثقله بالحركة . ورأى داراست نفسه يسير الى يمينه دون ان يعرف سببا لذلك ، ووضع يده خفيفا على ظهر الطباخ ومشى بجانبه بخطوات ثقيلة سريعة . واختفى التابوت في الطرف الثاني من الشارع ، وبدت الجماهير التي ملأت الساحة الآن وكأنها لا تريد ان تتقدم خطوة واحدة . واحرز الطباخ بعض التقدم عدة ثوانى اخرى بين اخيه وداراست . ولم يبق بينه وبين الجماهير المحتشدة امام دار البلدية لرؤيته وهو يمر اكثر من نحو عشرين ياردة ، ومع ذلك فقد توقف من جديد . وثقلت يد داراست على ظهره وهو يقول : « واصل السير ، يا طباخ ، مسافة قصيرة اخرى » . وارتجف الرجل ، وتدفق اللعاب من فمه ثانية . بينما انساب العرق من جميع انحاء جسمه . وحاول ان يأخذ نفسا عميقا ولكنه لم يستطع ، وكرر المحاولة ، ومشى ثلاث خطوات ثم ترنح . وفجأة انزلق الحجر على كتفه ، محدثا فيه جرحا ، ثم تدحرج الى الارض ، بينما فقد الطباخ توازنه ، وسقط على جانبه ، وتراجع الرجال الذين كانوا يسرون امامه . مشجعين ، وقد ارتفع صراخهم . وأمسك احدهم ، ببساطة الفلين بينما امسك آخرون بالحجر ، ليرفعوه فوق رأسه من جديد .

ومسح داراست ، الذي مال عليه ، الدم والغبار عن كتفه بيديه العاريتين ،

بينما لث الرجل الصغير ، ووجهه قد انكفأ على الارض . ولم يسمع شيئاً ولم يتحرك . وانفتح فيه باشتهاء وجوع ، وكأنه يستنشق النفس الاخير . وأمسك به داراست وطوقه عند صدره ، ثم رفعه بسهولة كما يرفع طفلاً صغيراً . وبعد ان اوقفه على قدميه بقبضة ثابتة ، وقد مال عليه بقوامه الفارع ، تحدث اليه وكأنه يحاول أن ينفخ في وجهه بعض قوته . وبعد لحظة واحدة ، خلص الطباخ نفسه من قبضته ، وقد غمرته الاتربة والدماء ، وبانت في محياه تعبيرات حائرة . وترنح متجهاً الى الحجر ، الذي رفعه الآخرون ، عن الارض ، بعض الشيء . ولكنه توقف ، متطلماً الى الحجر بنظرة خواء ، وهز رأسه . وسقط ذراعه الى جانبيه ، وعاد على عقبيه الى داراست ، ودموع سخينة تهطل من عينيه بصمت على وجهه التالف . واراد ان يتكلم ، بل وقد تكلم ، ولكن فيه لم ينطق بحرف واحد سوى تلك الجملة : « لقد نذرت ، آه ، يا قبطان ، آه ، يا قبطان » واغرقت الدموع صوته من جديد . وظهر أخوه فجأة وراءه ، وعانقه بذراعيه من ورائه ، وانهار الطباخ وهو يبكي ، بين يدي اخيه ، منهزماً وقد قذف برأسه الى الوراء .

وتطلع داراست اليه دون ان يدري ما يقول ، والتفت الى الحشد البعيد ، الذي بدأ في الصراخ من جديد . وفجأة ، أخذ بساط الفلين من الايدي التي تمسك به ، ومشى متجهاً الى الحجر . واثار الاخوين بان يرفعوه ، فحمله على رأسه ، دون جهد كبير . وانحنى رأسه بعض الشيء ، تحت ثقل الحجر ، كما احدودب كتفاه ، واصبح يتنفس بصعوبة ، وهو يتطلع الى قدميه ، بينما يصفي الى عبرات الطباخ . وأذاك مشى بخطوفه حياء ، ودون ان يسترخي أو يتقاعس ، قطع المسافة التي تفصله عن الحشد المجتمع في نهاية الشارع ، وشق طريقه بنشاط ، بين الصفوف الاولى ، التي انفتحت له من نفسها عندما تقدم . ودخل الساحة بين ضوضاء الاجراس والسهام النارية بين صفين

ضخمين من النظارة ، الذين عمتهم الدهشة ، فراحوا في صمت عميق يتطلعون اليه . وواصل السير بخطوة المتهور المندفع ، وأفسح له الحشد طريقاً الى الكنيسة . وعلى الرغم من الثقل الذي بدأ يرهق رأسه ورقبته ، فقد رأى الكنيسة والتابوت الذي بدا وكأنه يقف في مدخلها في انتظاره . وكان قد اجتاز منتصف الساحة في ذلك الاتجاه ، عندما أحس بشعور وحشي طاغ ، لا يدري سبباً له ، يحمله على الاستدارة الى الشمال ، والابتعاد عن الكنيسة ، مواجهاً جماعات الجحيم . وسمع احدهم يركض وراءه . وتفتحت الافواه امامه من كل جانب . ولم يفهم ما صاحت به هذه الافواه او قالت ، على الرغم من انه ادرك الكلمة البرتغالية الوحيدة التي توجه اليه باستمرار . ورأى سقراط فجأة يقف امامه ، يفرك عينيه الدهشتين ، ويتكلم دون رابط ، ويشير الى الطريق المؤدية الى الكنيسة وراءه . وادرك ان سقراط والجموع كلها تهتف بصوت واحد : « الى الكنيسة ، الى الكنيسة » ، ولكن داراست واصل السير في الاتجاه الذي قصد اليه . وتنحى سقراط جانباً وقد رفع ذراعيه في الهواء بصورة مضحكة ، بينما خيم الصمت تدريجياً على الحشد . وعندما دخل داراست الشارع الأول ، الذي سبق له ان قطعه مع الطباخ ، والذي عرف انه يؤدي الى النهر ، انقلبت الساحة الى دمدمة مرتبكة لم يسمع منها شيئاً .

وشعر بوطاة الحجر على رأسه تؤلمه ، واحتاج الى كل ما في ذراعيه الطويلتين من قوة لتخفيف هذه الوطأة عن رأسه . وكان كتفاه قد بدا يتحجران ، عندما وصل الشوارع الأولى في المنحدر الكثير الانزلاق . فتوقف عن السير واصفى . انه وحيد . وثبت الحجر على قاعدته الفلينية ، وهبط المنحدر حذراً ، ولكن بخطوات ثابتة نحو الاكواخ . وعندما وصل اليها ، كانت قواه قد بدأت تخونه وكانت ذراعاها ترتجفان تحت وطأة

الحجر . وغذ سيره ، ووصل أخيراً الى الساحة الصغيرة أمام كوخ الطباخ ، فركض نحوها ، وفتح باب الكوخ بقدمه ، وقذف بالحجر ، الى النار المتأججة ، في وسط الغرفة . وهناك أخذ ينتصب بقامته ، حتى استقامت ، وأخذ يعب ، بياس من رائحة الفقر التي يعهدا بمزوجة مع الرماد ، وشعر في نفسه بسرور طاغ ولاهث ، ولم يستطع تسميته .

وعندما وصل اهل الكوخ ، وجدوا داراست ، واقفاً وقد اتكأ بكتفيه على الجدار الاسود واغلق عينيه . ورأوا في وسط الغرفة ، وفي مكان الموقد الحجر ، وقد غمر الرماد والأرض نصفه . وتوقفوا في الباب ، دون ان يتقدموا ، وهم يتطلعون الى داراست صامتين وكأنهم يوجهون الأسئلة اليه . ولكنه لم ينبس ببنت شفة ، وآنداك قاد الأخ ، الطباخ الى الحجر ، حيث سقط على الارض . وجلس الاخ ايضاً ، مشيراً الى الآخرين بان يجلسوا . وانضمت اليه المرأة المعجوز ، ومن ثم صبيّة الليلة السالفة ، ولكن دون ان يتطلع اي منهم الى داراست . وأقعوا جميعاً في دائرة صامتة حول الحجر . ولم يعكر صفو صمتهم شيء الا مهمة النهر ، وهي تصل اليهم محمولة على الهواء الثقيل . ووقف داراست في الظلام مصغياً دون ان يرى شيئاً ، وبعثت اصوات المياه في نفسه سعادة غامرة . واغمض عينيه فشر بسرور انه يستعيد قوته ، وانه يستعيد من جديد بداية اخرى للحياة . وانطلق صاروخ ناري في تلك اللحظة ، وبدا وكأنه صادر من مكان قريب . وابتمد الأخ قليلاً عن الطباخ ، والتفت نصف التفاتة الى داراست دون ان يتطلع اليه ، وأشار الى المكان الخالي قائلاً : « اجلس معنا هنا » .

الفهرس

٩	كلمة المترجم
١١	١ - المرأة الزانية
٣٩	٢ - المارق
٦٣	٣ - الرجال الصامتون
٨٣	٤ - الضيف
١٠٥	٥ - الفنان يعمل
١٤٥	٦ - الحجر النامي

اقوال مول الكتاب

« اصبح كامو ضمير العصر الحاضر ... وكتابه هذا » المنفى والملكوت « يعبر عن الاوضاع الرواقية الانسانية ، تعبيرات مختلفة وقوية . وتؤكد هذه القصص العنيفة ، الحكمة ، ان كامو ، ليس مجرد انساني ساذج مغرور ، بل انه يقف في صفوف الملائكة كما يجب ان يقف ، كما يعطي للشيطان حقه »

« ان قوة هذا الكتاب تبدو واضحة جلية »

جي وايتان (الاوبزفر) .

« ان بساطة البير كامو ، وحشد آرائه ، في كتاباته ، يبدو ان واضحين تمام الوضوح في هذه القصص الست ، التي ادرجها في كتابه » المنفى والملكوت » .

« وفي كل قصة من هذه القصص تبدو عبقرية كامو ، في عرض الوضع ، في صورة درامية رائعة ، وفي قوته عندما يخلق المنظر والجو ، اللذين تعرض فيها هذه الصور » .

مكوتسمان .

« يبدي كامو في قصته الساخرة » الفنان يعمل « ان كامو ، يملك موهبة هائلة وغير متوقعة في النكتة الساخرة .

ملحق التاميس الأدبي .